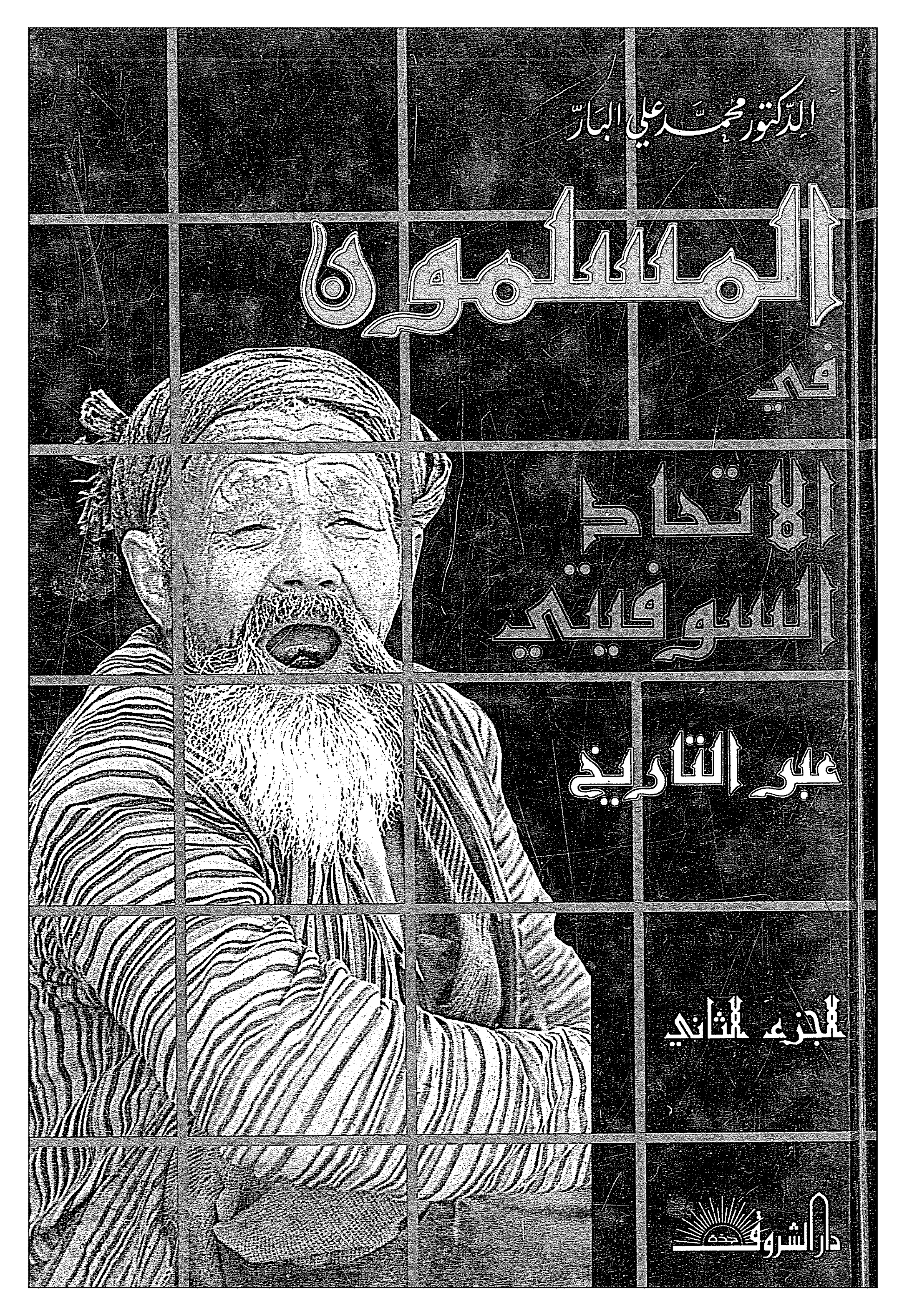

الدكتور محمد علي البار
المسلمون
في
الاتحاد
السوفيتي
عبر التاريخ
الجزء الثاني
دار الشروق
جدة

المسلمون في الاتحاد السوفيتي عبر التاريخ

الجزء الثاني

الطبعة الأولى

١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م



للنشر والتوزيع والطباعة

تليفون: الادارة: ٦٣١٠٠٣٢ (٠٢) المكتبة: ٦٤٢٦٦١٠ (٠٢)

برقياً: مشكاتنا - تلكس SHORCO SJ ٤٠١٢٠٩

ص.ب. ٤١٤٦ - جدة - المملكة العربية السعودية

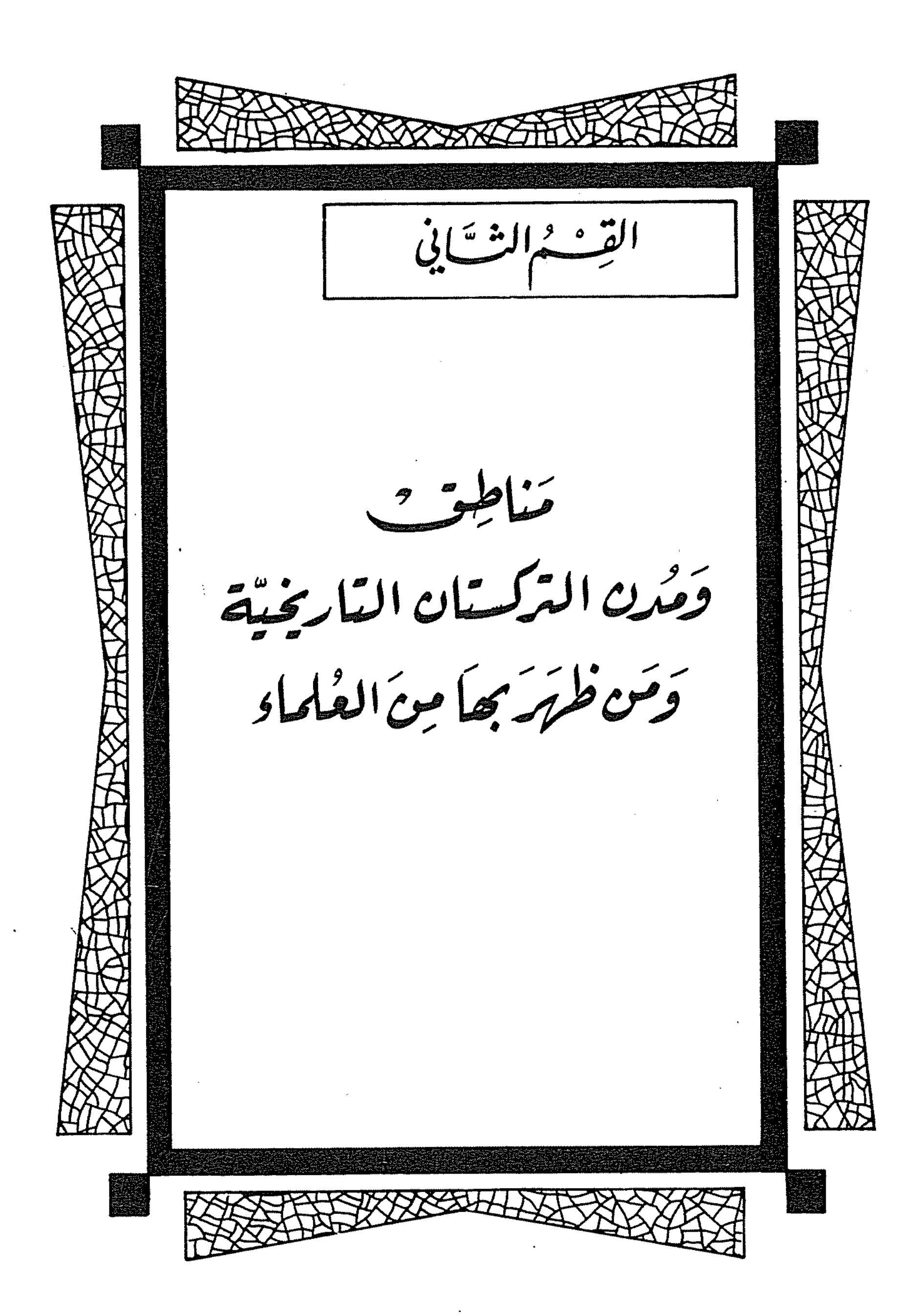
الدكتور محمد علي البار

المسلمون في الاتحاد السوفيتي عبر التاريخ

الجزء الثاني

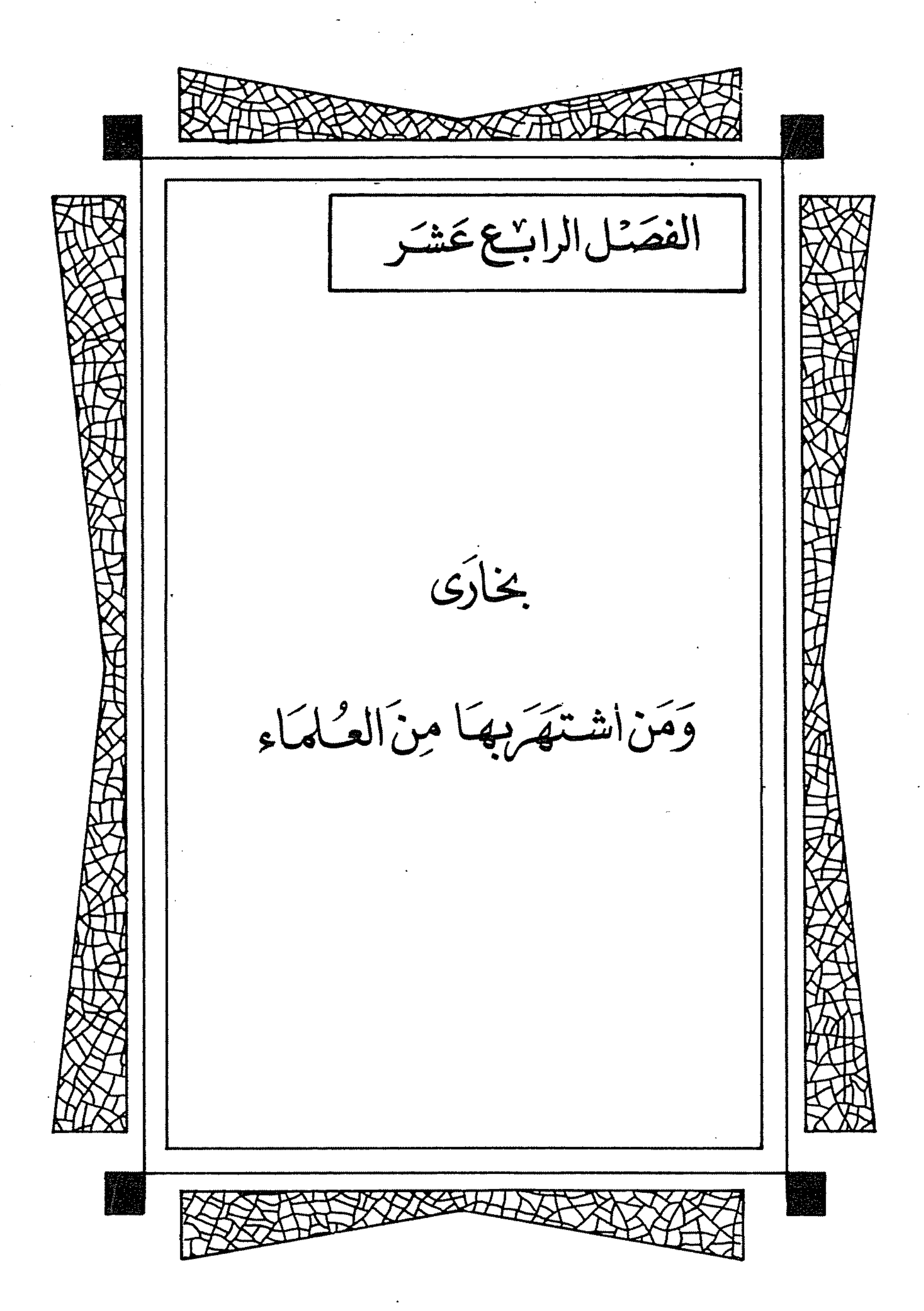


للنشر والتوزيع والطباعة



القسم الثاني

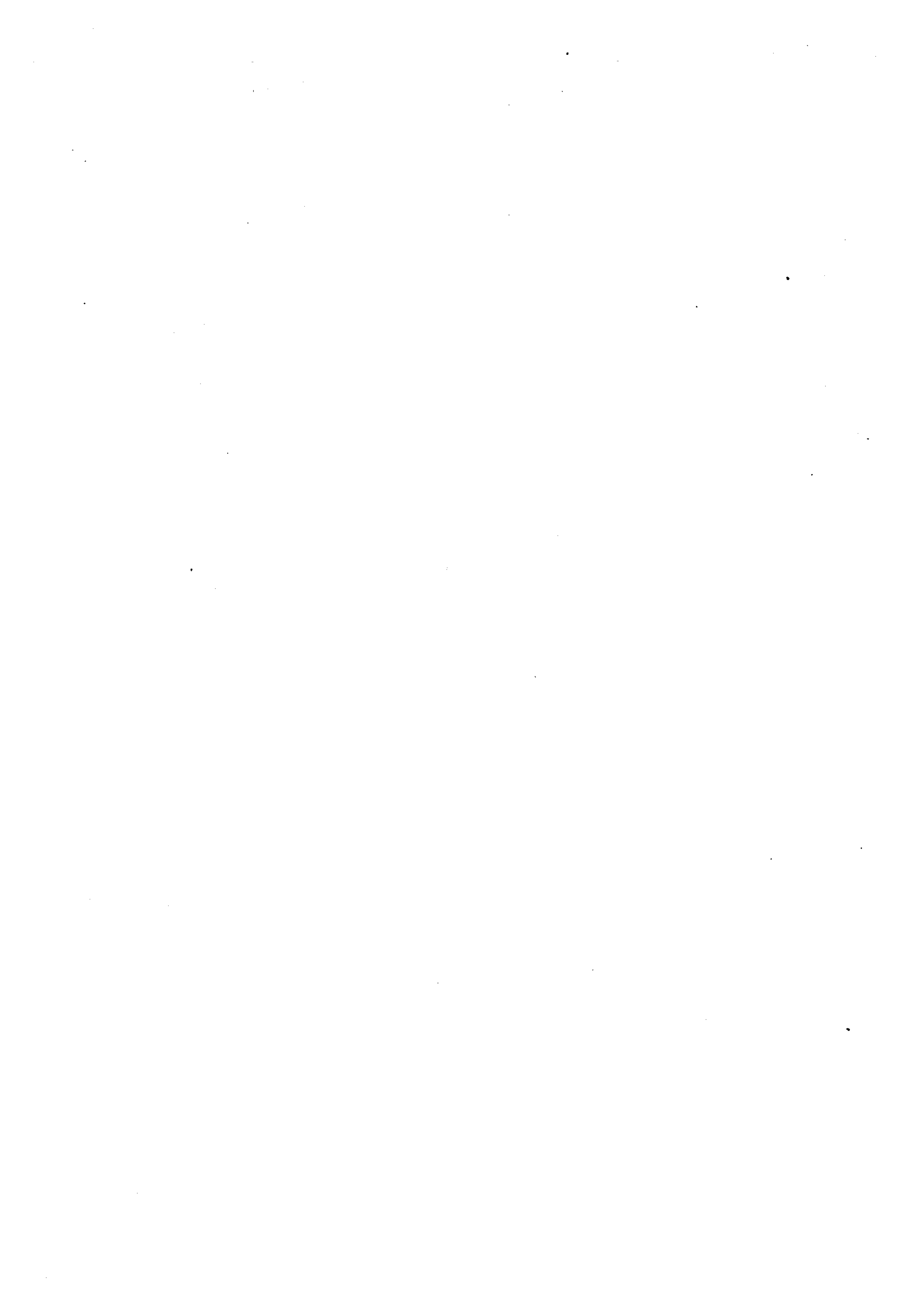
مناطق ومدن التركستان التاريخيّة ومن ظهر بها من العلماء



الفصل الرابع عشر

بخارى

ومن اشتهر بها من العلماء



دخل الإسلام الى بلاد ما وراء النهر منذ اواخر عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب، وتوالى انتشاره في أيام الخليفة الراشد عثمان بن عفان، ثم توقف أيام الفتن، ليعود انتشاره على يد قتيبة بن مسلم الباهلي، الذي فتح بلاد ما وراء النهر، عام ٨٦ هـ.

ومنذ ذلك العهد عمل الدعاة الى الله على ادخال اهل هذه البلاد الى الاسلام، فدخلوا في دين الله افواجاً، وظهر منهم افذاذ الرجال في تاريخ الاسلام.

وأننا لا نبالغ[١] اذا قلنا أن أغلب علماء الاسلام، وفقهائه، ومحدثيه، وفلاسفته، وأطبائه كانوا من الاعاجم، الذين دخلوا في دين الله افواجا، وكان أغلب هؤلاء من ثلاثة مناطق هي:

(١) فارس (٢) خراسان (٣) بلاد ما وراء النهر. فأما فارس فهي إيران - اليوم - وأما (خراسان) فهي مقسمة - اليوم - بين إيران وافغانستان والاتحاد السوفيتي، وأما (بلاد ما وراء النهر) فجميعها تقع في الاتحاد السوفيتي فيما يسمى تركستان الغربية (وهي جمهوريات اوزبكستان، وكازاكستان، وتركمنستان، وقيرغيزيا، وطادجكستان، وتركستان الشرقية المسماة (سينكيانغ) الواقعة تحت الاستعمار الصيني وسنتحدث عن الفحول من العلماء الذين ظهروا في المناطق الواقعة تحت الاستعمار السوفيتي وهي مناطق تركستان الغربية، بما تشمله من بعض مناطق (خراسان) الواقعة تحت الحكم الروسي وسنقصر الحديث عن علماء (خراسان) على أولئك الذين تقع بلادهم في الاتحاد السوفيتي لأننا

---

(١) قال النووي في التهذيب، وخراسان العظيم المعروف موطن الكثير او الأكثر من علماء المسلمين رضي الله عنهم.

لو أدخلنا فيهم من ظهر من (خراسان) الواقعة في ايران وافغانستان = اليوم - لما كفت المجلدات، ولكان ذلك خروجاً عن موضوعنا الاساسي، وهو المسلمون المنسيون في الاتحاد السوفيتي. وسيكون حديثنا في هذا الفصل وما يليه عن بخارى ونبذة عن تاريخها ومن ظهر بها واشتهر من العلماء والافذاذ.

يقول ياقوت[١] (بخارى من أعظم مدن ما وراء النهر وأجلها، يعبر اليها من آمل الشط وبينها وبين جيحون يومان من هذا الوجه.. وكانت قاعدة ملك السامانية.. ولا شك انها مدينة قديمة نزهة كثيرة البساتين واسعة الفواكه جيدتها، عهدي بفواكهها تحمل الى مرو وبينهما اثنتا عشر مرحلة، والى خوارزم وبينهما أكثر من خمسة عشر يوماً، وبينها وبين سمرقند سبعة أيام أو سبعة وثلاثون فرسخاً، بينهما بلاد الصغد) (وقال صاحب كتاب الصور: وأما نزهة بلاد ما وراء النهر فإني لم أر ولا بلغني في الإسلام بلداً أحسن خارجاً من بخارى لأنك اذا علوت فهندزها (قلعتها) لم يقع بصرك من جميع النواحي إلا على خضرة متصلة خضرتها بخضرة السماء فكأن السماء بها مكبة خضراء مكبوبة على بساط أخضر تلوح القصور فيما بينها كالنواوير فيها.. وأراضي ضياعهم منعوتة بالاستدارة كالمرآة. وليس بما وراء النهر وخراسان بلدة اهلها احسن قياماً بالعمارة على ضياعهم من أهل بخارى ولا أكثر عدداً على قدرها في المساحة، وذلك مخصوص بهذه البلدة لأن متنزهات الدنيا صغد سمرقند ونهر الأبلة) ويبدو أن هناك مبالغة في هذا الوصف لأن بخارى رغم اشتهارها كمدينة عظيمة ومركز للعلم والتجارة إلا أنها لم تكن نزهة مثل سمرقند ولا في نظافتها، ومع هذا فقد كانت بخارى كما يقول الثعالبي: مثابة المجد وكعبة الملك ومجمع افراد الزمان ومطلع

---

(١) ياقوت الحموي في معجم البلدان.

نجوم ادباء الأرض وموسم فضلاء الدهر.

« واسم بخارى القديم بومجكث وبناؤها خشب مشبك ويحيط بهذا البناء من القصور والبساتين والمحال والسكك المفترشة والقرى المتصلة سور طوله اثنا عشر فرسخاً (٣٦ ميلا) في مثلها يجمع هذه القصور والابنية والقرى والقصبة فلا ترى في خلال ذلك قفاراً ولا خراباً.. ومن دون هذا السور سور آخر خاص بالقصبة (أي العاصمة) وما يتصل بها من القصور والمساكن والمحال والبساتين التي تعد من القصبة.. ويسكنها أهل القصبة صيفاً وشتاء.. وطول هذا السور الداخلي نحو فرسخ في مثله.. ولها شهرستان (أي مدينة) وقهندز (أي قلعة) وبالقلعة مسكن آل سامان وقصورهم، ولها ربض (أي ضاحية) والمسجد الجامع على باب القهندز.

« وليس بخراسان وما وراء النهر مدينة اشد اشتباكاً من بخارى (أي شديدة الزحام لكثرة سكانها) ولا أكثر أهلا على قدرها، ولهم في الربض (أي الضاحية) نهر الصغد يشق الربض وهو آخر نهر الصغد فيفضي الى طواحين وضياع ومزارع ويسقط الفاضل منه في مجمع ماء بحذاء بيكند الى قرب فربر ».. وهي البحيرة المعروفة حالياً باسم قراكول أي البحيرة السوداء..

ويقول بارتولد في كتابه التركستان من الفتح العربي الى الغزو المغولي (بتصرف واختصار) « شغلت بخارى على الدوام موقعها الحالي بل ويمكن القول بأن خطط المدينة لم تتغير كثيراً خلال الف عام على الرغم مما تعرضت له مرات عديدة من نهب وتخريب على أيدي الغزاة من الرحل وعلى ايدي المغول في زحفهم الرهيب على العالم الاسلامي.

وكانت قد بلغت ذروة مجدها في عهد السامانيين الذين جعلوها قاعدة ملكهم. وهي تنقسم كبقية المدن القديمة الى قلعة (قهندز)

وشهرستان (المدينة) وربض (أي ضواحي) وكان الشهرستان يقع على مقربة من القلعة وكلاهما على نشز من الأرض حتى يصعب رفع الماء اليهما..

وللقلعة بابان شرقي وغربي وكان يقطع القلعة شارع يصل بين البابين.. وكان بداخل القلعة الخارجية قصر الحاكم من آل سامان. وقد بنيت القلعة والقصر لأول مرة في القرن السابع الميلادي ثم اعيد بناؤها عدة مرات على مدار التاريخ فقد أعاد بناءها أرسلان خان في القرن الثاني عشر الميلادي ثم هدمها خوارزمشاه اتسز ثم بناها البتكين.. ثم خربها جنكيز خان سنة ٦١٧هـ (١٢٢٠م). وكان شهرستان بخارى على نقيض شهرستان سمرقند وبلخ ومرو ذا سبعة أبواب وكل باب يؤدي الى حي أو محلة فهناك باب السوق (أو باب العطارين) وباب بني سعد وباب بني اسد وواضح من أسماء الأبواب بني أسد وبني سعد انها للقبائل العربية التي سكنت هذه المواضع من المدينة.

وأما الماء فقد كان يجلب الى بخارى من نهر الصغد بواسطة قناة كانت تحمل اسم رودزر أي النهر الذهبي.. الذي كان يشق البلد ويتخلل الاسواق ويتشعب في الشوارع.. ولهم حياض في البلد واسعة مكشوفة قد اتخذ على حافتها بيوت من الالواح بابواب يغتسل فيها.. وربما غلب ماء النهر المنقلب الى بيكند فغرق الضياع في الصيف.[١] ويقول بارتولد ومن ألفاظ المقدسي يبدو جلياً أن القناة الرئيسية كانت تدخل المدينة قرب باب قرشي الحالي أي من نفس الموضع بالتقريب الذي تدخل منه حالياً....

وهناك عدة قنوات تتفرع من القناة الرئيسية داخل المدينة ذكرها

---

(١) المقدسي كما ينقله عنه بارتولد في كتابه (التركستان).

الاصطخري ونقلها عنه بارتولد وعد منها اثني عشر قناة. وقد اسكن قتيبة بن مسلم عند فتح بخارى العرب بين أظهرهم حتى يعلّموا الاهالي الاسلام. وجعل المنطقة الممتدة من باب السوق الى باب الحديد لمضر وربيعة. وجعل باقي المناطق للقبائل اليمنية.. وكان الشارع المؤدي الى القصر يعرف بأسم ايوب بن حسان أول أمير عربي لبخارى وهو أحد قواد قتيبة بن مسلم الباهلي.. وكانت ببخارى العديد من القصور الفخمة والمساجد الرائعة وعدد كبير من الزوايا والصوامع التي كان يلجأ اليها الزهاد والعباد كما كان فيها الكثير الكثير من المدارس والاربطة لطلبة العلم.. وكان أول مسجد ببخارى هو المسجد الجامع الذي شيده قتيبة بن مسلم عام ٩٤ هـ (٧١٣ م) بالقلعة وذلك في الموضع الذي كان يقوم فيه بيت الاصنام.. أما صلاة العيد فكانت في موضع آخر شمالي الريكستان.. ثم توالى بناء المساجد وكان من أجملها وأوسعها المسجد الذي بناه الفضل بن يحي البرمكي عندما كان والياً على بلاد ما وراء النهر وخراسان في عهد المهدي والرشيد.. وقد تم توسيع هذا المسجد على يد اسماعيل الساماني سنة ٢٩٠ هـ (٩٠٢ م) واعاد بناءه بعد أن انهار جزء منه سنة ٣٠٦ هـ الوزير ابو عبد الله الجيهاني من ماله الخاص.. وبجوار هذا المسجد كان يقوم مصنع النسيج الرئيسي بالمدينة.. واحترق مسجد السامانيين الجامع سنة ٤٦٠ ولكن أعيد بناؤه في العام التالي.. وأقام ارسلان خان محمد مسجداً جامعاً جديداً بالشهرستان وذلك سنة ٥١٥ هـ - (١١٢١ م) الذي كان آية في الجمال.. وظلت منارته قائمة على بنائها القديم حتى عشية الهجوم الروسي الشيوعي عندما اصابها الضرر من نيران الجيش الأحمر وذلك في سبتمبر سنة ١٣٣٩ هـ (١٩٢٠ م).

وقد اشتهرت بخارى بسعة شوارعها التي كانت مرصوفة بالحجارة.. ورغم ذلك فقد كانت بخارى شديدة الزحام بسبب كثافة سكانها.. وكان

تلاصق البيوت مما يساعد على حدوث الحرائق الكبيرة فقد وصف النرشخي في تاريخ بخارى حريقين هائلين حدثا في عهد نصر الساماني ويقسم الاصطخري المناطق المحيطة ببخارى والتابعة لها الى اثنين وعشرين رستاقاً، منها خمسة عشر داخل السور الطويل الذي يحمي النواحي القريبة من المدينة والباقي خارجه. ويبلغ طول هذا السور أثنا عشر فرسخا وعرضه كذلك.. وكانت صيانة السور تحتاج الى أموال طائلة وتمثل عبئاً ثقيلاً على السكان فلما أمن الناس في عهد اسماعيل الساماني اهملت صيانة السور وبدأ في التهدم ولا تزال بقايا هذا السور مائلة الى اليوم على هيئة حاجز يعرفه الاهالي باسم كمبير دوال.(١)

وعلى بعد خمسة فراسخ من بخارى كانت تقوم مدينة بيكند التي اشتهرت كمركز تجاري كبير وبيكند اقدم من بخارى وكانت تسمى مدينة التجار وكان تجارها يذهبون الى الصين قبل الاسلام وبعده كما كانوا يذهبون الى ما وراء بحر قزوين..

وكان لكل قرية من قرى بخارى رباط عند باب بيكند حتى بلغ عددها نحو الف رباط وكان ينزل بهذه الاربطة وحدات من الجند لدفع غارات الاعداء.. ولكن لم تعد لها حاجة بعد استتباب الأمن في عهود السامانيين في القرن الثالث الهجري...

ويحيط بيكند سور حصين.. وكعادة المدن القديمة فإن تلك المنطقة بها قلعة وشهرستان (أي المدينة) وربض أي الضاحية.. واشتهر المسجد الجامع في بيكند بمحرابه المذهب المرصع بالاحجار الكريمة. وقريباً من بيكند كانت تجري قناة تصب في بحيرة سامجن المعروفة حالياً باسم قراكول أي البحيرة السوداء التي يكثر فيها السمك كما تكثر الطيور

---

(١) أنظر كتاب التركستان لبارتولد..

حولها، ويأخذ الاهالي ما يحتاجونه من المياه من هذه القناة التي تصل الى المدينة.

وتدهورت بيكند الى حد كبير بعد سقوط السامانيين وحاول ارسلان خان إحياءها ولكن جهوده لم تكلل بالنجاح.

ويذكر المؤرخون عدداً كبيراً من القرى والمدن التابعة لبخارى والتي كان فيها مسجد جامع أهمها دون ريب بيكند تليها مدينة طواويس وهي مدينة بومجكث وانما اسماها العرب طواويس لأنهم شاهدوا بها الطواويس كثيرة في كل شارع.. ومنها مدينة زنده التي اشتهرت منتوجاتها الفاخرة بأسم زنداني والتي كانت تباع في بغداد ودمشق لجودتها.

فتح بخارى: فتحت بخارى لأول مرة على عهد معاوية بن ابي سفيان سنة ٥٤ هـ[١] (٦٧٤ م) فتحها عبيدالله بن زياد واليه على خراسان وكان عبيد الله آنذاك شاباً في الخامسة والعشرين فجهز جيشاً من مرو وسار على رأسه حتى أتى بيكند ففتحها عنوة ثم سار الى بخارى فقاتل ملكتهم المسماه الخاتون فلما رأت الهزيمة طلبت الصلح فصالحها عبيد الله على الف الف درهم وأخذ معه الفين من سبي بخارى كلهم جيد الرمي فأحسن اليهم واسلموا فكانوا من جيشه.. ثم استعمل معاوية على خراسان سعيد بن عثمان بن عفان سنة ٥٦ هـ (٦٧٥ م) فقطع سعيد النهر فلما بلغ الخاتون عبوره حملت اليه الصلح. وأقبل أهل الصغد والترك وأهل كشى وأهل نسف في جيش لجب مقداره مائة وعشرون الفاً... فالتقوا ببخارى وندمت الخاتون على وفائها بالصلح فقامت بنقض العهد.. فلما انتصر المسلمون اعادت الخاتون الصلح ودخل سعيد بن عثمان مدينة بخارى ثم غزا سمرقند التي استشهد في معركتها قثم العباسي

---

(١) ذكر النرشخي في تاريخ بخارى أن ذلك كان في أواخر سنة ٥٣ واول ٥٤.

رضي الله عنه.

وكانت فتوحات المسلمين آنذاك غير ثابتة ويقبلون الجزية من أهل تلك البلاد، يعودون الى قاعدتهم في مرو عاصمة خراسان.. ولهذا نجد أن أهل تلك البلاد ينقضون العهد كلما وجدوا لذلك فرصة.. فلما جاء قتيبة بن مسلم ٨٦ هـ (٧٠٥ م) اخضعها واسكن العرب فيها حتى لا تعود للانتقاض وحتى ينتشر الاسلام وبنى مسجدها الجامع. وكذلك فعل في سمرقند وبقية مدن وقرى بلاد ما وراء النهر التي فتحت في عهده.

ومنذ ذلك العهد أصبحت بخارى قلعة من قلاع الاسلام وحصناً من حصونه المنيعة وأنجبت بخارى وقراها من لا يحصى كثرة من العلماء والنابغين نذكر منهم الإمام محمد بن اسماعيل البخاري والفيلسوف الطبيب الموسوعي ابن سينا الذين سنترجم لهما بشيء من التفصيل بعد قليل.. ومنهم ابو زكريا عبد الرحيم بن أحمد بن نصر التميمي البخاري الحافظ سمع بما وراء النهر والعراق والشام ومصر وافريقية والاندلس ثم سكن مصر ونشر بها علم الحديث وكان يقول لي في بخارى اربعة عشر الف جزء اريد ان أمضي واجيء بها (أي مكتبته التي تركها في بخارى) ومات ابو زكريا عبد الرحيم هذا بالحوراء سنة ٤٦١ هـ وولد سنة ٣٨٢ م....

وقد ذكر المستشرق (فامبري) في كتابه (تاريخ بخارى) أن عدد المدارس الجامعة ببخارى في عهد (اسماعيل الساماني) يزيد على نظائره، في كل مدن آسيا، حتى لنرى بلخ (في افغانستان اليوم) وهي التي تعرف بقبة الاسلام - لم تستطع ان تبرز لتنافسها الا بعد ذلك بكثير (في ايام الغزنويين من آل سبكتكين الذين كانت عاصمة ملكهم غزنة في افغانستان).واخذت هذه المدينة (أي بخارى) التي تقوم على شاطيء (نهر) زرفشان (واسمه القديم نهر الصغد) والتي غدت

عاصمة نصف آسيا الاسلامية، تزدهر، ويعلو قدرها، يوماً عن يوم، بوصفها قصبة المال والعلم ومركز انتاج الحرير الذائع الصيت كذلك. وكان الامراء السامانيون الذين جعلوا (بخارى) عاصمة ملكهم، الذي امتد فشمل معظم بلاد ما وراء النهر (أي جيحون) كما شمل أجزاء واسعة من افغانستان وخراسان، يبذلون جهدهم لجعل بخارى مثابة العلوم كلها».

وقصة ظهورهم تستحق التنويه، فقد كان أحد أعيان بلخ (في أفغانستان) ويدعى سامان وهو لا يزال على دينه المجوسي الزرادشتي ينعم في ظل الحكم الاسلامي، فاستعان بأمير خراسان المشهور باسم ناصر المظلومين أسد بن عبد الله، ليرده الى بلده، التي أخرجه منها أمير تلك المنطقة المسلم، فقام ناصر المظلومين بمحاربة ذلك الظالم، وأعاد المجوسي (سامان) الى أرضه التي كان يدفع خراجها بانتظام، فاعجب سامان بهذه الاخلاق العالية والعدالة، والانصاف، فدخل في الاسلام. وكان سامان من نسل الملوك الساسانيين، الذين حكموا الامبراطورية الفارسية دهراً، فأكرمه الأمير أسد بن عبد الله، فلما رزق بولد أسماه أسداً، تيمناً باسم الامير العادل ناصر المظلومين أسد بن عبد الله، وولد لأسد بن سامان أربعة أبناء، ولاهم (المأمون) أمر بلاد ما وراء النهر، فجعل امارة سمرقند لنوح بن أسد الساماني، وجعل فرغانة لأخيه أحمد وولي يحي طشقند (اقليم الشاش) وجعل هراة (وهي في أفغانستان اليوم) تابعة لالياس بن أسد الساماني. واستمرت هذه البلاد - جميعاً - تحت حكم آل سامان مائة وسبعين عاماً، يوليهم فيها الخلفاء من بني العباس، ويظهرون هم الخضوع للخليفة، وان كانوا في واقع الأمر هم الحكام الفعليون لها، وليس للخليفة منهم الاسكة العملة، والدعاء على المنابر يوم الجمعة، وامداد الخليفة بالجيوش لاقماع الثورات، وفي عهد اسماعيل بن أحمد الساماني قام أمير خراسان، عمرو بن الليث بمهاجمة بلاد

ما وراء النهر، قاصداً (بخارى) فهزم شر هزيمة، وقام الخليفة بعد ذلك - بضم خراسان الى اسماعيل، فتوسعت بذلك رقعة الأرض التي يحكمها ال سامان، فشملت جميع بلاد ما وراء النهر جيحون (تركستان الشرقية والغربية) كما شملت خراسان (جزء منها في الاتحاد السوفيتي وجزء في افغانستان والباقي في ايران) وشملت أجزاء واسعة من أفغانستان).

واشتهر آل سامان بكرمهم، ونبل اخلاقهم، وعدلهم وشجاعتهم، وتمسكهم بأهداب الدين واجلالهم للعلماء، وتوقيرهم لهم، وتشجيعهم للعلم، وكانت عاصمتهم (بخارى) مثابة العلوم كلها، كما يقول عنها (فامبري) حتى أن عدد المدارس العلمية في (بخارى) فاق جميع مثيلاتها من عواصم آسيا الاسلامية.

واهتم آل سامان كذلك بالزراعة اهتماماً عظيماً فأقاموا السدود ونظموا قنوات الري حتى أصبحت مزارع بخارى وما حولها تنتج العديد من الفواكه، كما تنتج القطن والحرير. وازدادت أهمية (بخارى) التجارية في عهدهم، وكثرت بها الصناعات والمنسوجات القطنية والحريرية. **وكانت بخارى الشريفة التقية كما كانت تعرف - آنذاك ملاذ العلماء والفضلاء والعباد، والزهاد كما كانت مركز التجارة والصناعة والزراعة.**

فأين هي بخارى في هذا العهد، الذي ترزح فيه تحت أقدام الشيوعيين البلاشفة الذين حطموا المساجد، وهدموا المعابد، ونكلوا بالعلماء، وأقفلوا المدارس الاسلامية، وأبادوا كل أثر للثقافة الاسلامية، وألغوا الحرف العربي، ومنعوا اقامة الشعائر وفرضوا عليهم تربية الخنازير..

فيا لها من مأساة مهولة مروعة، تهون بجانبها فظائع جنكيزخان

واولاده اذ أن فظائع جنكيز كانت عابرة، وما لبث أحفاده أن دخلوا في الاسلام، وكانوا له قوة، اما هؤلاء الروس المستعمرون فها هم يبيدون كل اثر له، في حرب استمرت قروناً، وازدادت اشتعالا، منذ دخول البلاشفة (بخارى) عام ١٩٢٢م - الى يومنا هذا.

وعلى الرغم من الدمار الهائل الذي حل ببخارى وسمرقند وغيرها من بلاد ما وراء النهر والبلاد الاسلامية التي نكبت بالمغول الا أن هؤلاء المغول الأجلاف كانوا اكثر تسامحاً بازاء الدين الاسلامي، من الشيوعيين الروس البلاشقة، بدون أدنى مبالغة.

يقول المستشرق المجري (فامبري) في كتابه (تاريخ بخارى) ان خرائب (بخارى) سرعان ما حل محلها منشآت جديدة بل لم يأت عام ٦٣٢هـ (١٢٣٤م) ولما يمض خمسة عشر عاماً على تخريب المكان بواسطة جنكيزخان - حتى كانت المدرستان اللتان أقامهما مسعود بك وسرقوني بك تزدحمان بألوف الطلبة يدرسون فيها مختلف صنوف المعرفة.

ولم يلبث أمراء المغول من أبناء جنكيز خان وأحفاده، أن اعتنقوا هم الاسلام، وصاروا من أكبر المدافعين عنه، والمتحمسين لنشره، يقول المؤرخ المستشرق (فامبري) في كتابه القيم (تاريخ بخارى).

«وبعد أن دخل الجغتائيون (وهم أولاد جغتاي بن جنكيز خان) المتأخرون في الاسلام، تجد كتب الحديث تروج أيام (علاء الدين) ترماشيرين (طرمشيرين) المغولي كما نجد هؤلاء الامراء باعتناقهم الاسلام عن قرب، تدفعهم غيرتهم الدينية الى رعاية هذه الحركة الروحية لا يألون جهداً في ذلك ولقد رأينا كيف يتقبل أحفاد الفاتح المغولي (جنكيز خان) بكل خضوع زجر الشيوخ المحافظين لهم وتعنيفهم أياهم، بمسجد عام في مواجهة رعاياهم، وهم من بعد ذلك - يتولاهم

الخجل، لما كان قد وقع منهم، ويستغفرون لذنوبهم على مشهد من الملأ جميعاً »..

ويتحدث المصدر السابق عن الدمار، الذي نشره المغول في بلاد ما وراء النهر ولكن في وسط هذا الدمار، الذي قام به المغول، لم يزدهر من العلوم الا العلوم الشرعية وفروعها، وفي أيام الجغتائيين الأول (ولم يكونوا مسلمين مثل أولادهم) وكان الشيوخ (والمقصود شيوخ العلم) في تركستان يستمتعون بقدر معلوم من الحماية، وذلك بفضل التسامح الديني من جهة والاعتقاد في هيبة رجال الدين، من كل طبقة من جهة أخرى، وكان بكل مدينة واحد أو أكثر من (العلماء) الأولياء ممن كان المسلمون يلوذون بهم - وقت الخطر. وبهذا صار رجال الدين حماة لمن يعيشون في دائرتهم، حتى لنرى ابتداء من ذلك الوقت صدر الشريعة، ورؤساء القضاة، بل كل من يشتهرون بالورع والتقوى يستمتعون في بلاد ما وراء النهر بما لم تعرف له البلاد الاسلامية نظيراً، ولا يزال هذا النفوذ يقوم هناك حتى اليوم (أي تاريخ تأليف كتابه وهو عام ١٨٧٢ م).

وقد ذكر ابن بطوطة في رحلته الشهيرة انه اقام في بخارى عند الامير علاء الدين طرمشيرين حفيد جنكيزخان، مدة شهرين رأى فيها من عجائب تقوى هذا الامير، وكرمه وحبه للعلماء ما سجله له التاريخ.

سلطان ما وراء النهر: وننقل لك بعض ما قاله (ابن بطوطة) تحت عنوان (سلطان ما وراء النهر). «وهو السلطان المعظم علاء الدين طرمشيرين، وهو عظيم المقدار، كثير الجيوش والعساكر ضخم المملكة، شديد القوة، عادل الحكم.

«ومن فضائل هذا الملك انه حضرت صلاة العصر يوماً، ولم يحضر السلطان (وكان السلطان حريصاً على صلاة الجماعة في المسجد حتى في

شدة الشتاء القارس) فجاء أحد فتيانه بسجادة ووضعوها قبالة المحراب، حيث جرت عادته أن يصلي، وقال للإمام حسام الدين الياغي (إمام المسجد وأحد العلماء الزهاد العباد من الصوفية) أن مولانا يريد أن تنتظره بالصلاة قليلا، ريثما يتوضأ، فقال الإمام الصلاة لله أو لطرمشيرين؟! ثم أمر المؤذن بإقامة الصلاة، وجاء السلطان وقد صلّى منها ركعتان فصلى السلطان الركعتين الاخريين، حيث انتهى به القيام وذلك في الموضع الذي تكون فيه أنعلة الناس، عند باب المسجد وقضى ما فاته، وقام الى الإمام ليصافحه، وهو يضحك، وجلس قبالة المحراب، والشيخ الامام الى جانب، وأنا الى جانب الإمام، فقال لي الإمام: اذا مشيت الى بلادك، فحدث أن فقيراً من فقراء الاعاجم يفعل هكذا مع سلطان الترك).

«وكان هذا الشيخ يعظ الناس في كل جمعة، ويأمر السلطان بالمعروف، وينهاه عن المنكر وعن الظلم، ويغلظ عليه القول، والسلطان ينصت لكلامه ويبكي.. وكان الشيخ لا يقبل من عطاء السلطان شيئاً، ولم يأكل قط من طعامه، ولا لبس من ثيابه) وقد كان من اخلاص هذا السلطان للإسلام أن ألغي قانون جنكيزخان المشهور باسم (الياساق) وتكتب أحياناً (اليصا) وقد ذكرها بالتفصيل الجويني في كتابه (جهانكشا) وكان من نتيجة الغاء هذا الدستور المغولي ان ثار عليه أفراد المغول، وان كان أكثرهم قد أسلم، وقاموا بعزله، وتولية بوزون أغلى، الذي كان مسلماً فاسد الدين، سيء السيرة كما يصفه ابن بطوطة.

وهكذا ترى - أيها القارىء الكريم - أن الدمار الذي نشره جنكيزخان وهولاكو كان فعلاً اقل من الدمار الذي نشره الشيوعيون الروس في بلاد ما وراء النهر...

فقد كان خراب جنكيزخان على وحشيته وفظاعته وهوله عابراً، لم تلبث بعده مدن بخارى وسمرقند وفرغانة وخوارزم أن استعادت مكانتها الى حد ما.

بل لقد استطاعت بلاد ما وراء النهر أن تحول هؤلاء البرابرة الجفاة الغلاظ الى الاسلام تماماً مثلما فعلت (نيسابور) (ومرو) (وبغداد) (ودمشق) و(القاهرة).

ولقد تحول هؤلاء المغول فعلا الى الاسلام وظهر منهم من كان شديد التمسك بآداب الاسلام وأخلاقه، وعدله، وانصافه، مثل السلطان علاء الدين طرمشيرين، الذي تقدم ذكره، وانتشرت في عهودهم، بل في عهود آبائهم الكفرة المردة - المدارس الاسلامية، واتسعت واستعادت شيئاً كثيراً من مجدها الغابر.. فأين هؤلاء المغول البرابرة الهمج من هؤلاء الشيوعيين الروس، الذين أضافوا الى الإبادة الحسية الابادة المعنوية لسكان ما وراء النهر وغيرها من المناطق الاسلامية الواقعة تحت براثن استعمارهم؟

أين مساجد تركستان التي هدمت أو حولت الى نواد واسطبلات، وقد بلغ عددها ٦٦٨٢ مسجداً؟

أين مدارس التركستان الاسلامية التي أقفلت بعد دخول الروس البلاشفة والبالغ عددها ٧٠٥٢ مدرسة؟

أين علماء الاسلام الذين ذبحهم الروس أو زجوا بهم في غياهب السجون، أو قضوا عليهم في مجاهل سيبيريا، أو قضوا نحبهم وهم يشقون الطرقات في الجبال الوعرة في تركستان الشرقية والغربية؟

نعم، إن ما فعله الشيوعيون الصينيون في تركستان الشرقية والروس في تركستان الغربية بالمسلمين، وبالثقافة الاسلامية - أفظع

بمئات المرات مما فعله (جنكيزخان) وهولاكو وجغتاي مصاصو الدماء (وكان من عادة هؤلاء المغول أن يشربوا الدم مع الذهب المذاب والخمر في حفلاتهم).

وليس فيما نقول أدنى مبالغة اذ أن الثقافة الاسلامية ما لبثت الا بضع سنوات من حكم جنكيزخان حتى عادت كأفضل ما تكون، ثم نمت وترعرعت على يد أحفاد جنكيزخان الذين رضوا بالله رباً وبالاسلام دينا، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً وقائداً ومشرعاً بينما نرى حرب الابادة للدين الاسلامي والثقافة الاسلامية يقوم بها الشيوعيون الملاحدة في جميع المناطق الاسلامية التي احتلوها بما فيها (تركستان) (والقوقاس) (وشبه جزيرة القرم) (وتتاريا) و(أذربيجان) وغيرها من المناطق الاسلامية التي كانت زاخرة بمساجدها زاهرة بمدارسها الاسلامية العظيمة.

حتى أن الذين زاروا (تركستان) وآخرهم وفد رابطة العالم الاسلامي، حدثونا شفاهاً أن كثيراً من الشباب المسلم لا يعرف حتى كيف ينطق الشهادتين، وكيف أن بذور الشك والالحاد قد زرعت في شباب المسلمين هناك، حتى أن كثيراً منهم قد اعتنق الشيوعية الالحادية، واعلن كفره بالدين والكهنوت أفيون الشعوب!!

ويتحدث مؤلف صحفي مصري يدعى أحمد طلعت وشغل منصب رئيس دائرة الاستعلامات بالمؤتمر الاسلامي في عهد عبد الناصر، في كتابه (المسلمون في روسيا) تحت عنوان (مزرعة الخنازير) بعد أن قام بزيارة روسيا - بما يلي:

«أمامي رسم بياني يدل على ارتفاع نسبة الخنازير التي تربى في مزرعة الزنجوى الجماعية فقد ارتفعت هذه النسبة من ١٠٠ خنزير عام ١٩٥٥ الى الضعف في هذه السنة عام ١٩٥٨، لهذا الرسم البياني مغزى

ظاهر لا يخفى على فطنة اللبيب، آذ أن الخنزير حيوان نجس، في نظر المسلمين وقلما تجد المسلمين في البلاد الاخرى يعنون بتربية الخنازير، بل إنهم يعتبرون ذلك من المحرمات وكيف يمكن تربية حيوان حرم في القرآن؟ وفي ذلك دلالة صريحة على أن أوامر القرآن ليس لها نفس الاثر والقوة التي تتمتع بها في البلاد الاسلامية الاخرى، ورئيس المزرعة الجماعية التي نحن بصددها اسمه عبد الملك شير أحمدوف.»

ويقول في موضع آخر: «**ولا تدهش بعد ذلك اذا رأيت فعل هذه المطارق على الرؤوس، مطارق الدعوة الشيوعية، فالعامل - هنا - إن لم يكنّ شيوعياً فهو جندي خاضع للأوامر سهل الانقياد رغم أنه مسلم قبل كل شيء، والحقيقة أن العامل يترك ديانته أمام باب المصنع، لأنه لا يستطيع أن يترك عمله، ليؤدي الصلوات الخمس يومياً، ولا يستطيع أن يجد غذاء خاصاً بالمسلمين، ولا أن يضيع وقته في الاستماع الى عظة دينية أو ليتقيد بما تفرضه عليه تقاليد الاسلام**»..

وعندما يتحدث عن الدراسة في (أوزبكستان) يقول: «وتدريس الديانة أمر مجهول في هذه المدارس، بل أن الديانة تختفي كلما أوغل التلميذ في الدراسة العلمية، وكلما أدرك فعل الأشعة الشمسية في نمو النبات، كلما أيقن بأن الله لا دخل له في هذه العملية!!» ثم يقول:«في ظل هذا النظام تتعرض الأجيال الاسلامية الحديثة المتعاقبة لخطر المناهج الثقافية العلمانية (أي الشيوعية) التي تحل محل القرآن الكريم والشريعة الاسلامية ولعل من أبرز النتائج التي أسفر عنها نظام التعليم الحديث (الشيوعي) في آسيا الوسطى أن نشأت هناك طبقة من الشعب مزودة بالثقافة اللادينية العلمانية» (أي الشيوعية الماركسية اللينينية).

ثم يقول: «هذه الطبقة المثقفة التي خرجت من صميم الشعب ظلت

وثيقة الصلة بالجماهير وهي التي تعتبر همزة الوصل بين الشعوب الاسلامية وبين السلطات السوفيتية المركزية».. ويتحدث عما يسمى بتحرير المرأة، وكيف قامت السلطات السوفيتية بنزع الحجاب قسراً عام ١٩٢٧م ومعاقبة المخالفين بأشد العقوبات، حتى قامت من أجل ذلك الثورة المعروفة باسم (الباسماش) التي قاومت ذلك بعنف، وأدت الى قتل الآلاف وطرد عشرات الألوف الى مجاهل سيبيريا.

ثم يقول: «وقد ترتب على ذلك - بطبيعة الحال - تفتت الاسرة الاسلامية، فلم تعد تخضع لما كان سارياً في الماضي من النظم والتقاليد، اللهم إلا الاماكن الريفية النائية، وأخيراً فإن المرأة المسلمة أصبحت تحتل المناصب المرموقة في الاحزاب الشيوعية المحلية، والنقابات العمالية، وفوق هذا وذاك تجد بعض المسلمات أعضاء في مجلس السوفييت الأعلى، كما أن (مدام طاهر وفا) هي رئيسة اتحاد نقابات العمل، الذي يضم ستمائة الف عضو بجمهورية أذربيجان)..

ويفتخر أحد المسؤولين الروس بأن غالبية المسلمين اليوم في روسيا قد تخلصوا من نير الدين، وعبودية الله، وانهم تقدميون يقومون بتربية الخنازير في مزارعهم الجماعية، كما أنهم لا يأنفون من أن يتولى حكمهم رجل كافر، او امرأة كافرة.!! وهكذا، ترى الفرق شاسعاً بين حكم جنكيزخان وجغتاي وهولاكو الذين نشروا الدمار في بلاد الاسلام لفترة وجيزة ثم عاد أبناؤهم ليرفعوا بنوده وأعلامه ويقيموا مدارسه وينشروا لواءه، وبين هؤلاء الشيوعيين الذين يقومون بحرب ابادة واذابة لكل الشعوب الاسلامية الواقعة تحت نير استعبادهم الرهيب.. وسنترجم فيما يلي لبعض مشاهير علماء بخارى وأعظم أبناء بخارى، وأكثرهم شهرة، هو الإمام ابي عبدالله محمد بن اسماعيل البخاري...

الإمام البخاري (١٩٤ - ٢٥٦ هـ) (٨١٠ - ٨٧٠ م)

هو أبو عبد الله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة بن بردزبة البخاري، الجعفي ولاء امير المؤمنين في الحديث، وامام الائمة، صاحب (الجامع الصحيح) المعروف بصحيح البخاري، الذي اختاره من بين ستمائة الف حديث، وأوثق الكتب وأصحها بعد كتاب الله تعالى.

مولده وآباؤه:

ولد الإمام محمد بن اسماعيل في (بخارى) يوم الجمعة لثلاث عشر ليلة خلت من شوال سنة ١٩٤ هـ. وكان أبوه (اسماعيل) من أهل العلم والسعة في الرزق، مشتغلا بالتجارة وقد سمع من حماد بن زيد وابن المبارك، والإمام مالك، حين خرج للحج سنة ١٧٩ هـ والتقى بالإمام مالك بن أنس في المدينة المنورة وسمع منه (والمغيرة) هو أول من أسلم من آباء (البخاري) وكان اسلامه على يد احد مواطنيه وأسمه (اليمان) وهو الجد الأعلى للمحدث الحافظ (عبد الله بن محمد بن عبد الله بن جعفر بن اليمان المسندي الجعفي)[1]..

ونسب (البخاري) الى الجعفي، مثل كثير من أهل بلاد ما وراء النهر، الذين انتسبوا الى هذه القبيلة اليمنية، التي تنتسب الى (جعفي بن سعد العشيرة بن مذحج) ولكثرة من أسلم من الترك على يد هذه القبيلة، قال الشاعر:

وما كانت الاتراك ابناء مذحج
ألا إن في الدنيا عجيباً لمن عجب

وما ذلك إلا أن هؤلاء الاتراك، الذين أسلموا على يد هذه القبيلة اليمنية قالوا نحن أبناء لهذه القبيلة، أو كالأبناء.

---

(١) المحدث الحافظ عبد الله بن محمد بن عبد الله بن جعفر بن اليمان المسندي الجعفي شيخ البخاري. وقد كان اليمان والياً على بخارى واسلم على يده المغيرة بن بردزبة جد البخاري.

وقد أخرج هؤلاء الدعاة - بفضل صبرهم، وإخلاصهم لله - أفذاذاً وعباقرة رفعوا شأن هذه الأمة، واعلوا مكانها، وخدموا الاسلام أعظم خدمة.

أما (بردزبة) والد المغيرة فكان على دين قومه (المجوسية) ويقال ان (بردزبة) تعني الزارع، في لغتهم.

نشأته: توفي والد الإمام البخاري وابنه (المبارك محمد) طفل صغير، فرعته أمه أيما رعاية، وذهبت به الى مجالس العلماء، يستمع إليهم، ويأخذ عنهم، وهو طفل حدث، حتى قال الإمام (البخاري) عن نفسه: (الهمت حفظ الحديث، وانا في الكتّاب، وعمري عشر سنين أو أقل).

عبقريته ونبوغه المبكران: وكان ممن يذهب إليهم، لاستماع الحديث، في بخارى المحدث (الداخلي) وروي ان الداخلي قال يوما - فيما يقرره للناس (روى سفيان عن أبي الزبير عن ابراهيم) فقال الغلام النجيب، الذي لم يجاوز احدى عشرة سنة آنذاك: (ان أبا الزبير لم يرو عن ابراهيم). فظن المحدث (الداخلي) أن هذا الطفل يعبث، فانتهره لقلة أدبه مع أستاذه، فقال الغلام الألمعي: (ارجع الى الأصل، إن كان عندك) فعلم الاستاذ من لهجة الغلام الجادة أنه غير عادي فذهب مسرعاً، ودخل داره، يرجع الى الأصل، فوجده كما قال (البخاري) فعاد من **فوره** الى درسه، وقال للغلام: (صدقت).

ويا له من درس بليغ، ما أحرانا أن نلتفت إليه: كيف يقف التلميذ الصغير للاستاذ الكبير **ليقول له: انت على خطأ**، حينما يعلم أن ذلك خطأ، ثم كيف نرى الاستاذ الكبير لا يرى غضاضة في أن يرجع الى المراجع، ليستوثق من الحقيقة، وهو في مجلس الصدارة والتعليم، ثم يرجع **من فوره**، ليخبر الناس ان هذا الغلام الصغير، الذي لم يتجاوز

الحادية عشرة على صواب، وانه وهو العالم المحدث الاستاذ - على خطأ..

وهذه هي الجرأة المحمودة، وهذا هو التواضع المحمود: حيث لا يجفل الصغير ان يقول للكبير انت على خطأ، وحيث لا يستكبر صاحب المكانة ان يطاطىء رأسه للحق، ويقول: لقد أخطأت والغلام على حق.

وفي هذه السن الغضة الطرية - تلقى (البخاري) علوم الحديث من أئمته، في بلاده، من أمثال: محمد بن سلام البيكندي (وبيكند مدينة تبعد عن بخارى بأربعين كيلو متراً تقريباً) وعبد الله بن محمد المسندي الجعفي (البخاري).. وكان شيخه محمد بن سلام البيكندي يقول: كلما دخل علي هذا الصبي تحيّرت».

قال البخاري: (فلما طعنت في ست عشرة سنة - حفظت كتب ابن المبارك، ووكيع بن الجراح وعرفت كلام هؤلاء) (يعني أصحاب الرأي من الفقهاء).

وفي هذه السن الغضة، عام ٢١٠ هـ. وهو ابن ست عشر سنة - حج الى بيت الله الحرام، مع أمه وأخيه (أحمد) الذي يصغر (البخاري) صاحب الترجمة.

وكان (البخاري) في هذه الرحلة لا يدخل بلداً الا ويسمع من حفاظها، فسمع في (بلخ) (وهي عاصمة اقليم باكتيا في أفغانستان اليوم) من الحافظ (مكي بن ابراهيم البجلي)، وفي (البصرة) سمع من (أبي عاصم عمرو بن عاصم القيسي) ومن (محمد بن عبد الله بن المثني الانصاري)، وفي (الكوفة) سمع من(عبيد الله بن موسى العبسي)، وفي (مكة المكرمة) سمع من شيخها وقارئها (عبد الله بن يزيد المقري)، وفي بغداد من (عفان بن مسلم البصري) مولى الأنصار، وفي (حمص) من (أبي اليمان الحكم بن نافع البهراني)، وفي (دمشق) من (أبي مسهر عبد الأعلى بن مسهر الغساني)،

وفي (عسقلان) من (أدم بن اياس)، وفي (فلسطين) من (محمد بن يوسف بن واقد الفريابي) (والفرياب قرية من بلاد ما وراء النهر وينتسب إليها كثير من العلماء وتقع اليوم في شمال أفغانستان).

ومما تقدم ترى كيف استفاد الامام (البخاري) الشاب الحدث، في رحلته الى الحج، استفادة عظيمة، حيث التقى بأكابر علماء الحديث، في عصره، وأخذ عنهم، واستمع إليهم، ووعته حافظته القوية، التي لا تكاد تفلت شيئا.

قال حاشد بن اسماعيل: (كان البخاري يختلف معنا الى مشايخ البصرة، وهو غلام، فلا يكتب حتى أتى على ذلك أيام، فلمناه بعد ستة عشر يوما، فقال البخاري: قد أكثرتم علي، فاعرضوا علي ما كتبتم، فأخرجنا، فزاد على خمسة عشر ألف حديث، فقرأها كلها عن ظهر قلب، حتى جعلنا نحكم كتبنا من حفظه).

وقال زميل اخر للبخاري في مكة المكرمة، وهو (محمد بن الأزهر السجستاني) (نسبة الى سجستان وهي من بلاد ما وراء النهر في غرب أفغانستان بالقرب من حدودها مع ايران). (كنت في مجلس سليمان بن حرب الازدي البصري، قاضي مكة، والبخاري معنا يسمع ولا يكتب، فقيل لبعضهم: ماله لا يكتب: فقال الذي يعرفه: يرجع الى بخاري، ويكتب من حفظه):

وتحدث (البخاري) عن فترة شبابه - قائلا (كنت في مجلس الفريابي (في فلسطين) فقال الاستاذ الفريابي: حدثنا سفيان (الثوري وكان شيخ الفريابي) عن أبي عروة، عن أبي الخطاب، عن أبي حمزة، فلم يعرف أحد في المجلس من فوق سفيان، فقلت لهم: أبو عروة هو معمر بن راشد، وأبو الخطاب هو قتادة بن دعامة، وأبو حمزة هو أنس بن مالك).

وهذه الحوادث المتتالية في صبا الإمام (البخاري) تلقي الضوء على

نبوغه الباكر، وحفظه العجيب الفذ، ومعرفته التامة برجال السند ولذا عندما دخل (البخاري) الى العراق (بغداد) وهو في شبابه، تسبقه شهرته - اجتمع عشرة من علماء الحديث، وأرادوا امتحانه، ومدى علمه، فقالوا للبخاري: سيروي كل واحد منا عشرة أحاديث: ونريد منك أن تخبرنا بها، فذكر الأول عشرة احاديث يقلب أسانيدها، فلما انتهى نظروا الى البخاري فقال للثاني قل ما عندك، فلما انتهى، قال للثالث: هات ما عندك، وهكذا حتى أتم العشرة أحاديثهم المائة المقلوبة الأسانيد، وقد ظن بعضهم أن (البخاري) لم ينتبه الى قلب السند، وظنوا به الظنون، فما راعهم الا و(البخاري) يقول: لقد قلت يا فلان، وهو الأول، كذا وكذا، وعدد حديثه المقلوب السند، والصحيح كذا وكذا، ثم انتقل الى الثاني، والثالث، حتى أتى على المائة حديث، يعيد كل حديث قالوه، ثم يرد السند الصحيح، فعجبوا لحفظه الأحاديث المقلوبة السند، من مرة واحدة تقال له، أكثر من عجبهم من حفظه للأحاديث بأسانيدها الصحيحة.

تلاميذ البخاري

وانتهت بعد ذلك إليه رئاسة الحديث، وأخذ عنه الجم الغفير من جهابذة العلماء، منهم الإمام (مسلم بن حجاج القشيري) صاحب (صحيح مسلم) وهو ثاني الكتب الصحيحة، وهو من (نيسابور) بخراسان، وتقع - اليوم - في ايران، والإمام ابو عيسى محمد بن عيسى الترمذي وهو من ترمذ في أوزبكستان بالاتحاد السوفيتي، ومنهم شيخ الاسلام أبو عبد الله محمد بن نصر المروزي الفقيه وكان من أعلم الناس بالسنن، وأضبطهم لها، وأذكرهم لمعانيها، وأدراهم بصحتها، كما وصفه ابن حزم، وهو من مرو عاصمة خراسان (وتقع - اليوم - في جمهورية تركمنستان بالاتحاد السوفيتي).

ومن تلاميذه: الحافظ ابو علي صالح (جزرة) بن محمد بن عمرو الاسدي، نزيل (بخارى) وشيخ ما وراء النهر في الحديث.

ومنهم: الحافظ ابو جعفر محمد بن عبد الله بن سليمان الحضرمي الكوفي الذي وثقه (الدارقطني) وغيره.

ومنهم: ابن خزيمة شيخ الاسلام أبو بكر محمد بن اسحاق السلمي الحافظ، صاحب المصنفات الكثيرة، التي تربو على مائة وأربعين كتابا.

ومن أبلغ ما يوضح مكانة (البخاري) هذه الحادثة، التي يرويها أحد تلاميذ (البخاري) يوسف بن موسى المروزي: قال: (كنت بالبصرة في جامعها: اذ سمعت مناديا ينادي: يا أهل العلم، قدم محمد بن اسماعيل البخاري، فقاموا إليه، وكنت معهم، فرأيت رجلا شابا ليس في لحيته بياض، فصلى خلف الأسطوانة، فلما فرغ أحدقوا به، وسألوه أن يعقد لهم مجلسا للاملاء، فأجابهم الى ذلك، فقام المنادي ثانيا في جامع البصرة، فقال: يا أهل العلم لقد قدم محمد بن اسماعيل البخاري، فسألناه أن يعقد مجلساً للاملاء، فأجاب بأن يجلس غدا في موضوع كذا، فلما كان الغد، حضر المحدثون والحفاظ والفقهاء والنظارة، حتى اجتمع قريب من كذا كذا الف نفس فجلس ابو عبد الله للاملاء، فقال: يا أهل البصرة، أنا شاب سألتموني أن أحدثكم بأحاديث عن أهل بلدكم تستفيدونها (أي لم تعلموها من قبل فتعلموها مني) فتعجب الناس وأخذ في الإملاء، روي هذا الحديث عندكم كذا، فأما من رواية فلان فليست عندكم، وهي كذا، فاستفاد منه أئمة علماء البصرة وحفاظها، حيث اعلمهم بطرق للحديث المروي عن أهل البصرة لم يكونوا يعلمونها من قبل.

تكفي هذه لترينا سعة علم (البخاري) بالحديث ورجاله: اذ المفروض ان يكون رب الدار أدرى بشئون بيته: فجاء (البخاري) الفذ، وكان اعلم منهم بمروياتهم من الحديث، وهو منتهى العجب.

اشتغال البخاري بالتأليف:

لقد اشتغل (البخاري) منذ بداية شبابه بالتأليف، فقد قال عن نفسه: (لما طعنت في ثمان عشرة سنة جعلت أصنف قضايا الصحابة والتابعين وأقاويلهم). وفرغ من ذلك في سن العشرين وقال ثم صنفت التاريخ الكبير في المدينة عند قبر النبي ﷺ في الليالي المقمرة. وكل اسم في التاريخ الاّ وله عندي قصة الا إني كرهت ان يطول».

وكان (البخاري) يقول «لا أجيء بحديث عن الصحابة والتابعين الا عرفت مولد أكثرهم ووفاتهم ومساكنهم، ولست أروي حديثا من حديث الصحابة والتابعين (يعني حديثا موقوفا أو مقطوعا) الا وله أصل أحفظه عن كتاب الله وسنة رسوله».

وقال – رحمه الله – عن نفسه: «أقمت بالمدينة بعد أن حججت سنة أكتب الحديث (وقد حج وعمره ستة عشر سنة) وأقمت بالبصرة خمس سنين معي كتبي أصنف وأحج، وأرجع من مكة الى البصرة».

وكان (البخاري) رحمه الله – يجمع الى قوة الحافظة، التي يندر على مدى التاريخ مثيلها، قوة الادراك والفهم، وبخاصة لرجال الحديث ورواته، وجمع في ذلك الرواية والدراية كما يقولون، جمعا لم يتأت الا للقليل من العلماء على مدى التاريخ.

الجامع الصحيح:

وأعظم مؤلفات (البخاري) هو كتابه (الجامع الصحيح) الذي اختاره من بين ستمائة ألف حديث، مدة ستة عشر سنة، وتحدث (البخاري) عن كتابه العظيم، قائلا: (ما أدخلت فيه حديثاً حتى استخرت الله تعالى، وصليت ركعتين، وتيقنت صحته، وقد جعلته حجة فيما بيني وبين الله).

وعدد أحاديثه ٧٢٧٥ حديثاً بما فيها المكرر اما غير المكرر فهي

٤٠٠٠ حديث فقط خرجها[١] من ستمائة ألف حديث.

وكان يكتبه – اولا – في المسودة، فاذا أراد تبييضه حضر الى مدينة الرسول، وجعل يحول تراجمه بين قبر النبي – ﷺ – ومنبره، وكان يصلي لكل ترجمة ركعتين.

وعرض (البخاري) كتاب (الجامع الصحيح) على أئمة المحدثين، في عصره من أمثال (علي بن المديني) و(أحمد بن حنبل) و(يحيى بن معين) فاستحسنوه، وشهدوا له بالصحة، الا أربعة أحاديث.

وللإمام (البخاري) مجموعة أخرى من المؤلفات القيمة، نذكر منها: (الأدب المفرد) و(بر الوالدين) و(كتاب الهبة) و(القراءة خلف الإمام) و(رفع اليدين في الصلاة) و(التاريخ الكبير والاوسط والصغير) و(الجامع الكبير) و(المسند الكبير) و(التفسير الكبير) و(كتاب الاشربة) و(كتاب الكنى) و(كتاب الفوائد) و(خلق أفعال العباد) وكتاب الضعفاء وقضايا الصحابة والتابعين.

وبعض هذه الكتب مفقود – للاسف الشديد – منذ أزمنة متطاولة.

---

(١) أخطأ فامبري في كتابه تاريخ بخارى في عدد الأحاديث في صحيح البخاري فذكر أنها ستمائة الف حديث وتبعه في هذا الخطأ الدكتور أحمد محمد الساداتي في كتابه تاريخ الدول الاسلامية بأسيا وحضارتها. وهناك خلاف بين العلماء في عدد أحاديث صحيح البخاري ففي مقدمة ابن الصلاح جاء ما يلي: وجملة ما في كتاب الصحيح ٧٢٧٥ بالمكرر وقد قيل انها بإسقاط المكرر ٤٠٠٠ حديث إلا أن هذه العبارة قد يندرج تحتها عندهم آثار الصحابة والتابعين وربما عد الحديث الواحد باسنادين حديثين ». وعد الإمام النووي في تهذيب الاسماء واللغات وفي التقريب في مصطلح الحديث أحاديث البخاري أربعة الآف بغير المكرر. وكذلك قال ابن كثير في كتابه الباعث الحثيث في اختصار علوم الحديث. وقد ذكر الإمام السيوطي في تدريب الراوي جملة أحاديث البخاري ٦٣٩٧ حديثاً بالمكرر و٢٥١٣ غير المكرر و١٣٤١ المعلق. وفي فتح الباري شرح صحيح البخاري (الطبعة السلفية) جاء أن جملة أحاديث البخاري بالمكرر ٧٠٤٧ وذكر محب الدين الخطيب ان غير المكرر٢٦٠٢ والسبب في هذا الاختلاف هو عد المعلقات أو عدم عدها ثم عد الحديث المذكور باسنادين حديثاً واحداً أو حديثين وهكذا.

وفاة البخاري:

وعاد (البخاري) أواخر أيامه الى بلدته (بخارى) وتعصب ضده مجموعة من الحاقدين عليه وأثاروا الغوغاء عليه، فأخرجوه من بلدته، فسار الى (خرتنك) احدى قرى (سمرقند) وأقام بها قليلا، ثم توفاه الله، بعد أن قدم للاسلام والمسلمين خدمة عظيمة جليلة القدر، بكتبه، وعلمه، وتدريسه، في كافة المدن الاسلامية المشهورة - آنذاك - وأعظم كتبه وأبقاها أثراً(الجامع الصحيح).

وكانت وفاته عام ٢٥٦ هـ (٨٦٩ م) وقد ذكر ابن خلكان في (وفيات الأعيان) أن أكثر من سبعين الف من طلبة العلم درسوا (الجامع الصحيح) على يدي الإمام (محمد بن اسماعيل البخاري) أثناء حياته، رحمه الله رحمة الأبرار...

ومن علماء بخارى، الذين يذكرهم التاريخ مجموعة لم يصلوا الى مكانَة أبي عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري المتقدم ترجمته، ومع هذا فقد كان لهم دور كبير في نشر العلم، في (بخارى) وغيرها من بلاد ما وراء النهر، ومراكز الحضارة الاسلامية على اختلافها نتيجة لتلك الرحلات المستمرة التي لا تكاد تنقطع وتلك الجهود المباركة التي جعلت الأمة الاسلامية، من حدود الصين شرقاً، الى جبال (البرنيز) في شمال أسبانيا غرباً،بلاداً واحدة يتجه إليها المسلم يقيم في أي بلد شاء ويرتحل من أي بلد شاء، دون حواجز مصطنعة ولا جوازات سفر، ولا طلب اقامة وانما هي دار واحدة متصلة تسمى (دار الاسلام) يتلقى العلم وينشره في جميع تلك الديار، بدون فروق أو حواجز. بل على العكس تتهافت القلوب والاسماع، للإنتظام في حلقته والاستفادة من درسه وتمتد إليهم الايدي بالمحبة والمودة، وتفتح لهم ديارهم وأبوابهم، وتجلهم وتكرمهم، لأنهم ورثة الانبياء، وأحق الناس بالتكريم والتعظيم، أينما

حلوا وحيثما ذهبوا وانتقلوا. ومن علماء بخارى (**محمد السبذ موني قاضي القضاة**) في عصر اسماعيل الساماني، وقد ظهر بعد وفاة الإمام البخاري، وتوفي هذا القاضي الفقيه سنة ٣٠٤ هـ - (٩١٦ م).

ومن هؤلاء العلماء الافذاذ الذين أنجبتهم (بخارى) شمس الأئمة **عبد العزيز بن أحمد الحلواني البخاري**، المتوفي سنة ٤٢٧ هـ (١٠٣٦ م) الفقيه الحنفي، المعروف بامام أهل الرأي صاحب التصانيف في الفقه الحنفي وفروعه، نذكر منها كتابه (المبسوط) في الفقه، (النوادر) في الفروع، (والفتاوى) وهي مجموعة فتاويه، (وشرح كتاب أدب القاضي) الذي ألفه أبو يوسف، توفي في قرية بالقرب من (بخارى) ودفن في (بخارى).

ومن قرية (طوس) وهي طواويس احدى قرى بخارى (وهي غير مدينة طوس في خراسان التي ظهر منها الامام الغزالي وعمر الخيام) ظهر **أبو جعفر رضوان بن عمر الطوسي** (من علماء الحديث). ومنهم الفقيه **ظهير الدين محمد بن أحمد بن عمر البخاري** الذي تولى الحسبة في (بخارى) كما تولى التدريس، فترة طويلة، ومن كتبه الفتاوى الظهيرية، وتوفي في بخارى سنة ٦١٩ هـ (١٢٢٢ م).

وأهل بخارى بل وأغلب سكان بلاد ما وراء النهر أحناف، ولذا فإن من ظهر منهم في الفقه كان ذلك على وجه الخصوص في الفقه الحنفي.

ومن هؤلاء **طاهر بن أحمد بن عبد الرشيد البخاري**، الفقيه الحنفي، صاحب (خلاصة الفتاوى) و(الواقعات) و(النصاب) وجميعها في الفقه الحنفي (ولد سنة ٤٨٢ هـ - ١٠٩٠ وتوفي ٥٤٢ هـ - ١١٤٧ م). ومنهم إمام عصره في الفقه، وبخاصة في بلاد ما وراء النهر **محمد بن الفضل البخاري** ومنهم **علاء الدين عبد العزيز بن أحمد بن محمد البخاري** الفقيه الحنفي الأصولي الذي قام بشرح بعض كتب الأحناف المتقدمة

فشرح (المنتخب الحسامي) (وأصول البزدوي) وتوفي سنة ٧٣٠ هـ - (١٣٣٠ م) ومن هؤلاء **أبو حفـــص البخـــاري المولود سنـــة ١٥٠ هـ (٧٦٧ م)** أستاذ الإمام البخاري، وقد احدث حركة فكرية قوية في بخارى وما حولها. قال عنه النرشخي في تاريخ بخارى (ولم يكن أحد مثله في الولاية، وكان زاهداً وعالماً أيضاً وصارت بخارى بسببه قبة الاسلام، والسبب هو أن أهل بخارى تعلموا فنشأ فيها العلم وصاروا أئمة وعلماء محترمين وكان هو السبب). ومن أعلام قرى بخارى **عبد الله بن محمد الكلاباذي السبذموني** من سبذمون احدى قرى بخارى ولد سنة ٢٥٨ هـ - (٨٧٢ م) ورحل في طلب العلم الى خراسان والعراق والحجاز.. واشتهر بالحديث والفقه حتى صار من أئمة الحنفية وله عدة مصنفات منها (مسند ابي حنيفة) و(كشف الاثار) في مناقب الإمام ابي حنيفة واشتهر باسم الاستاذ وكانت وفاته سنة ٢٤٠ هـ - (٩٥٢ م) وممن اشتهر وظهر من أهل بخاري الشيخ الرئيس ابن سينا، الذي ولد في احدى قرى بخارى ونشأ وتعلم في بخارى ثم طاف البلاد، وطبقت شهرته الآفاق.

وعلى الرغم من أن الشيخ الرئيس من مواليد قرى (بخارى) وبها نشأ، الا أن أصوله فارسية وليست تركية، ولكن هذا لا يمنعنا ان نذكره فيمن نبغ من أهل (بخارى) فقد سكنها آباؤه، وبها ولد ونشأ وترعرع، وكانت بخارى عاصمة العلوم - آنذاك..

الشيخ الرئيس ابن سينا

أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا، أشهر أطباء المسلمين، على مدار التاريخ، وكان كتابه (القانون في الطب) هو المرجع الطبي الأول والوحيد للأطباء، في العالم أجمع، لمدة سبعة قرون منقضية، وهو مشهور، عند أهل أوروبا، باسم (أفيسينا) فقد ترجموا - منذ وقت

مبكر - كتبه الطبية والفلسفية. وكان (القانون في الطب) عمدتهم، وعليه كانوا يعولون، وقد طبع باللاتينية خمس عشرة مرة، ومرة واحدة بالعبرية، في القرن الخامس عشر الميلادي، وكان مقرراً في جامعة (لوفان) حتى القرن السابع عشر الميلادي..

ولد عام ٣٧٠ هـ (٩٨٠ م) في احدى قرى (بخارى) ونشأ وتعلم في بخارى وطاف البلاد، وناظر فيها العلماء، واتسعت من ثم شهرته، وتقلد الوزارة في (همذان) ثم حدث أن ثار عليه عسكرها ونهبوا بيته، ففر منهم الى (اصفهان) وبها تفرغ للعلم، وصنف أكثر كتبه وبها كانت وفاته. له أكثر من مائة مؤلف في الطب، والفلسفة والمنطق والطبيعيات، والالهيات، ومن كتبه المشهورة غير (القانون في الطب) (الشفاء) وهو يقع في أربعة أجزاء، و(السياسة) و(أسرار الحكمة المشرقية) و(الاشارات) و(الطير) و(اسرار الصلاة) و(لسان العرب) وله رسالة في علم (الهيئة) وهي علم الطبيعة - اليوم - ورسالة في (النبات والحيوان) وهو علم (البيولوجي) اليوم (وأسباب الرعد والبرق) وله شعر جيد، وأشهر شعره (العينية) التي مطلعها:

هبطت إليك من المحل الأرفع
ورقاء ذات تعزز وتمنع

ويقال ان (ابن سينا) كان باطنيا، من أهل دعوة الحاكم بأمر الله الفاطمي، واتهم بأنه كان شيعيا اسماعيليا.

قال (ابن القيم) عنه: (كان ابن سينا - كما أخبر عن نفسه - هو وأبوه من أهل دعوة الحاكم، من القرامطة الباطنيين).

وقال (ابن تيمية) عنه: (تكلم ابن سينا في أشياء من الالهيات والنبويات والمعاد والشرائع لم يتكلم بها سلفه، ولا وصلت إليها عقولهم،

ولا بلغتها علومهم، فانه استفادها من المسلمين وان كان انما يأخذ عن الملاحدة المنتسبين الى المسلمين، كالاسماعيلية، وكان أهل بيته من أهل دعوتهم من اتباع الحاكم العبيدي الذي كان هو وأهل بيته معروفين عند المسلمين بالالحاد).

وعلى الرغم من أن (ابن سينا) كان متهما في دينه، الا أنه كان مجمعا على رئاسته في الطب، وتتجلى لك عبقرية (ابن سينا) الطبية في كتابه (القانون) في الطب، الذي ظل المرجع الاساسي للعلوم الطبية، خلال سبعة قرون (أي منذ القرن العاشر الميلادي حتى القرن السابع عشر) وذلك في جميع عواصم العالم المعروفة آنذاك، وكان (القانون) يترجم الى اللغات الاوربية، وبخاصة منها الاسبانية: حيث كان الاحتكاك بين الحضارة الاسلامية في الاندلس، وبين سكان اسبانيا المسيحيين على أشده، ومن هناك انتقلت النهضة الأوربية الحديثة كما هو معلوم.

كما أن (القانون) ترجم الى اللغة اللاتينية، لغة العلم والنهضة، في ذلك الوقت، وعندما ظهرت الطباعة، في أوربا طبع خمس عشرة مرة باللاتينية، ومرة واحدة باللغة العبرية، خلال ثلاثين سنة فقط، وذلك منذ عام ١٤٧٠ الى عام ١٥٠٠ م، ثم أعيد طبعه عشرات المرات، بكافة اللغات الاوربية.

وسننقل لك شيئاً (يسيرا) من مقدمة (القانون) بقلم (ابن سينا) حتى تعرف عظمة هذا الرجل، في المجال الطبي، على وجه الخصوص، قال – بعد أن حمد الله، وأثنى عليه، وصلى على نبيه محمد – ﷺ:

«وبعد فقد التمس مني بعض خلص أخواني ومن يلزمني اسعافه بما يسمح به وسعى أن أصنف في الطب كتاباً مشتملا على قوانينه الكلية والجزئية اشتمالاً يجمع الى الشرح الاختصار والى إيفاء الاكثر حقه من

البيان الايجاز، فأسعفته بذلك، ورأيت أن أتكلم - أولا - في الأمور العامة الكلية، في كلا قسمي الطب، أعني القسم النظري، والقسم العملي، ثم - بعد ذلك - أتكلم في كليات أحكام قوى الأدوية المفردة، ثم في جزئياتها، ثم - بعد ذلك في الامراض الواقعة بعضو عضو.

«فأبتدي - أولا - بتشريح ذلك العضو ومنفعته، وأما تشريح الأعضاء المفردة البسيطة فيكون قد سبق مني ذكره في الكتاب الأول الكلي، وكذلك منافعها، ثم اذا فرغت من تشريح ذلك العضو - ابتدأت في أكثر المواضع بالدلالة على كيفية حفظ صحته، ثم دللت بالقول المطلق على كليات أمراضه وأسبابها، وطرق الاستدلالات عليها، وطرق معالجتها بالقول الكلي أيضاً فإذا فرغت من هذه الأمور الكلية أقبلت على الأمراض الجزئية، ودللت اولا في أكثرها - أيضاً - على الحكم الكلي في حده وأسبابه ودلائله، ثم تخلصت الى الأحكام الجزئية، ثم أعطيت القانون الكلي في المعالجة، ثم نزلت الى المعالجات الجزئية بدواء دواء بسيط أو مركب، وما كان سلف ذكره من الأدوية المفردة ومنفعته في الأمراض في كتاب الأدوية المفردة في الجداول، والأصباغ التي أرى استعمالها فيه، كما تقف - أيها المتعلم عليه اذ وصلت اليه لم أكرر الا قليلا منه...

«وأما الآن فإني أجمع هذا الكتاب وأقسمه الى كتب خمسة، على هذا المثال:

الكتاب الأول: في الأمور الكلية في علم الطب.

الكتاب الثاني: في الأدوية المفردة.

الكتاب الثالث: في الأمراض الجزئية الواقعة بأعضاء الانسان عضواً عضواً، من الفرق (قمة الرأس) الى القدم ظاهرها وباطنها.

الكتاب الرابع: في الأمراض الجزئية التي اذا وقعت لم تختص بعضو، وفي الزينة.

الكتاب الخامس: في تركيب الأدوية والأقراباذين».

وقال عن الكتاب الأخير «وهذا الكتاب لا يسع من يدعي هذه الصناعة (أي الطب) ويكتسب بها أن لا يكون جله معلوماً محفوظاً عنده، فإنه مشتمل على أقل ما لا بد منه للطبيب، وأما الزيادة عليه فأمر غير مضبوط، وأن أخر الله تعالى في الأجل، وساعد القدر - انتصبت لذلك انتصاباً ثانياً (وقصده أن يضع فيه كتاباً آخر متوسعاً في علم الأدوية والاقراباذين).

وهكذا قسم (ابن سينا) كتابه المرجع، مثلما تفعل كليات الطب - اليوم - فتجعل السنة الأولى والثانية لعلوم التشريح، وعلم وظائف الأعضاء، والسنة الثالثة لعلم الامراض (الباتوليجي) وعلم الأدوية (الفارماكولجي) وعلم الميكروبات والطفيليات، ثم تجعل السنة الرابعة والخامسة للامراض الجزئية، مثل أمراض النساء والولادة، وأمراض الأنف والأذن والحنجرة، وأمراض العيون، والأمراض الباطنية والجراحة الخ...

ولم يكتف (ابن سينا) بمعلومات المتقدمين من يونان، وفرس وعرب، وسريان، وهنود يرتبها ويبوبها كأحسن ما يكون الترتيب والتبويب، بل يضيف اليها من ملاحظاته وتجاربه ومشاهداته الكثير الكثير، وفي هذا قال: «**ثم تعهدت المرضى وانفتحت على أبواب من المعالجة اكتسبتها من التجربة**».

وهكذا كان (ابن سينا) يتعلم من مرضاه بمثل ما كان يتعلم من كتب (ابوقراط) و(جالينوس) وكانت له ملاحظات سريرية وتشريحية خاصة به، أضاف بها الى الطب إضافات كبيرة، مثل وصفه للتجويف البلوري

وصفاً دقيقاً، ووصفه لالتهاب الاغشية السحائية، ووصفه الدقيق لليرقان وأسبابه، واكتشافه علاج الأنيمياء الحادة بنخاع العظام، الذي يعتبر اليوم آخر أنواع العلاج الحديثة لمرض الأنيمياء - الحادة الخطيرة، وحديثه عن أنواع الأورام والسرطانات، وتفصيله البارع لأنواع شلل الوجه (اللقوة) واهتمامه الشديد بالأمراض النفسية والعصبية، وتحدثه - بتوسع - عن (المناخوليا). والعصاب، وتحدثه عن العشق، بوصفه ظاهرة نفسية، ومعالجتها، وايراده طرائف وعجائب في ذلك.

وفي طب العيون تحدث عن طبقات العين الثمانية حديث من شرحها، وعرف أجزاءها وطبقاتها، وانتقد (ابو قراط) و(جالينوس) حيث اهتما فقط بعدسة العين، بينما انصب اهتمام ابن سينا على الشبكية التي تنطبع عليها الصور المنعكسة، مثلما تنطبع الصورة في الكاميرا على الفيلم الحساس.

ولم يترك (ابن سينا) بابا من أبواب الطب الا تحدث فيه حديث خبير عالم واسع التجربة. ولقد تقدم الطب في العصور الحديثة تقدماً واسعاً، وأصبح الطب القديم متخلفاً عنه بمراحل ولكن يبقى مع ذلك لابن سينا فضل سبقه لعصره، واتيانه بكثير من العجائب والغرائب.

وللأسف فإن كتاب (القانون) في الطب لم يطبع بالعربية الا طبعة واحدة رديئة قديمة، بدون تحقيق، ولا تعليق عليها، وقد قامت دور النشر - اخيراً - بإعادة تصويرها (بالأوفست) وذلك لا يجدي فتيلا.

والواجب هو أن يعاد طبع الكتاب، بعد تحقيقه، وشرحه، والتعليق عليه، اذ أن الطبيب وطالب الطب - اليوم - قد بعد بهم العهد بلغة (ابن سينا) وتحتاج كثير من المسميات الى توضيحها للأطباء بلغة العصر، مع ذكر ما يقابلها من أسماء علمية حديثة، لأن أغلب الأطباء العرب يدرسون - اليوم - الطب بلغات أوروبية.

وقد ترجم (ابن سينا) لنفسه ترجمة وافية، ذكرها (ابن أبي أصيبعة) في كتابه القيم (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) ونوجز ذلك - هاهنا - ومن اراد المزيد فليرجع الى الكتاب المذكور.

قال عن نفسه انه من مواليد قرية من قرى (بخارى) وان أباه من (بلخ) في أفغانستان وان أمه من أهل (بخارى) وان الاسرة انتقلت الى بخارى وهو طفل صغير، وأنه حفظ القرآن الكريم كله، ولم يجاوز العاشرة، وحفظ كثيراً من الشعر والأدب، في تلك السن الغضة الطرية، وقال أن أباه كان ممن سمع داعي الباطنية من الاسماعيليين، الذين حكموا مصر باسم الفاطميين، ووافق دعوتهم، وكذلك كان أخوه الأكبر محمد...

وقال: (وكانوا ربما تذاكروا بينهم وأنا اسمع وأدرك ما يقولونه ولا تقبله نفسي).

ودرس (ابن سينا) الفقه دراسة واسعة في صغره، على يد (اسماعيل الزاهد)، وفي هذا القول ما يدل على أن ابن سينا لم يعتنق الدعوة الباطنية، وان اعتنقها أبوه وأخوه، أضف الى ذلك أن أباه كان قد وجهه - وهو في تلك السن - الى تعلم حساب الهند.

ثم قدم (بخارى) رجل يدعى المتفلسف، وهو (ابو عبد الله النائلي) فدرس عليه (ابن سينا) الفلسفة الاغريقية دراسة واسعة، حتى أحرج أستاذه بكثرة مسائله، ولم يكن الأستاذ المتفلسف واسع الفهم، بعيد الادراك، فقد ضاق بأسئلة تلميذه الذكي، وطلب منه أن يقرأ كتب الهندسة، والرياضيات، والفلك، والهيئة، التي كانت جزءاً من الفلسفة اليونانية وحده، ثم يعرضها عليه، فقرأها (ابن سينا) ولم يجد عند أستاذه ما يشفي غليله، وتوجه أستاذه الى كركانج عاصمة اقليم (خوارزم) وبقي (ابن سينا) في (بخارى) يدرس هذه الكتب العويصة،

دون أستاذ، حتى أجادها، ولم يستعصِ عليه شيء منها، سوى الالهيات، فقرأها كما يقول، أربعين مرة، حتى حفظها، دون أن يفهمها، فلما وجد كتاب (الفارابي) الفيلسوف المشهور (وهو من فاراب من مدن قازاقستان في تركستان) وجد فيه حلولاً لكثير مما أشكل عليه، وكان اذا تحير في مسألة، كما يقول عن نفسه (ترددت الى الجامع، وصليت، وابتهلت الى مبدع الكل، حتى فتح لي المستغلق، ويسر المتعسر).

ثم دعاه سلطان (بخارى) لمعالجته، فعالجه، بعد أن فشل الأطباء في مداواته، وكان (ابن سينا) اذ ذاك ابن ست عشرة سنة، وطلب الشاب العبقري من السلطان أن يكون جزاؤه على مداواته هو فتح (المكتبة السلطانية) المليئة بخزائن الكتب، وله أن يأخذ منها ما يريد لمطالعته، فطالع مختلف العلوم، واستوعبها وقد قال عن هذه المكتبة الضخمة التي تدل على مكانة العلم في بخارى في عهد السامانيين ما يلي: (فدخلت دارا ذات بيوت كثيرة في كل بيت صناديق كتب منضدة بعضها على البعض.. في بيت كتب العربية والشعر.. وفي آخر الفقه.. وكذلك في كل بيت كتب علم مفرد.. وطالعت فهرست كتب الأوائل.. وطلبت ما احتجت اليه ورأيت من الكتب ما لم يقع اسمه الى كثير من الناس قط. وما رأيته أيضاً من بعد.. فقرأت تلك الكتب وظفرت بفوائدها وعرفت مرتبة كل رجل في علمه)..

وقال عن نفسه: (فلما بلغت ثماني عشرة سنة من عمري، فرغت من هذه العلوم كلها، وكنت - اذذاك - للعلم أحفظ، ولكنه - اليوم - معي أنضج).

وفي هذه السن الغضة ألف كتابا جامعا لهذه العلوم، ألفه في عشرين مجلداً، وأسماه (الحاصل والمحصول) وانتهى منه، وسنه واحد وعشرون عاماً.. وكان ذلك الكتاب دائرة معارف كاملة ألفها هذا الشاب

العبقري في سن الثامنة عشرة وانتهى منها في سن الواحدة والعشرين.

وصنف في هذه السن - أيضاً - كتاباً في الأخلاق، أسماه (كتاب البر والاثم).

ثم انتقل (ابن سينا) الى (كركانج) عاصمة (خوارزم) ومنها تنقل في مدن (خراسان) وتولى الوزارة، فثار عليه الجنود، حتى نهبوا بيته، وطالبوا بقتله، فحماه السلطان وعزله من الوزارة، وتفرغ للتأليف وللطب، فألف مئات الكتب في مختلف فروع المعرفة، بحيث لم يترك باباً من أبواب العلوم الا ولجه، حتى حدث ذات مرة أن اجتمع بأبي منصور الجبائي اللغوي، وتكلم (ابن سينا) في مسألة من مسائل اللغة، فقال له الجبائي: انك حكيم فيلسوف، ولكنك لم تقرأ في اللغة، فامتعض (ابن سينا) وتفرغ ثلاث سنوات لدراسة اللغة، حتى ألف فيها ثلاثة كتب، وجعلها في جلد قديم، وأوعز الى الأمير أن يقدمها الى (الجبائي) على أنها كتب وجدت في الصحراء، أثناء صيد الأمير، وطلب منه أن يبدي رأيه فيها، فنظر فيها (أبو منصور) وأشكل عليه كثير مما فيها فكان (ابن سينا) يحل له هذه الاشكالات، فعلم (الجبائي) لفرط ذكائه أن (ابن سينا) هو الذي ألفها، فاعتذر له، واعترف له بمكانته العالية في اللغة، ثم ألف (ابن سينا) كتابه الضخم (لسان العرب) في عشرة مجلدات في علوم اللغة العربية.

وكان لابن سينا شعر كثير جيد، ومن أشهر قصائده (العينية) التي ذكرنا مطلعها:

هبطـت اليـك من المحـل الأرفـع
ورقـــاء ذات تعزز وتمنــــع
محجوبـة عن كـل مقلـة عـارف
وهي الـــتي سفرت ولم تتـــبرقـع

وصلت على كره اليك وربما
كرهت فراقك وهي ذات تفجع

تحدث فيها عن النفس، وأنها كانت في الأماكن العلوية (الشريفة) تجتلى من الذات الالهية العلية، ثم هبطت، وحبست، في ذلك البدن الثقيل، حتى نسيت عهودها، ومرابعها المنيفة الشريفة، وارتبطت بسجن ذلك البدن الثقيل الهابط، والفت مراتع الدمن والمستنقعات.

حتى اذا قرب المسير الى الحمى
ودنا الرحيل الى الفضاء الأوسع
سجعت وقد كشف الغطاء فأبصرت
ما ليس يدرك بالعيون الهجع

وقد تأثر (ابن سينا) كغيره من فلاسفة المسلمين بالفلسفة (اليونانية) وعلى الأخص منها فلسفة (افلاطون) و(أرسطو) و(أفلوطين) وهم مجموعة الفلاسفة الالهيين من اليونان الذين يؤمنون بآله واحد للكون كله، ولكنهم يجعلونه متفكرا في ذاته، متعقلا لها، لا يدبر هذا الكون، ولا يصرفه، بل ولا يعلم عنه شيئاً - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وكان (ابن سينا) في حياته من أولئك الفلاسفة المسلمين الذين كانوا يرون أن الشرائع انما هي للعامة، وأما الخاصة - ممن صفت نفوسهم - فلا يحتاجونها الا قليلا، وكان هو ممن يقول بأن الخمر تزري بالعامة، ولكنها ترقق مشاعر الخاصة، وتشحذ أذهانهم، وكان ممن يشربها، ويتغنى بها.

ولكننا نرى (ابن سينا) في وصيته يختلف عن (ابن سينا) الفيلسوف، فقد كتب الى صديقه أبي سعيد ابن أبي الخير الصوفي بهذه الوصية:

(وليكن الله تعالى أول فكر له وآخره، وباطن كل اعتبار وظاهره،

ولتكن عين نفسه مكحولة بالنظر اليه، وقدمها موقوفة على المثول بين يديه، مسافراً بعقله في الملكوت الأعلى وما فيه من آيات ربه الكبرى، واذا انحط الى قراره فلينزه الله تعالى في آثاره فانه باطن ظاهر تجلى لكل شيء بكل شيء.

ففي كل شيء له آية تدل على أنه واحد. فاذا صارت هذه الحال له ملكه - انطبع فيها نقش الملكوت، وتجلى له قدس اللاهوت، فألف بالانس الأعلى، وذاق اللذة القصوى، وأخذ عن نفسه من هو بها أولى، وفاضت عليه السكينة، وحقّت عليه الطمأنينة، وتطلع الى العالم الأدنى تطلع راحم لأهله.. وليعلم أن أفضل الحركات الصلاة، وأمثل السكنات الصيام، وأنفع البر الصدقة، وأزكى السر الاحتمال، وأبطل السهى المراءاة، ولن تخلص النفس عن الدرن ما التفتت الى قيل وقال، ومناقشة وجدال، وانفعلت بحال من الأحوال، وخير العمل ما صدر عن خالص نية، وخير النيّة ما ينفرج عن جناب علم، والحكمة أم الفضائل، ومعرفة الله أول الأوائل، اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه).

الى آخر الوصية العجيبة، التي تدل على التزامه بالدين، وحثه على أداء الشعائر وتمسكه بأعلى الفضائل، ودعوته الى تصفية النفس وتجليتها من الكدورات، والبعد بها عن مراتع القاذورات، والارتفاع بها عن حضيض الشهوات.

وكل ذلك دليل على أنه قد ترك ما كان يقول به ايام الفلسفة، وعاد الى سبيل الشرع، وإقامته في السر والعلن، للخاصة قبل العامة.

وفي ذلك دليل على أن (ابن سينا) في أواخر أيامه قد تخلى عن أفكاره الفلسفية، التي تأثرت بفلسفة الاغريق الالهيين، الذين يؤمنون بالله على أنه اله لا يدبر الكون، ولا يرعى مخلوقاته، بل هو مشغول

بالتفكر في ذاته.. وقد أخذ كثير من فلاسفة المسلمين فلسفة (افلوطين) القائلة بالفيض وهو أن الله لم يخلق مخلوقاته، وانما صدر عنه، نتيجة تفكره في ذاته العقل المحض، ثم تسلسلت المخلوقات، حتى وصلت الى الجمادات.. وكل طبقة من المخلوقات تنتج عن الطبقة التي تعلوها، دون ارادة موجبة لذلك..

وكان (ابن سينا) مثل سابقه (ابي بكر الرازي) يؤمن بأن الخاصة لا يصلحها الا الفلسفة أما العامة فلا يصلحها الا الدين.. هذا على الرغم من أنهما يؤمنان ايماناً كاملاً بالله سبحانه وتعالى، ولكن ايمانهما بالبعث والنشور هو على طريقة فلاسفة المسلمين، الذين يقولون بالبعث الروحي والخلود النفسي، وانه عذاب روحاني للنفس، أو نعيم لها، حسب عملها في الدنيا، وينكرون عذاب القبر والبعث الجسدي..

ويبدو أن (ابن سينا) في أواخر أيامه قد تخلى عن هذه الأفكار، وعاد الى التمسك بعقيدة الأمة من بعث ونشور جسدي وروحي، والى التمسك بشريعة الاسلام، والالتزام بالفروض والواجبات، وأداء الشعائر.

ونرى تأثر (ابن سينا) في اواخر حياته بالصوفية، واتصاله بهم، حتى ان وصيته التي ذكرنا طرفا منها لتلميذه وصديقه (أبي سعيد بن ابي الخير الصوفي) تدل على ذلك دلالة واضحة، فهو يأمره باستحضار الله، جل وعلا، في كل لحظة من لحظات حياته، والى التفكير في مخلوقاته، والتدبر في آياته ويأمره بتنزيه الله تعالى ولا يشغل سره الا بذكره، ولا فكره الا باجتلاء آياته، ولا يأنس الا به، ولا يجعل لذته الا فيه، ثم يأمره برحمة المخلوقات وبخاصة منهم المؤمنين، ويأمره بالصلاة والصيام والبر والصدقة، واحتمال الأذى، والصبر على المكاره، والبعد عن الرياء والسمعة والعجب، واخلاص النية، مما نراه في كتب الصوفية

والرقائق، مثل كتاب (احياء علوم الدين) للغزالي، وكتاب (تنبيه الغافلين) للسمرقندي، و(عوارف المعارف) للسهروردي، و(الرسالة القشيرية)، وكتب الشيخ عبدالقادر الجيلاني..

وخلاصة القول في هذا العبقري، الذي كان أشهر وأعظم أطباء القرون الوسطى وأوسعهم علماً وفلسفة، انه تحول في أواخر أيامه من الفلسفة الى الشرع الحنيف، والالتزام به بل الى نوع من الزهد والتصوف أيضاً..

وفي أواخر أيام حياته أصيب (ابن سينا) بالقولنج (التهاب الامعاء الغليظة) واشتد عليه المرض، لتنقله بين (همذان) و(أصبهان)، وهو مريض، وقد ضعفت صحته، وكان يعالج نفسه، فلما رأى أن العلة قد اشتدت به - ترك التداوي، وقال (ان المدبر الذي في بدني قد عجز عن تدبيره فما بي حاجة للمعالجة).

ويقال أنه اغتسل وتاب، وتصدق بماله على الفقراء، ورد المظالم الى أهلها، واعتق مماليكه، وعكف بقية حياته على قراءة القرآن الكريم، وكان يختمه مرة كل ثلاثة أيام واستمر على هذا الحال حتى توفي بهمذان، في شهر رمضان ٤٣٢ هـ (١٠٣٦ م) وذلك يؤكد ما ذهبنا اليه من أن (ابن سينا) كان في أول أيامه فيلسوفا الهيا (أي يؤمن بالله الواحد الأحد، على طريقة الفلاسفة الاغريق الالهيين، مثل سقراط، وأرسطو، وأفلاطون (وأفلوطين) وكان التزامه بالشرع أول الأمر ضعيفا، وله آراء جعلته يتهم بالمروق والالحاد، وهي الآراء التي راجت بين فلاسفة المسلمين، من انكارهم لعذاب القبر، ولبعث الأجساد..

ولكننا نرى (ابن سينا) يعود في أواخر أيامه الى القرآن الكريم، فيرتشف منه، والى الصلاة، فيجد فيها ملاذه، والى البر والصدقة، والى نوع من الزهد والتقشف والتصوف ويكون له العديد من الأصدقاء من

الورعين المتصوفين، حتى نراه في وصيته لصديقه وتلميذه (أبي سعيد الصوفي) وقد لبس مسوح الزهاد من الصوفية الاتقياء، وهو يدعوه الى ان يجعل الله امامه في سره وعلنه، والى التمسك بالصيام والصلاة، والى البر والصدقة، والى ترك الرياء والعجب والى نبذ المماراة والجدل، والى عدم الاهتمام بالحياة الدنيا الا من حيث كونها مزرعة للآخرة الى آخر ذلك الكلام العجيب الذي لا يتصور صدوره من شخص لا يؤمن ببعث الأجساد، وينكر الشرائع.

* * *

مما تقدم من ترجمة بعض أعلام (بخارى) مثل الامام البخاري، وأساتذته، وترجمة الشيخ الرئيس (ابن سينا) يتضح لك أن (بخارى) منذ فتحها المسلمون، لأول مرة، على يد عبيد الله بن زياد، في عهد (معاوية) ثم أعادوا افتتاحها على يد (قتيبة بن مسلم الباهلي) سنة ٨٦ هـ أصبحت عاصمة من عواصم الحضارة الاسلامية، تشع بنورها في الآفاق. بل لا نعدو الحقيقة ان قلنا ان (بخارى) أصبحت تضارع (نيسابور) و(بغداد) و(مرو) و(دمشق) و(القيروان) و(القاهرة) و(أشبيلية) و(غرناطة)، وفي بعض فترات التاريخ كانت (بخارى) تفوقها، حضارة وعلما وأدبا وتجارة وصناعة، وكانت تعرف باسم (بخارى الشريفة التقية) ذكر ذلك المستشرق المجري (فامبري) في كتابه (تاريخ بخارى).

وقد كانت (بخارى) احدى عواصم بلاد ما وراء النهر، منذ أن فتحت، واستمرت على ذلك أيام الأمويين والعباسيين، وفي أيام المأمون - استقل (طاهر بن حسين) قائد (المأمون) بحكم (خراسان) وما وراء النهر، وبقيت في أولاده، ثم ظهرت الدولة السامانية، وكانت عاصمتها (بخارى) فارتقت في عهدهم، وازدهرت ازدهارا كبيراً،

واستمرت على ذلك في أيام الغزنويين، الذين كانت عاصمتهم (غزنة) في افغانستان اليوم.

ثم جاء المغول كالأعصار المدمر، الذي لا يبقي على شيء، فحطم (بخارى) و(سمرقند) و(خوارزم) و(غزنة) واستمر الاعصار المدمر والطوفان المغولي، حتى أغرق (بغداد) عاصمة الخلافة الاسلامية آنذاك في بحور الدماء، على يد (هولاكو). ثم انحسر الطوفان في عين جالوت، وانهزم المغول على يد السلطان (قطز) وقائده (الظاهر بيبرس)، وعادت أمجاد الاسلام، وظهرت دولة السلاجقة، ثم ظهر (تيمورلنك) فجعل قاعدة ملكه (سمرقند) التي كانت تطاول (بخارى) المجد وتنافسها فيه على مر العصور، فازدهرت (سمرقند) وأصبحت عاصمة العالم المعروف - آنذاك - وتوارت (بخارى) قليلا، لتعود بعد انتهاء حكم (تيمورلنك) في عهد الشيبانيين والاشتراخانيين.

وفي القرن الثامن عشر تفككت تلك الدولة، واستقل كل أمير بمنطقة، ودعيت (خانية) فكانت هناك (خانية بخاري) وخانية خوقند و(خانية خوارزم) التي أصبحت تسمى (خيوه) وكانت أكبر هذه الخانيات (خانية بخارى) التي استمرت تقاوم الغزو الروسي القيصري، ولم تسقط مثلما سقطت بقية الخانيات، الا في عام ١٩٢٢ م، عندما هجم عليها الجيش الأحمر بثمانين الف جندي مسلحين بأحدث الأسلحة، فاحتلوها، بعد أن قتلوا أنور باشا قائد جيشها الصغير.

وقد ذكر المستشرق المجري (ارمينوس فامبري) صاحب كتاب (تاريخ بخارى) الذي ألفه عام ١٨٧٢ م أن (خانية بخارى) كانت على جانب لا بأس به من الحضارة، وان كان قد دب اليها الاضمحلال وكانت هذه الخانية كما ذكر تشمل:

١ - (بخارى) وضواحيها.

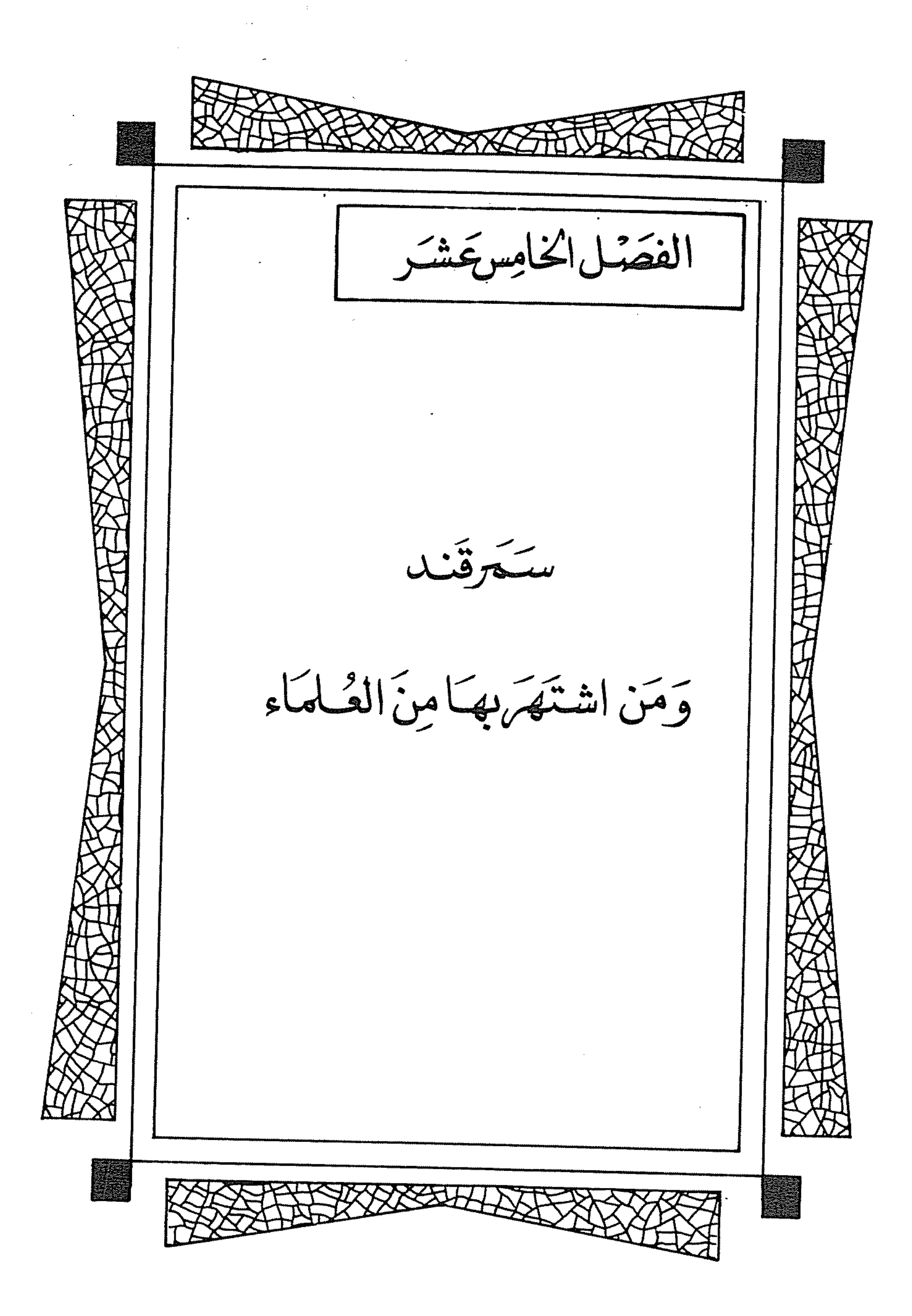
٢ - قضاء (بخارى) من بلدان (وردنزي) و(فقند) و(ورامتان).
٣ - (ميان كل) وقصبتها (كرمينية).
٤ - (كتة كورغان).
٥ - (حصار) مع (شيرآباد).
٦ - (سمرقند) وما حواليها من مدن وقرى.
٧ - (قارش) مع (فيض آباد).
٨ - (جهار جوي).
٩ - (قراقول) مع بيتك والجيك.

وكانت هذه المناطق سابقا تدعى بالصغد، ويمر فيها نهر يعرف بنهر الصغد، ويسمى الآن (زرفشان).

وظهر من المدن والقرى المحيطة ببخارى والتابعة لها كثير من العلماء والافذاذ، ومن ذلك مدينة (بيكند) ثاني مدن (بخارى) التجارية، والتي تبعد عن بخارى بأربعة وأربعين كيلو مترا. وتقع على طريق (أمل) ومرو والتي كانت ذات ثراء واسع.

وفي هذه المدينة ظهر المحدث المشهور (محمد بن سلام البيكندي) أستاذ الامام (البخاري) وصاحب المصنفات العديدة، في علوم الحديث (ولد سنة ١٦٠ هـ - وتوفي سنة ٢٢٥ هـ). ومنها ظهر المحدث (أبو الفضل أحمد بن علي بن عمرو بن علي السليماني البيكندي). الذي عد محدث عصره (توفي سنة ٤١٢ هـ - ١٠٢١ م) وله أكثر من أربعمائة مصنف،أغلبها في علوم الحديث..ومنها -أيضاً -ظهر (محمد بن أحمد البيكندي) أحد علماء الكلام، الذين عرفوا بالاعتزال، وتولى القضاء في حلب، ثم دخل بغداد، وتوفي بها ٤٨٢ هـ - (١٠٨٩ م) وله عدة مؤلفات، منها (الهدى والرشاد) (وتحقيق الرسالة بأوضح الدلالة) (والرسالة المسعودية) وغيرها...

وفيما يلي - ان شاء الله - سنتناول بالحديث مدينة (سمرقند) ومن ظهر بها من العلماء الافذاذ، وفحول الرجال...



الفصل الخامس عشر

سمرقند

ومن اشتهر بها من العلماء

مدينة (سمرقند) ذات التاريخ المجيد، والمجد الباذخ، وعاصمة ملك (تيمورلنك) الذي امتد فشمل معظم أرجاء العالم القديم - آنذاك - فتحتها جيوش المسلمين، لأول مرة سنة ٥٦ هـ - في عهد (معاوية بن أبي سفيان) تحت قيادة (سعيد بن الخليفة الراشد عثمان بن عفان).

وممن استشهد في تلك المعركة (قثم بن العباس) ابن عم النبي - ﷺ فأقام له أهل (سمرقند) بعد أن أسلموا مزاراً ومشهداً عظيماً، يقال له (مزار شاه زندة) أي مزار السلطان الحي، لأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون.

ثم اعاد فتحها (قتيبة بن مسلم الباهلي) عندما نكث أهلها العهد، الذي أعطوه لسعيد بن عثمان، وذلك سنة ٨٧ هـ. وصالح أهلها، على ان للمسلمين ما في بيوت النار (وهي معابد أهل ما وراء النهر، لأنهم مجوس، ويقول (فامبري) المستشرق المجري ان المجوسية نشأت أولا في بلاد ما وراء النهر، ثم زحفت الى فارس..

وأخذ (قتيبة) حلية الأصنام، وأمر بإحراق الأصنام، فقال سدنتها: ان فيها أصناما من أحرقها هلك، فقال (قتيبة) أنا أحرقها بيدي، فأحرقها، وأخذ ما عليها من حلى وذهب، فوزنه فوجده خمسين ألف مثقال، ووجد صنما عجيبا، له عينان من جوهر ثمين، يشع اشعاعا قويا، وكل جوهرة في حجم بيضة الحمام، فأخذها، وأرسلها الى الحجاج في العراق.

(وسمرقند) هي عاصمة اقليم الصغد على مرتفع تنصب إليها الجداول من نهر يسمى زرفشان (نهر الصغد ومن مساقط المياه في الجبال)..اختلف المؤرخون في من بناها أول مرة قيل انها من أبنية ذي

القرنين، وقيل بل بناها (الاسكندر المقدوني) وقيل بل ملك الصين، وهي - على أي حال - مدينة قديمة، ذكرها الإغريق باسم (مركندا).

وكان التنافس بين (بخارى) و(سمرقند) يشتد حينا ويفتر حينا، فتارة تكون (بخارى) هي عاصمة جميع بلاد ما وراء النهر، وتارة (سمرقند)، وكانت (بخارى) تقع على الطريق التجاري (طريق الحرير) من الصين الى الامبراطوريتين الفارسية والرومانية، ثم بعد ظهور الاسلام بين بلاد الصين، وبلاد المسلمين الواسعة غرب نهر جيحون (من خراسان الى فارس والعراق والشام حتى اسبانيا) فاشتهرت بخارى بموقعها التجاري، واشتهرت (سمرقند) بطيب هوائها وسحر جمالها. وكانت (سمرقند) عاصمة ما وراء النهر حتى جاء السامانيون، في العهد العباسي (٢٦١ هـ الى ٤٣١ م) فجعلوا عاصمتهم بخاري وفي عهدهم بلغت بخارى شأوا بعيدا في الحضارة. ثم سيطرت الدولة الغزنوية على يد (محمود بن سبكتكين) وأولاده، وكانت العاصمة آنذاك - غزنة (في أفغانستان) ثم عاد الأمر الى (خوارزم) عند قيام الدولة الخوارزمية وجاء جنكيز خان فخربها جميعا، ثم ظهر (تيمورلنك) وجعل عاصمته (سمرقند) وفي أيامه بلغت (سمرقند) عهدها الذهبي..

وبانتهاء عهد التيموريين عادت (بخارى) لتحتل الصدارة، ومع هذا ظلت (سمرقند) تنافسها على مدار التاريخ، وهي تفوقها جمالا وبهاء وروعة، وتجري تحت أسوارها الجداول، التي تصب من الجبال المجاورة صوب السهل المنبسط، تحت أسوار (سمرقند)، وقد وضع أهل (سمرقند) خزانا ضخما يتحكم في هذه المياه، مكونا بحيرة كبيرة، تحيط بها القرى مما جعل المسافر يسير فيها أياماً وليالي في جنات وارفة الظلال، ملتفة الاغصان. وقد وصفها كثير من الكتاب والرحالة المسلمين والغربيين، حتى في أيام أفولها، وذكروا محاسنها، وطيب هوائها، وحسن معشر أهلها، وكرمهم، وممن فعل ذلك الرحالة الاسلامي المشهور (ابن بطوطة)

والرحالة الايطالي ذائع الصيت (ماركو بولو) الذي كان أول أوروبي يزور الصين والشرق الاقصى، ووصف عجائب (سمرقند) ووصفها (ياقوت الحموي) في (معجم البلدان) بما يلي:

«واستدارة حائطها اثنا عشر فرسخا[1] وفيها بساتين ولها اثنا عشر بابا، الباب الى الباب فرسخ وعلى أعلى السور أزاج وأبرجه للحرب، وبين كل بابين منزل للنواب، فاذا جزت المزارع صرت الى الربض، وفيه أبنية وأسواق، وفي ربضها من المزارع عشرة الآف جريب. (الجريب ٤١٦سم و١٣٦٦ متر مربع كما في تحقيق الإيضاح لإبن الرفعة) ولهذه المدينة (أعني الداخلة) أربعة أبواب ومساحتها ألفان وخمسمائة جريب، وفيها المسجد الجامع والقهندز، وفيه مسكن السلطان، وفي هذه المدينة نهر يجري في رصاص وهو قد بني عليه مسناة عالية من حجر يجري عليه الماء الى أن يدخل المدينة من باب كش ووجه هذا النهر رصاص كله، وقد عمل في خندق المدينة مسناة، وأجري عليها، وهو نهر يجري في وسط السوق بموضع يعرف بباب الطاق، وكان أعمر موضع بسمرقند، وعلى حافات هذا النهر غلات موقوفة على من بات في هذا النهر يحرسه ويحفظه من المجوس».

«وفي المدينة مياه من هذا النهر عليها بساتين، وليس من سكة (شارع) ولا دار الا بها ماء جار الا القليل، وقلما تخلو دار من بستان، حتى انك اذا صعدت قهندزها (وفيه قصر السلطان على مكان مرتفع) لا ترى أبنية المدينة لاستتارها عنك بالبساتين والأشجار، فأما داخل سوق المدينة الكبيرة ففيه أودية وأنهار وعيون وجبال وعلى القهندز باب حديد من داخله باب آخر حديد».

ثم قال: «وقالوا ليس في الأرض مدينة أنزه ولا أطيب ولا أحسن مستشرفاً من سمرقند وقد شبهها حصين بن المنذر الرقاش، فقال: كأنها

---

(١) الفرسخ ثلاثة أميال.

السماء للخضرة، وقصورها الكواكب للإشراق، ونهرها المجره للإعتراض، وسورها الشمس للاطباق، ووصفها كثير من الشعراء، ووصفها أحمد بن واضح فقال:

ألیس أبراجها معلقة
بحيث لا تستبين للنظر
ودون أبراجها خنادقها
عميقة ما ترام من ثغر
كأنها وهي وسط حائطها
محفوفة بالظلال والشجر
بدر وأنهارها المجرة وال
آطام مثل الكواكب الزهر

وقال البستي:

للناس في أخراهم جنة
وجنة الدنيا سمرقند

وللأسف، فقد اضمحلت (سمرقند) (وبخارى) عندما دخلها الروس البلاشفة، عام ١٩٢٢ وجعلوا العاصمة (طشقند) بعد أن استعصت عليهم (سمرقند) سنة ١٩٣٠م وقد وصفها كثير ممن زارها بأنها مدينة حزينة قابعة تجتر همومها، منذ أن دخلها المستعمر الروسي البغيض، الذي حطم كثيراً من معاهدها ومساجدها. وقد وصفها بارتولد في كتابه الموسوعي التركستان فقال (بتصرف واختصار) «لقد ظلت سمرقند من حيث الرقعة وعدد السكان أولى مدن ما وراء النهر قاطبة حتى في تلك العهود التي كانت فيها بخارى عاصمة للبلاد كما حدث في عهد السامانيين.. وهذه المكانة التي نالتها سمرقند انما ترجع قبل كل شيء الى موقعها الجغرافي الفريد عند ملتقى الطرق التجارية الكبرى القادمة

من الهند مارة ببلخ ومن ايران مارة بمرو ومن أراضي الترك كما ان ما امتازت به المنطقة من خصب فوق المألوف جعل من الميسور لعدد هائل من السكان ان يجتمعوا في بقعة واحدة.. غير أن سمرقند لم تشتهر بذلك الإمتداد الذي عرف عنها في عهد السامانيين.

«ويقول النسفي أن سمرقند عند مجيء قتيبة بن مسلم الباهلي لافتتاحها كان قد مر على بنائها الفان ومائتان وخمسون عاما».

«وأقدم وصف لسمرقند الاسلامية لإبن الفقيه الهمداني يحدد طول سور سمرقند باثني عشر فرسخا وبه اثنا عشر بابا من الخشب كما كان خلف كل بابا باب آخر ذو مصراعين وبين البابين تقوم منازل البوابين. وعلى السور أربعمائة وخمسين برجا.. وفي كل برج ثلة من الجنود لحراسته».

«وكانت أرباض المدينة (أي ضواحيها) تشغل مساحة ستة الاف جريب (**الجريب**[1] **حوالي ١٣٦٦ متراً مربعاً**).. أما المدينة فقد كانت تشغل خمسة الاف جريب.. أما المدينة الداخلة المعروفة بالشهرستان فهي ٢٥٠٠ جريب.. وبها المسجد الجامع والقلعة (القهندز) ومقر الإمارة».

«وتختلف قلعة بخارى حيث انها خارج المدينة بينما قلعة سمرقند داخل المدينة». وكان الماء يدخل الى المدينة عبر خندق من باب كش عند رأس (الطاق) الذي كانت توجد به الاسواق الرئيسية. وقد حطم جنكيز خان سمرقند كما حطم غيرها من المدن الاسلامية.. ولكن سمرقند اعيد بناؤها بعد ذلك.. وتقع اطلال المدينة القديمة فيما يعرف بافراسياب الواقعة شمال المدينة الحالية.

---

(١) أورد ذلك محقق كتاب الايضاح والتبيان في معرفة المكيال والميزان.

« وكانت البساتين تشغل شطراً كبيراً من مدينة سمرقند وكان كل منزل يضم بستانا.. وكان الناظر الى المدينة من القلعة لا يستطيع رؤية مبانيها لاستتارها بالأشجار ».

« ويذكر المؤرخ الصيني (تشان شن) ان سكان المدينة كانوا حوالي مائة الف أسرة وذلك قبل استيلاء جنكيز خان عليها. وكان سكانها في عهد السامانيين قد جاوز النصف مليون كما يقول بارتولد وكانت شوارع المدينة مرصوفة بالحجارة.. أما مبانيها فهي مشيدة من الطين والخشب وكان أكثر أسواق المدينة بالربض (في الضاحية) قرب باب كش.. وكان يوجد بالمدينة والربض أكثر من ألفي موضع يمكن ان يستقي الناس منها الماء المثلج بالمجان مما يصرف عليه من الوقف.. وكان الماء يحفظ بطرق مختلفة من بين سقاية مبنية وحباب نحاس منصوبة وتلال خزف مثبتة في الحيطان مبنية ».

ويصف ابن حوقل تماثيل للحيوانات منصوبة في الميادين العامة ويقول « فجعل منها طرائف الحيوان من الافيلة والابل والوحوش المقبل بعضها على بعض كالمتناجية والمطالب بعضها لبعض كالمتقابلة المتعاتبة ».

ومن بين المشاهد والمزارات احتل مكان الصدارة على الدوام قبر قثم ابن العباس ابن عم رسول الله ﷺ الذي جاء الى سمرقند عام ٥٥ هـ (٦٧٥ م) مع سعيد بن عثمان بن عفان والذي استشهد اثناء فتحها.. وهو المزار المعروف باسم مزار شاه زندة (الأمير أو السلطان الحي).

ومنذ ذلك الحين كان ذوو المكانة في المجتمع من الحكام والعلماء والأولياء يقبرون بجوار ذلك القبر الشريف. وقامت حوله مدرسة لتدريس العلوم الدينية. وقد وصفه ابن بطوطة قال: « وبخارج سمرقند قبر قثم بن العباس بن عبد المطلب، رضي الله عن العباس وعن ابنه وهو

المستشهد حين فتحها. ويخرج أهل سمرقند كل ليلة اثنين وجمعة الى زيارته.. والتتر يأتون لزيارته وينذرون له النذور العظيمة ويأتون اليه بالبقر والغنم والدراهم والدنانير فيصرف ذلك في النفقة على الوارد وعلى الصادر ولخدام الزاوية.

وعليه قبة قائمة على أربع أرجل ومع كل رجل ساريتان من الرخام منها الخضر والسود والبيض والحمر.. وحيطان القبة بالرخام المجزع المنقوش بالذهب وسقفها مصنوع بالرصاص.. وعلى القبر خشب الابنوس المرصع مكسو الأركان بالفضة وفوقه ثلاثة من قناديل الفضة وفرش القبة بالصوف والقطن.. وخارجها نهر كبير يشق الزاوية التي هنالك وعلى حافيته الاشجار ودوالي العنب والياسمين وبالزاوية مساكن يسكنها الوارد والصادر »..

وكان يتبع ولاية سمرقند اثنا عشر رستاقا ستة منها جنوبي نهر زرفشان (أي نهر الصغد) وستة شمال النهر.. وكلها مناطق زراعية خصبة. وكان طول الرستاق الواحد مرحلتين وتمتد مساحة قراه نحو فرسخين. وكانت لمعظم الرساتق قنوات من النهر لسقايتها بانتظام واشتهرت هذه الرساتيق بمختلف اشجار الفاكهة وبانتاج اللوز والجوز.. وكانت بعض هذه الرساتيق مركزا لتجمع بعض القبائل العربية فقد نزل أبو مزاحم سباع بن النضر من قبيلة بكر بن وائل في مدينة وذار وبنى بها مسجداً جامعاً في القرن الثالث الهجري.. وتكاثر اولاده بها حتى أصبحت معروفة بهم. وفي وذار كانت صناعة الانسجة القطنية التي اشتهرت حتى طلبت بالعراق.. وقد اثنى عليها ابن حوقل كثيرا. أما الطريق التي تصل بين سمرقند وبخارى والتي تعرف باسم (الطريق الملكي) فقد كانت على الدوام ذات أهمية كبرى وتبلغ ٣٧ فرسخا.. وتقع على هذا الطريق مجموعة من القرى والمدن مثل (دبوسية وكرمينية

وطواويس) وقد آخذت طواويس اسمها العربي سنة ٩١ هـ (٧١٠ م) عندما أبصر العرب الطواويس المنتشرة في هذه القرية. أما الإسم القديم فهو ارفود الذي كان به معبد للنار فأبدله المسلمون بمسجد جامع. وقد ذكر بارتولد اسماء عشرات القرى والمدن الصغيرة التابعة لسمرقند ومنها قرية **خرتنك** التي بها قبر الامام محمد بن اسماعيل البخاري صاحب الجامع الصحيح.

وقد نبغ من (سمرقند) على مدار التاريخ الاسلامي كثير من العلماء والادباء.. منهم (**محمد بن عدي بن الفضل (أبو صالح)** السمرقندي نزيل مصر المحدث المشهور، سمع من محدثي عصره في دمشق ومصر وغيرها، وسمع منه جم غفير من العلماء، ومات عام ٤٤٤ هـ (١٠٥٢ م) ومنهم (**أبو بكر أحمد بن عمر بن الأشعث السمرقندي**) سكن دمشق مدة، وكان يكتب بها المصاحف من حفظه، واشتهر بقراءته للقرآن وتعليمه اياه، وسمع من محدثي دمشق، وسمع منه جماعة، وتوفي سنة ٤٨٩ هـ (١٠٩٥ م). ومنهم (**أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد السمرقندي**) إمام الهدى العلامة، من أئمة الحنفية، ومن الزهاد المتصوفين له تصانيف نفيسة، مثل (تفسير القرآن الكريم) و(عمدة العقائد) و(بستان العارفين) وهو في التصوف و(تنبيه الغافلين) في المواعظ والرقايق، و(خزائن الفقه في الفقه) و(شرح الجامع الصغير) في الفقه أيضاً (وعيون المسائل) وهو مجموعة فتاوى فقهية (والنوازل من الفتاوى) و(دقائق الاخبار في بيان أهل الجنة والنار) و(مختلف الرواية في الخلافيات بين الأئمة ابي حنيفة ومالك والشافعي) (والرسالة في أصول الدين) وكانت وفاته سنة ٣٧٣ هـ (٩٨٣ م).

ومنهم (**شمس الدين السمرقندي**) فيلسوف وأديب، ألف رسالة في آداب البحث المعروفة بآداب السمرقندي، وهي توضح كيفية البحث

والمناظرة (وقسطاس الميزان) في المنطق، توفي سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م). ومنهم (أبو القاسم السمرقندي) توفي سنة (٥٥٦ هـ - ١١٦١ م) وهو (محمد بن يوسف بن محمد العلوي الحسني السمرقندي) فقيه حنفي، وعالم بالتفسير والحديث والوعظ، من أهل سمرقند، حج سنة ٥٤٢ وأقام في عودته ببغداد، ومات بسمرقند. له تصانيف كثيرة منها (الفقه النافع) و(جامع الفتاوى) و(الملتقط) في الفتاوى الحنفية (وبلوغ الارب من تحقيق استعارات العرب) و(رياضة الاخلاق). و(مصابيح السبل) في فروع الحنفية.. ومنهم (نجيب الدين السمرقندي) توفي سنة ٦١٩ هـ (١٢٢٢ م) وهو (محمد بن علي بن عمر السمرقندي) عالم بالطب، استشهد في هراة (في أفغانستان اليوم) لما دخلها التتار، من كتبه (النجيبيات) في الطب (والأسباب والعلامات) في الطب - أيضاً - و(أصول تركيب الادوية) و(قوانين تركيب الأدوية القلبية) و(رسالة في مداواة وجع المفاصل) و(مقالة في كيفية تركيب طبقات العين) و(أغذية المرضى) و(الأغذية والأشربة للاصحاء) و(الصناعة) المقصود الطبية، و(غاية الاغراض في معالجة الامراض). ومنهم (محمد بن أحمد السمرقندي) توفي ٥٧٥ هـ - (١١٨٠ م) من أهل (سمرقند) فقيه حنفي، من كتبه (تحفة الفقهاء) في الفروع. ومنهم (علاء الدين السمرقندي) توفي سنة (١١٤٥ م) فقيه مشهور، له كثير من الفتاوى وله كتاب (تحفة الفقهاء اشتهرت معه ابنته (فاطمة) وكانت فتاواه تخرج وعليها خط (فاطمة) وخط أبيها. ومنهم (العلاء الاسمندي السمرقندي) مولده سنة ٤٨٨ هـ - (١٠٩٥ م) وفاته (٥٥٢ هـ - ١١٥٧ م) وهو (محمد بن عبد الحميد بن الحسين الأسمندي السمرقندي) و(أسمند) احدى قرى (سمرقند) وهو فقيه حنفي مناظر، من فرسان الكلام رحل الى بغداد، وناظر علماءها واشتهر هناك، وله عدة كتب، منها (مختلف الرواية) في الفقه، و(التعليقة) في الفقه ايضا - (وبذل النظر) في أصول الفقه،

(والهداية) في أصول الاعتقاد، وله تفسير للقرآن الكريم ومنهم **(أبو محمد الحسن بن أحمد السمرقندي)** امام زمانه في الحديث، ولد في (سمرقند) سنة ٤٠٩ هـ (١٠١٨ م)، واستوطن (نيسابور)، وله (بحر الاسانيد في صحاح المسانيد) جمع فيه مائة الف حديث قال عنه (الذهبي):(لم يقع في الاسلام مثله) وتوفي سنة ٤٩١ هـ (١٠٩٨ م) ومنهم **(ابو منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي)** وهو من أئمة علم الكلام والعقائد وهو عند الاحناف بمنزلة **(أبي الحسن الأشعري)** عند الشافعية، فقيه حنفي متكلم، رد على القرامطة والمعتزلة وألف في ذلك كتباً كثيرة منها (أوهام المعتزلة) (الرد على القرامطة) وكتاب (التوحيد) و(مأخذ الشرائع) في أصول الفقه، وكتاب (الجدل) وكتاب (تأويلات القرآن) وشرح كتاب (الفقه الاكبر) المنسوب للإمام (أبي حنيفة) نسب الى (ماتريد) وهي محلة (حي) بسمرقند، التي ولد بها، وتوفي سنة ٣٣٣ هـ (٩٤٤ م) ومنهم **(عبد الرحمن بن محمد الادريسي الاستراباذي السمرقندي)** مولده ووفاته بسمرقند محدث (سمرقند) في عصره ومؤرخ مشهور، له تصانيف كثيرة، منها (تاريخ سمرقند) و(تاريخ استر آباذ) وهي موطن أبيه، وهي أيضاً من بلاد ما وراء النهر، توفي سنة ٤٠٥ هـ - (١٠١٥ م) **(ومنهم أبو الحسن علي بن الحسين الصغدي (السغدي)** أصله من اقليم(الصغد) قصبته سمرقند فقيه حنفي (انتهت اليه رئاسة الحنفية، سكن (بخارى) وولي بها القضاء ومات في (بخارى) سنة ٤٦١ هـ - (١٠٦٨ م)، وله (شرح الجامع الكبير) و(النتف) في الفتاوى.

وقد اشتهر من الاطباء، الذين ينسبون الى (سمرقند) **(بدر الدين محمد بن بهرام بن محمد القلانسي السمرقندي) الذي قال عنه (ابن أبي** أصيبعة) في كتاب (عيون الأنباء في طبقات الاطباء) مجيد في صناعة الطب، وله عناية بالنظر في معالجات الأمراض ومداواتها، وله من الكتب: كتاب الاقراباذين، وهو تسعة وأربعون بابا استوعب فيه ذكر

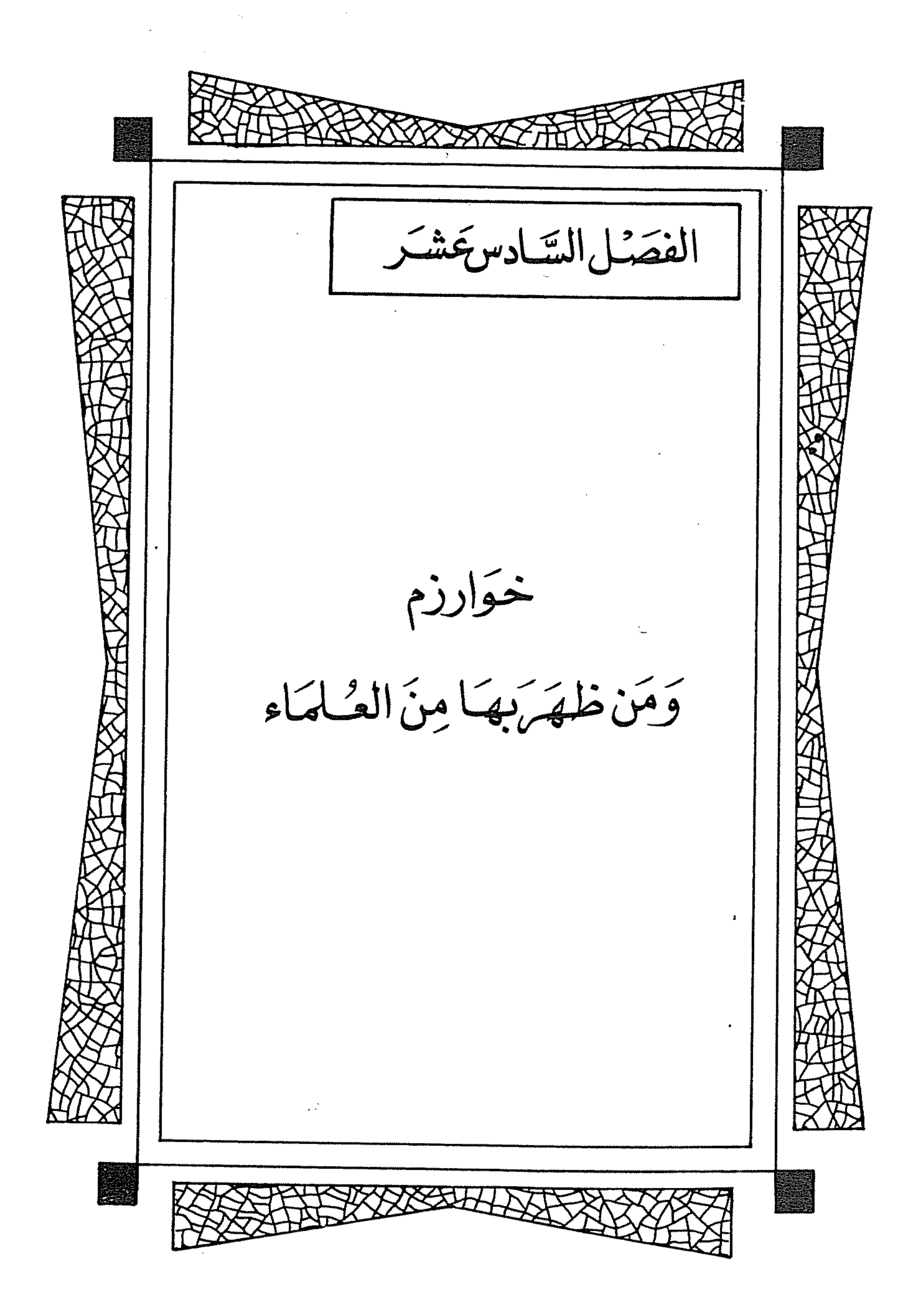
ما يحتاج إليه من الأدوية المركبة..

ومنهم **(نجيب الدين محمد بن علي بن عمر السمرقندي)** المتقدم ترجمته، والذي قال عنه (ابن ابي أصيبعة) طبيب فاضل بارع، وله كتب جليلة، وتصانيف مشهورة. وليس المقصود ممن ذكرنا الحصر فإن ذلك لا يتأتى لنا، وانما المقصود هو التنويه بسمرقند وأشهر من أنجبتهم من العلماء والأطباء على مدار التاريخ، وكيف أصبحت - اليوم - مدينة منزوية تدنسها أقدام الملاحدة من الشيوعيين، والروس المستعمرين.

ومن أهل سمرقند **الإمام عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام التميمي بالولاء الدارمي السمرقندي** (الدارمي نسبة الى دارم بن مالك بطن كبير من تميم). أحد اعلام الحديث وحفاظه صاحب سنن الدارمي المشهورة. انتقل في البلدان لطلب علم الحديث فسمع من مشايخ هذا العلم في خراسان والعراق والحجاز والشام ومصر ثم عاد الى سمرقند وولي القضاء بعد أن حاول أن يمتنع من ذلك.. واستقال بعد أول قضية تعرض عليه.. ونحن نعلم كيف كان علماء هذه الأمة الأخيار ينفرون من ولاية القضاء فقد سجن الإمام ابو حنيفة وضرب ليتولى القضاء للمنصور العباسي. ورفض ذلك رفضا باتا.. كما رفض ذلك الكثير من علماء هذه الأمة.. ذلك لأن الخلفاء كانوا يتدخلون احيانا في شئون القضاء.. وكان بعض هؤلاء العلماء يرى الخلفاء وهم لا يعدلون في أموال المسلمين فيجعلون الفيء مغنما ويحتجزونه لأنفسهم ولولاتهم وأنصارهم من دون الأمة فيرون أن تولي القضاء لهم موافقة لهم على ظلمهم.. فلذا ينفرون من الحكام والخلفاء ويبتعدون عن أبواب السلاطين رغم ما كان عليه كثير من هؤلاء الحكام من صلاح ظاهر..

وكان الإمام الدارمي أحد هؤلاء العلماء الذين يفرون من تولي

القضاء ويتفرغون لنشر العلم وتدريسه. فكان أحد أعلام علم الحديث في عصره (ولد سنة ١٨١ هـ وتوفي سنة ٢٥٥ هـ بمرو أي ٧٩٧ م وتوفي ٨٦٩ م) له (المسند) في الحديث (والجامع الصحيح) المشهور باسم سنن الدارمي وكتاب (التفسير) في تفسير القرآن الكريم.



الفصل السادس عشر

خوارزم

ومن ظهر بها من العلماء

تعريف خوارزم وجغرافيتها

يطلق اسم (خوارزم) - أساساً - على المنطقة الواقعة على نهر (جيحون) (أموداريا) الأسفل، وتجاورها - شرقاً - بلاد الصغد (وقصبتها سمرقند)وجنوباً صحراء الغز،(والغزقوم من الترك بدو جفاة) ثم (خراسان) التي تقع جنوب صحراء الغز، وفي الجنوب الشرقي تقع (جرجان) و(جرجان تفصل بين طبرستان وخراسان)، وفي شمالها الشرقي تقع (بحيرة الأرال) وتدعى - أيضاً - (بحيرة خوارزم).

وقد كانت عاصمة (خوارزم) تدعى (الجرجانية) وهي تحريف عربي لاسمها التركي (كركانج) وتدعى أيضاً أوركانج كما يطلق على أهلها - أيضاً - اسم (كركانج)، ويطلق عليها - أيضاً - اسم (خوارزم) ومما تقدم نرى أن اسم (خوارزم) يطلق على ثلاثة أشياء:

١ - اقليم من التركستان يقع في شمالها الغربي، ويعد أقصى مواطن الترك في آسيا الوسطى نحو الغرب.

٢ - العاصمة (كركانج) التي تقع على الفرع الأيسر لنهر جيحون.

٣ - بحيرة (الأرال) التي يصب فيها النهران العظيمان (سيحون) و(جيحون) ومساحة هذه البحيرة ٦٧,٠٠٠ كم مربعاً وبها عدة جزر وصفها بدقة ابن حوقل والمقدسي وكان ابن رسته اول من وصفها دون ان يذكر اسمها وقال أن محيطها ٨٠ فرسخاً وياقوت والمسعودي والاصطخري وسماها بحر الحدود وكانت كما ذكر المسعودي تتصل ببحر الخزر (قزوين) ولكنها في

العهود الاخيرة نتيجة التغييرات الجيولجية لم تعد تتصل ببحر الخزر وسماهـــــا الروس بحر الأرال أي البحر الأزرق لأن ميـاههـا زرقـاء داكنـة وأنشأ الروس بهـا قلعـة سنـة ١٨٤٧ م وجعلوا فيها اسطولاً صغيرا عام ١٨٥٣ م جعلوا قاعدته في ارالسك على المجرى الأسفل لنهر جيحون وأصبح بحر الأرال روسيا بعد احتلال خيوه (خوارزم) سنة ١٨٧٣ م وأوصلت بخط حديدي سنة ١٩٠٦م الى اورنبرغ وطشقند. ويتبع الآن بحر الأرال الجنوبي جمهورية اوزبكستان اما الجزء الشمالي فيتبع جمهورية قازاقستان ويشتهر بحر الأرال بكثرة أسماكه ويستخرج منه ثروة سمكية هائلة.

وقد كان يسكن (خوارزم) اقوام من الترك يدعون (التركمان) وهم أقوام أشداء مقاتلون من الطراز الأول، ومنهم ظهر الأتراك السلاجقة، والأتراك العثمانيون، كما كان يسكنها (الاوزبك) وهم - أيضا - قوم من الترك، غلبوا عليها، وعلى ما حولها، حتى ان (خوارزم) والصغد (وقصبتها سمرقند) و(بخارى) وما حولها أصبحت - جميعاً - تعرف، اليوم، بأوزبكستان وكان فيها - أيضاً - قوم ينتمون الى أصول ايرانية، يدعون (السارت).

وفي النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي توقف نهر (جيحون) عن امداد فرعه الأيسر، الذي يروي (أوركانج) (العاصمة) وبدأ يصب مياهه كلها في (بحيرة أرال) وظهرت في دلتا (جيحون) عاصمة جديدة، هي خيوه وأصبحت (خوارزم) كلها تعرف بخانية (خيوه).

وحتى عام ١٨٤٠ م كانت (خانية خيوه) تشمل منطقة واسعة، تمتد من (مرغاب) الى ضفاف المجرى الأدنى لنهر (سيحون) (سرداريا)، ولكن

حدود هذه الخانية بدأت في التقلص، بسبب الحروب الأهلية بين (التركمان) و(القازاق) وتقلصت بصورة كبيرة، عندما سقطت خيوه العاصمة بيد القياصرة الروس عام ١٨٧٣م، ومع هذا استمرت (خانية خيوه) بدون خيوه واستعادت اسمها القديم (خوارزم) ثم انتهت تماماً بالاحتلال الروسي الشيوعي عام ١٩٢٤م، بعد أن أتمت قوات الجيش الأحمر اخضاع (بخارى) عام ١٩٢٢م.

وتلاشت - عندئذ - (خوارزم) والحق جزء كبير منها بجمهورية (أوزبكستان) الاشتراكية السوفيتية وألحق الباقي بجمهورية (تكرمنستان)، ولا تزال ترزح، مثل غيرها من مناطق التركستان، تحت الاستعمار الروسي الشيوعي - الى الآن. وقد وصف خوارزم ياقوت الحموي في كتابه القيم (معجم البلدان) عندما زارها سنة ٦١٦هـ فقال انه لم يجد ولاية أكثر عمراناً منها على الرغم من رداءة طقسها، في الشتاء القارس وذكر أن أكثر أشجارها التوت، الذي يربي عليه أهلها دود القز، الذي يجمعون من شرانقه الحرير (الأبريسم) الذي كان ينافس الى حد ما حرير الصين. ووصف ياقوت عاصمتها كركانج التي تقع على نهر جيحون قائلاً: (ما اظن انه كان في الدنيا لمدينة خوارزم نظير في كثرة الخير، وكبر المدينة، وملازمة أسباب الشرائع) لأن أهلها كانوا من أشد الناس تمسكا بالدين، وآدابه، وشرائعه، وقد دمرها (جنكيزخان) تدميراً كاملاً، بعد عامين من زيارة (ياقوت) لها، وذلك عام ٦١٨هـ (١٢٢٢م) وقال عن أهلها انهم فقهاء أذكياء علماء «والمعيشة عندهم موجودة وأسباب الرزق غير مفقودة».

وقد وصف (ياقوت) شتاءها وشدته، وكيف يجمد بها نهر جيحون، الى عمق ثلاثة أشبار (حتى تسير عليه القوافل والعجل الموقرة ذاهبة وآتية عليه) وقال انهم اذا أرادوا الماء حفروا في الثلج لعمق ثلاثة

أشبار، وربما خمسة، حتى يحصلوا على الماء تحت الثلج. وقال ان جيحون يبلغ عرضة عند (الجرجانية) ميلا واحدا، ووصفه، وهو كله ثلج جامد تسير عليه العجلات، وبأن من أراد أن يشرب الماء يتجمد الماء قبل ان يصل فاه، واذا أراد الكتابة وجد المداد قد تجمد، فيضطر الى تسخينه، وهكذا مضت الأشهر الثلاثة، التي قضاها فيها، اثناء الشتاء القارس، التي دون فيها كثيرا من الملاحظات القيمة. و(الجرجانية) غير مدينة (جرجان) الواقعة بين (طبرستان) و(خراسان) غرب نهر (جيحون) وقد علّق ياقوت على رسالة ابن فضلان الذي بعثه الخليفة المقتدر بالله الى البلغار فمر على خوارزم ووصفها وصفا فيه شيء من المبالغة مثل أن الماء يجمد الى تسعة عشر شبرا فأنكر ذلك ياقوت عليه.

مدن خوارزم

وكانت **كركانج أو الجرجانية أو اركنج** تقع على مسافة فرسخ من المجرى الرئيسي لنهر جيحون (أموداريا) بالقرب من مصبه في بحيرة خوارزم (بحر الأرال). وكانت كركانج أهم مدن بلاد ما وراء النهر في عهد الدولة الخوارزمية القوية التي ظهرت في القرن الخامس الهجري. وانتهت بهجوم جنكيزخان عليها عام ٦١٨ هـ التي قضى عليها قضاء مبرماً.

وكانت كركانج قصبة خوارزم ومدينتها العظمى كما قال ياقوت.. وكركانج في الواقع مدينتان متصلتان صغرى وكبرى وقد اعتبرها ياقوت أعظم وأثرى مدينة رآها في حياته عندما زارها قبيل الغزو المغولي وذلك سنة ٦١٦ هـ. (نهاية سنة ١٢١٩ وبداية سنة ١٢٢٠ م).. اذ كانت الدولة الخوارزمية في ذلك العهد أقوى دولة في العالم الاسلامي وترد اليها خزائن البلاد المفتوحة.

وقد كان لكركانج أربعة أبواب وكانت مياه القنوات التي تصلها

بجيحون تصل الى ابواب المدينة دون أن تدخلها.. وفيها قصر للمأمون محمد أمير كركانج كان في غاية الجمال والصنعة.. وقد تلقب المأمون هذا بلقب خوارزمشاه بعد أن أخضع مناطق خوارزم لحكمه وذلك سنة ٤٥٨ هـ (٩٩٥ م).

وكانت كركانج في عهد السامانيين أقل شأنا من مدينة كاث ولكنها لم تلبث أن فاقتها بعد أن أصبحت عاصمة الدولة الخوارزمية.. وبذلك أصبحت أهم وأعظم وأثرى بلاد ما وراء النهر وان لم تكن انزه ولا أنظف بلاد ما وراء النهر بل على العكس من ذلك انتقدها كل من زارها من المؤرخين المسلمين لقذارتها وعدم نظافتها.

وقد اشتهرت من مدن خوارزم مدينة **(كاث)** الواقعة على الضفة الشرقية للفرع الرئيسي لنهر جيحون على بعد مراحل من خيوه. وقد كانت (كاث) هي الوحيدة من مدن خوارزم الواقعة شرقي النهر لأن جميع مدن خوارزم الأخرى تقع غربي النهر..

ولفظ كاث بلغة خوارزم كما يقول ياقوت (هو الحائط في الصحراء من غير أن يحيط به شيء..) وبين كاث ومدينة كركانج عشرون فرسخا.. وقد كانت كاث هي عاصمة اقليم خوارزم قبل قيام الدولة الخوارزمية وكانت في عهد السامانيين أعظم شأناً من كركانج.

وعند الفتح الاسلامي كانت كاث تتكون من ثلاثة أقسام كان أحصنها موضع القلعة المعروفة باسم فبر التي وصفها البيروني بقوله (فبر قلعة على طرف مدينة خوارزم (كاث) مبنية من طين ولبن.. ثلاثة حصون بعضها في بعض متوالية في العلو وفوق جميعها قصور الملوك). ويمكن رؤية القلعة من بعد عشرة اميال وأكثر.. وفي القلعة وما حولها قصر لخوارزمشاه والمسجد الجامع والحبس.. وكان يشق المدينة قناة تقوم السوق على جانبيها وكان طول المدينة ثلث فرسخ وعرضها مثله.

ووصفها المقدسي بقوله: «كاث يسمونها شهرستان وهي على الشط (أي شط جيحون) نحو نيسابور (في اتساعها) وهي شرقي النهر.. لها جامع في وسط الأسواق على أساطين حجارة سود الى قامة ثم فوقها سواري الخشب.. ودار الامارة في وسط البلدة ولهم قهندز (أي قلعة) قد خربه النهر.. ولهم أنهار في البلد.. وهو نفيس ذو علماء وأدباء ومياسير وخيرات وتجارات.. وبناؤون حذاق وقراء ليس مثلهم بالعراق وحسن نغم وجودة قراءة ومنظر وخبر الا انها في كل حين يغلب عليها النهر ويتأخرون عن الشط).

وقد خربها جيحون عدة مرات حتى ضعفت مكانتها واصبحت كركانج العاصمة بدلاً عنها. وقد خربها المغول ايضا في غزوهم المدمر سنة ٦١٨ هـ (١٢٢٢ م).

ومن مدن خوارزم الهامة خيوه التي اصبحت أكبر مدن خوارزم في العصور المتأخرة وخاصة بعد أن تحول مجرى نهر جيحون عن كركانج في القرن السادس عشر الميلادي فقامت خيوه عند مصب النهر الجديد وعظمت مكانتها حتى أصبحت هي العاصمة لهذا الاقليم.. وقامت خانية خيوه وشملت معظم أراضي خوارزم وما حولها.. ولمّا اعترى الضعف هذه الخانيات استولى عليها الروس سنة ١٨٧٣ م.. وبقيت خانية خيوه بدون خيوه.. وأخيراً سقطت في يد لينين سنة ١٩٢٤ م بعد سقوط خانية بخارى سنة ١٩٢٢ م.. وبذلك سقطت جميع أراضي المسلمين في بلاد ما وراء النهر وخضعت لحكم الاستعمار الروسي القيصري ثم البلشفي.

ولخيوه قناة كبيرة متصلة بنهر جيحون (أموداريا) تجري فيها السفن ورغم أن سكان بلاد ما وراء النهر سنيون أحناف في الغالب الأعم الا ان سكان خيوه هم من السنة الشافعية.

ومن مدن خوارزم **(درغان)** التي كانت تعد في القرن العاشر الميلادي اكبر مدن الضفة الغربية لنهر جيحون (أموداريا) بعد كركانج.. وكان بها جامع جميل لا مثيل له في المنطقة بأسرها مزين بالحجارة الكريمة ومنقوش بالذهب وعلى مسافة فرسخين بحذاء الشط كانت تمتد كروم المدينة التي بلغت الخمسمائة وقد اشتهرت درغان بزبيبها وكرومها..

وقد وصفها ياقوت في طريقه من مرو الى خوارزم ووصف حسن مزارعها **وبساتينها** التي تقع على جرف عال على بعد ميلين من النهر كما وصف جامعها الجميل وسوقها التجاري الهام.

ومن مدن خوارزم ايضا **(سدور)** التي كانت عامرة الى القرن السابع عشر الميلادي.. وهي الآن الأطلال المعروفة باسم سدفر (Sadvar)

ومن المدن الهامة في خوارزم مدينة **هزارسب** التي ظلت محتفظة باسمها الى بداية القرن العشرين. والتي زارها بارتولد وذكرها في مؤلفه الموسوعي (التركستان).. وهي على بعد مرحلة من سدور المتقدم ذكرها.. وعلى بعد خمسة فراسخ من خيوه.

وهزارسب مدينة حصينة.. ولها قناة تأخذ من جيحون مما يلي آمل. وتقع مدينة **كردران خاس** الحصينة على بعد **فرسخين** من هزارسب وتربطها بجيحون قناة هي قناة كردران..

ومن مدن خوارزم مدينة **كردر** التي ينسب اليها عدد من العلماء.. كما أن من مدنها **زمخشر** التي ينسب اليها الامام الزمخشري.. ولزمخشر حصن وربض ويحيط بها سور له ابواب من الحديد ويحيط بالسور خندق.. ولها مسجد جامع كما أن لها جسر يرفع كل ليلة حيث كان يربطها بالطريق الكبير الذي يشق البلدة الى نصفين.

وقد أصاب الدهر خوارزم بعد الغزو المغولي فتخربت كثير من

مدنها الهامة وكان اقليم خوارزم متصلا بحزام زراعي متصل العمران بآمل ويربط خوارزم بخراسان ولكن عندما تغير مجرى نهر جيحون بعيدا عن كركانج في القرن السادس عشر الميلادي اضمحلت كركانج.

وانقطع الطريق الزراعي الذي يصل خوارزم بآمل.. وأدى ذلك الى أن تحاط خوارزم بالسهوب من كل جهة. ورغم ان خيوه تبوأت مكانة عالية نسبيا الا أنها لم تبلغ ما بلغته كركانج وكاث من قبل.. وظلت خوارزم في شبه عزلة عن بقية المناطق حتى الغزو الروسي لخيوه عام ١٢٩٠ هـ (١٨٧٣ م). ثم الاحتلال الروسي البلشفي الكامل لخانية خيوه عام ١٣٤٣ هـ (١٩٢٤ م).

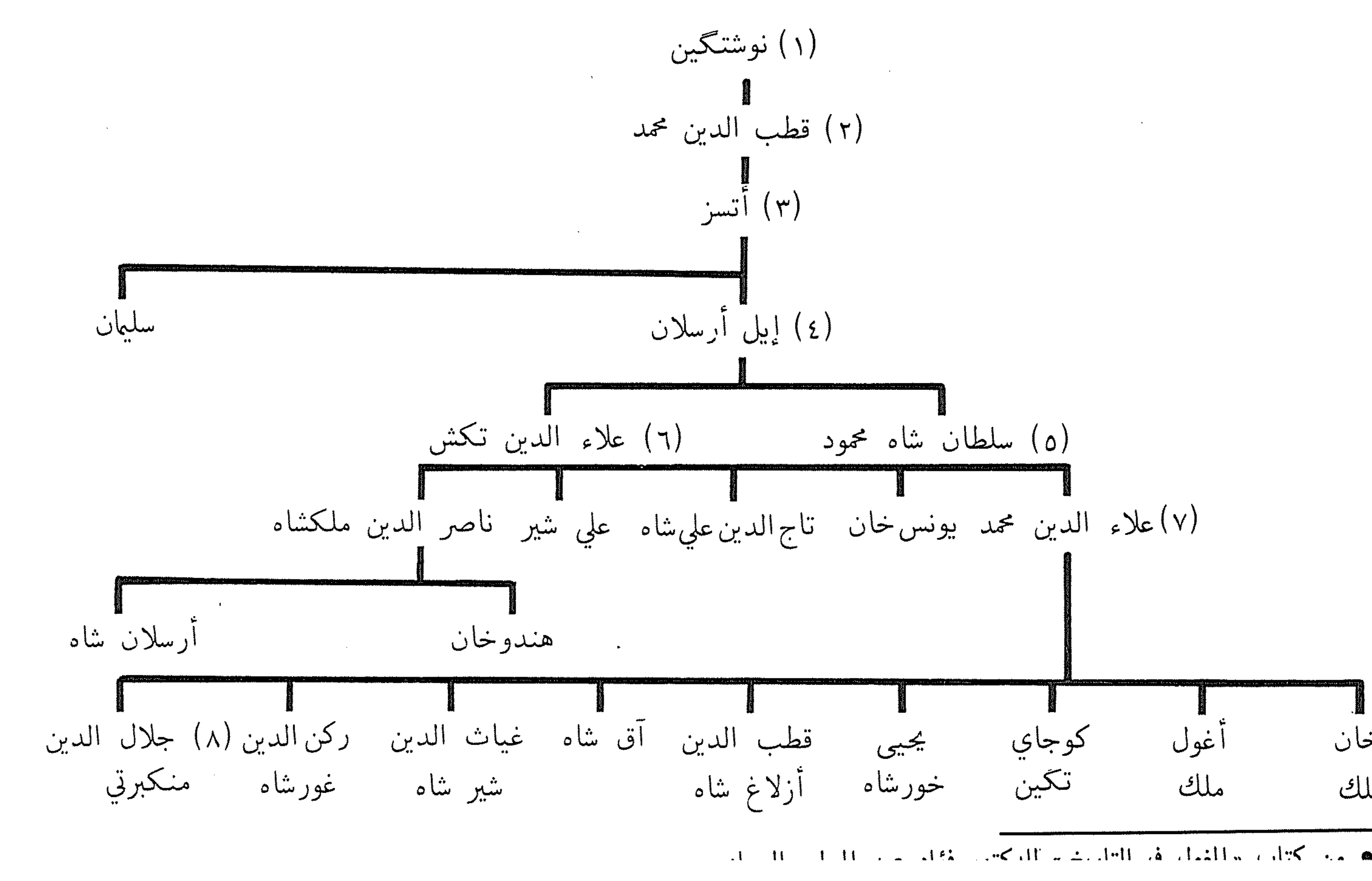
وقد أدخل القسم الجنوبي من خوارزم في جمهورية اوزبكستان السوفيتية اما الجزء الغربي والشمالي فأدخل في جمهورية تركمنستان السوفيتية.

الدولة الخوارزمية:

كان السلاجقة الاتراك يحكمون باسم الخليفة العباسي معظم اراضي الدولة الاسلامية وكان احد مماليك الأمير السلجوقي بلكاتكين هو انوشتكين غرجه الذي خدم في بلاط السلطان السلجوقي ملكشاه حيث بلغ أعلى المراتب وتم تعيينه في وظيفة الطشتدار (أي المشرف على الأواني السلطانية).. وكانت نفقات هذا الجانب من ميزانية بلاط السلطان تغطى من خراج خوارزم.. وهكذا أصبح انوشتكين مسئولاً عن خراج خوارزم.. وتولى ابنه قطب الدين محمد السلطة في خوارزم ايام السلطان السلجوقي سنجر عندما قام باخماد ثورة في خوارزم. واشتهر قطب الدين محمد بالعدل وتقريبه لأهل العلم (كما وصفه ابن الأثير في تاريخه).

وتولى بعد قطب الدين حكم خوارزم ابنه اتسز الذي خلف اباه عام

سلاطين خوارزم



٥٢٢ هـ (١١٢٧ م) والذي يعتبر المؤسس الحقيقي لسلطان أسرة شاهات خوارزم.

ورغم ان اتسز استمر في اظهار الولاء والطاعة للسلطان سنجر في اول حكمه الا أنه بعد أن تمكن من حكم البلاد ووطد دعائم دولته في جميع بلاد ما وراء النهر أعلن استقلاله.

وفي عهده وسع الحكم الاسلامي الى مناطق لم تخضع من قبل لحكم الاسلام في (جوف تركستان) واخضع ملكهم المجوسي.

وقام السلطان سنجر بشن حرب على هذا الامير المتمرد وانتصر جيش السلطان سنجر الذي كان يقوده بنفسه على جيش اتسز الذي اضطر للفرار ولكن ما لبث سكان خوارزم أن تعاونوا مع اتسز للقضاء على الوالي الذي بعثه سنجر لانه كان ظالما.. واستطاع اتسز مرة أخرى أن يثبت قواعد ملكه في خوارزم واستولى على بخارى.. وفي نفس الوقت أرسل الى السلطان سنجر يعلن له خضوعه. وعندما انهزم سنجر في حربه مع القراخطاي الكفار في معركة دامية واضطر الى التقهقر الى ترمذ، اهتبل اتسز الفرصة ليوطد دعائم ملكه واستقلاله.. ومرة أخرى قامت الحرب بين السلطان سنجر واتسز ثم تمَّ الصلح بينهما على يد رجل زاهد يلقب بآهويوشي وذلك سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٨ م).

واستطاع اتسز بعد ذلك ان يتوجه بجيوشه لفتح أرض القبجاق الذين لم يسلموا بعد وهاجم مدينتهم سغناق على ضفاف سرداريا (سيحون) واستولى اتسز أيضا على مدينة جند الهامة. وتولى بعد اتسز ابنه ايل ارسلان حكم خوارزم واستولى على بخارى التي انحاز له أهلها كما خضع له أمير سمرقند.. وصار ايل ارسلان بذلك ندا للسلطان السلجوقي غياث الدين محمد الذي تولى الحكم بعد وفاة السلطان سنجر.. وتوطد حكم الشاه خوارزم ايل ارسلان في معظم أرجاء بلاد ما وراء النهر واستطاع ان يمد نفوذه الى خراسان ذاتها بعد أن هاجمها الغز وهم من

بدو الترك فتعاون مع الأمراء المحليين لصدهم.. وأصبحت الخطبة تقرأ باسم ايل أرسلان بعد ذكر الخليفة العباسي في خراسان وجميع بلاد ما وراء النهر ما عدا مرو وبلخ وسرخس التي كانت في ايدي الغزو الذين لم يعترفوا لأحد بالسلطة عليهم.

واستطاع بعد ذلك خوارزمشاه ان يخضع مرو وبلخ وسرخس لحكمه.. وتعاون مع سلطان الغور (في أفغانستان) التي قامت دولتهم عند ضعف الدولة الغزنوية.. على اقتسام مناطق خراسان وأفغانستان. وبقي الحكم في سلالة اتسز يحكمون خوارزم وما حولها باسم خوارزمشاه يمتد نفوذهم حينا فيصل الى جميع بلاد ما وراء النهر وخراسان بل يمتد ليصل الى قزوين وفارس وأرمينية وبلاد الكرج (جورجيا) وينحسر حينا آخر فيقتصر على خوارزم وما حولها من المدن والمناطق[1]. وظهر في عهودهم كثير من العلماء والفطاحل الذين وجدوا الرعاية ومن أشهر هؤلاء الإمام فخر الدين الرازي الذي احتضنه السلطان علاء الدين خوارزمشاه وقربه إليه. وكان السلطان علاء الدين اذا رغب في رؤية الفخر الرازي ذهب هو بنفسه الى الفخر الرازي في داره ولا يجشمه عناء الانتقال إليه. وقد طبق صيت الفخر الرازي (محمد بن عمر بن حسين القرشي) الآفاق.. وأكرمه سلاطين المسلمين وخاصة علاء الدين خوارزم شاه.. وقد ألف الرازي ما يقرب من مائة مؤلف ومن أشهر مؤلفاته التفسير الكبير في ثلاثين جزءاً وكتاب التفسير الصغير وكتاب المباحث المشرقية وكتاب المحصول في علم اصول الفقه.. وألف في الطب (مسائل في الطب) وفي الفلسفة الملخص في الفلسفة وفي علم الكلام تهذيب الدلائل وعيون المسائل في علم الكلام. وفي البلاغة كتاب شرح نهج البلاغة.. ولم يترك بابا من أبواب المعرفة المعلومة في زمنه الا وألف فيها التآليف العجيبة.

---

(١) أنظر خريطة الدولة الخوارزمية.

الدولة الخوارزمية في أقصى اتساعها

وفي عهد تكشي شاه خوارزم امتد سلطانه الى ايران ذاتها وطلب من الخليفة العباسي ان يتنازل له عن خوزستان (التي تدور فيها رحى الحرب العراقية الايرانية حاليا) وان تقام الخطبة في بغداد نفسها باسمه مما أدى الى الصراع بين الخليفة العباسي وشاه خوارزم.

وللأسف استمر هذا الصراع والعداء الذي عاد بالوبال على البيتين الحاكمين كما يقول بارتولد في كتابه الموسوعي (تركستان من الفتح العربي الى الغزو المغولي) وقد ساقت الصدامات المتتالية بين العباسيين وشاهات خوارزم الى خراب البلاد وترويع العباد بالحروب المستمرة الطاحنة. وتولى بعد تكشي الذي وسع مملكة خوارزم الى أقصى حدودها ابنه محمد الملقب بعلاء الدين وذلك في اغسطس عام ٥٩٧ هـ (١٢٠٠ م) واستطاع علاء الدين ان يقرب إليه العلماء واشتهر الإمام فخر الرازي المتقدم ذكره كأحد اصدقاء علاء الدين خوارزم شاه. واستطاع علاء الدين ان يهزم سلطان الغور غياث الدين الذي كانت دولته تنافس دولة خوارزم في تلك الاصقاع.. وخضعت بذلك بلخ وهراة لحكم خوارزمشاه وانتقل السلطان الغوري الى شمال الهند ليوطد حكمه هناك.. واضطر سلطان الغور ان يعترف بتبعيته لخوارزمشاه وان تسك النقود باسمه وتكون الخطبة له. وكان علاء الدين اخر شاه لخوارزم يستطيع ان يمد سلطان دولته.. وبقي في الحكم من سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠٠ م) الى سنة ٦١٧ هـ (١٢٢٠ م) ثم تولى بعده جلال الدين الذي كان آخر سلاطين خوارزم. والذي انهزم هزيمة نكراء امام جحافل جنكيزخان وفر منه الى جزيرة في بحر الخزر حيث مات هناك وحيداً طريداً وهو يعاني من التهاب رئوي. وكان الترف قد نخر في هذه الدولة القوية كما نخر فيها الفساد والإقتتال المستمر بينهم وبين حكام المناطق الاسلامية الأخرى مما أدى الى أضعاف الجميع وجعلهم لقمة سائغة لجحافل جنكيزخان الذي قضي عليهم جميعها واستمر زحف جنكيزخان وزحف ابنائه حتى وصلوا

بغداد عاصمة الخلافة الاسلامية واغرقوها في بحور الدماء حيث قتلوا ما يقرب من مليون في بضعة ايام.. ولم يتوقف زحفهم المدمر الا في عين جالوت على يد السلطان قطز وقائده المظفر الظاهر بيبرس البندقداري حيث انتصروا على المغول. وعندئذ تحول المغول أنفسهم الى الاسلام.. وصاروا قوة له بعد ان كانوا أخطر أعدائه..

دور أهل خوارزم في نشر الاسلام

وكانت (خوارزم) تتصل بجهاتها الشمالية الغربية بسهول (الاستيبس) حيث كانت تعيش قبائل (البلغار) و(الخزر) في حوض نهر (الفولجا) واتصل بهم أهل خوارزم وأقاموا المستعمرات الاسلامية، ونشروا الاسلام في (بلغار الفولجا) وهم يتصلون بنسب قوي مع (بلغار نهر الطونة) (الدانوب) الذين كونوا مملكة (بلغاريا) القوية (المجر) في الغرب. وكان الروس وهم من القبائل النورماندية القادمة من السويد، لا يزالون على بداوتهم وكان هجومهم على حوض نهر الفولجا دافعه السلب والنهب، ولكنهم - أخيراً - استوطنوا تلك المناطق، وانصهروا في العنصر الصقلبي البلغاري، وتحولوا الى المسيحية الأرثوذكسية التي كانت عاصمتها (القسطنطينية) (اسلامبول أو اسطمبول بعد أن دخلها محمد الفاتح) وأصبحوا يشكلون سداً في وجه انتشار الاسلام، الذي دخل بواسطة أهل (خوارزم) الى بلاد (الخزر) الواقعة شمال بحر (قزوين). وعندما هاجم الروس، بقيادة (استواتوسلاف) بلاد (الخزر) طلب أهل (الخزر) العون من أهل (خوارزم) فاشترط عليهم الخوارزميون أن يسلموا، فأسلموا، وأنقذوهم من غزو الروس الاجلاف، وذلك عام ٣٦٥ هـ (٩٦٥ م)، كما كان لسلاطين (خوارزم) الذين كانوا يدعون بالخانات اثر عظيم في نشر الاسلام، في مناطق الخزر، وقد توجه السلطان (مأمون بن محمد) من (الجرجانية) (كركانج) الى بلاد (الخزر)، ونشر فيها الاسلام.

وكان سكان (الخزر) يدينون بديانات مختلفة، ولكن السيطرة والحكم كانا لليهود، وكان دخول اليهودية الى الخزر آخر صفحات التبشير بالدين اليهودي، الذي تحول - بعد ذلك - الى دين قومي لجماعة من الناس، تدعي انها من نسل يعقوب - عليه السلام - وبما أن اليهودية انتشرت في شعوب كثيرة، من قبل، منهم أهل اليمن، والأحباش، وآخرهم (الخزر) فان الزعم بأن اليهود هم - فقط - من نسل يعقوب أمر لا يقره التاريخ مطلقا.

وكان ملك (الخزر) الى عهد (هارون الرشيد) يهوديا على الرغم من أن كثيراً من رعاياه قد تحولوا - فعلا - الى الاسلام، بواسطة الدعاة الى الله، وبخاصة من أهل خوارزم.

وكانت نصرة أهل (خوارزم) لسكان (الخزر) عندما هاجمهم الروس عام ٣٦٥ هـ (٩٦٥ م) هي الحلقة الأخيرة في قصة اسلام سكان (الخزر) طواعية.

ولهذا يعود الفضل في انتشار الاسلام، في هذه المناطق الى الخوارزميين.

وقد قامت في (خوارزم) دولة قوية امتد سلطانها ونفوذها، بعد أن ضعفت الدولة السامانية ولكن هذه الدولة القوية اعتراها الترف والضعف - بعد ذلك - فهاجمها (جنكيز خان) وقضى عليها قضاء مبرما، ولم تستطع أن تقوم الا بعد ان اختلف اولاد (جنكيز خان) على الملك، فقامت دولهم المجزأة التي استطاع ان يقضي عليها (تيمورلنك).

وقد كان للخوارزميين - أيضاً - فضل انتشار الاسلام في جيران الخزر وهم (بلغار الفولجا) وقد سجل التاريخ ان وفداً من مسلمي (البلغار) انطلقوا الى بغداد، على عهد الخليفة العباسي (المقتدر) سنة ٣٠٩ هـ (٩٢١م)، وطلبوا من الخليفة ان يرسل لهم العلماء لتعليمهم الاسلام: كما طلبوا منه أن يرسل لهم مجموعة من الخبراء العسكريين، ليبنوا لهم

القلاع والاستحكامات العسكرية، حتى يصدوا غزوات الروس الهمج.

وكان ممن أرسلهم الخليفة (المقتدر) العالم (ابن فضلان) الذي دون رحلته تلك، ونقل عنها (ياقوت الحموي) في كتابه القيم (معجم البلدان) وفي أوائل القرن العشرين وجدت نسخة من رحلة (ابن فضلان) في مكتبة (مشهد) بعد أن عدت من المفقودات[1]، وكان خط سير الرحلة من بغداد الى (بخارى) ثم الى (خوارزم) ثم الى بلاد (البلغار)، دليلا على خط سير انتشار الاسلام، الذي انتشر - أولا - من العراق الى خراسان، ثم الى بخارى وخوارزم، ثم الى بلاد البلغار.

وقد وصفهم (ابن فضلان) في رحلته بأنهم من الصقالبة، وان كان الباحثون المحدثون يرون أنهم نتيجة اختلاط الصقالبة بالأتراك وبخاصة منهم الخوارزميون، الذين كان لهم الفضل الاول في نشر الاسلام بينهم.

وقد سيطر (البلغار) المسلمون على مناطق واسعة من (ديليكي استوك) الى جنوب (ساراتوف) ومن (موروم) الى (أوفا) وبذلك كان نهر (الفولجا) بأكمله تحت سيطرة (البلغار) المسلمين، واستمرت دولتهم من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) الى القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، عندما ابتدأوا في التحول الى امارات متعددة مختلفة.

وابتدأ الروس بعد ذلك - في الاستيلاء على مناطق منها، حتى جاء (تيمورلنك) فأخضعها جميعا لسلطانه، وانتشرت في (البلغار) اللغة التركية التي تكتب بالحرف العربي.

وقد ذكر (بارثولد) في كتابه (تاريخ الترك في آسيا الوسطى) ان انتشار الاسلام بين القبائل التركية البدوية، ثم انتشاره - بعد ذلك - في الخزر، وبلاد البلغار، انما كان يتم - أساساً - على يد الدعاة الى

---

(١) وقد طبعت هذه المخطوطة بتحقيق الدكتور الدهان وقد نفذت هذه الطبعة منذ زمن ولم يعد طبعها مرة اخرى.

الله من الصوفية، الذين كانوا ينطلقون الى كل مكان لينشروا دعوة الله بكل حماس واخلاص وتجرد، وكانت حياتهم البسيطة وزهدهم وحرارة ايمانهم واخلاصهم للاسلام، كل ذلك يجذب كثيرا من الاقوام الذين كانوا يذهبون إليهم، لنشر الاسلام فيهم.

وقد ذكر من ذلك قصة اسلام جماعة من الترك الجفاة الذين يعيشون حياة البداوة، في سهوب (القرغيز) وغيرها، عندما أسلم (ساتوق بغراخان)، وأسلم معه مائتا ألف أسرة (كانت تعيش في الخيام) وذلك على يد جماعة من الدعاة الى الله، من المتصوفة، من أهل (خوارزم) وغيرها من المناطق المجاورة.

وقد كان يطلق على (بغراخان) لقب (قاراخان) وهو (سلطان) دولة القاراخنيين التي وصفها محمود الكاشغري (نسبة الى كاشغر في تركستان الشرقية) وكان دخول القراخانيين في الاسلام عام ٣٢٣ هـ (٩٤٣ م) انتصارا عظيما للإسلام، حيث دخل مليون شخص في فترة وجيزة في الاسلام طائعين، على يد هؤلاء الدعاة، من الصوفية.. وأنهم أدخلوا شعبين كاملين الى الاسلام هما شعب (بلغار الفولجا) وشعب (القارخانيين) في تركستان الشرقية (كاشغر وما حولها).

وفي هذا القرن، أي القرن العاشر الميلادي، اسلم - أيضاً - قسم كبير من قبائل (الغز) الذين كانوا مقيمين عند مصب نهر سيحون (سرداريا)، وذلك - أيضاً - بفضل الدعاة الى الله من الخوارزميين وغيرهم..

وبذلك سجل الاسلام انتصارا عظيما، بدخول شعبين من شعوب الاتراك، وهما (الشعب القراخاني) و(الشعب الغزي) الى الاسلام (في القرن العاشر الميلادي) وكان للخوارزميين، في ذلك كله، جهد مبارك،

وفضل عظيم، بالإضافة الى نجاحهم في نشر الاسلام لدى (بلغار الفولجا) و(الخزر).

وفي العصور الحديثة تحولت بلاد التركستان الى خانيات صغيرة، وكانت (خوارزم) احدى هذه الخانيات، وأصبح اسمها خيوة، وقد سقطت هذه الخانية في يد الروس، وذلك عام ١٩٢٤م. عندما زحفت عليها الجيوش الحمراء، وأخضعتها - بعد أن أخضعت بخارى وسمرقند عام ١٩٢٢م. وأصبحت خوارزم واقعة في جمهورية أوزبكستان التي يسيطر عليها الروس سيطرة تامة.

وقد نبغ، من أهل خوارزم، عدد كبير من العلماء والفلاسفة والاطباء والفلكيين والرياضيين حتى ان علم (اللوغاريتمات) انما ينسب في الواقع الى الخوارزمي، وصار ذلك تحريفا في الاسم على طريقة الغربيين - كما فعلوا في اسم ابن سينا، حيث ينطقون (افيسينا).

أعلام خوارزم

وفيما يلي سنترجم باختصار - لبعض هؤلاء الاعلام:

١ - داود بن رشيد الخوارزمي:

ولد هذا المحدث في (خوارزم)، وانتقل الى دمشق وغيرها من عواصم الاسلام، ودرس علم الحديث، على يد أكابر علماء زمانه، مثل الوليد بن مسلم، وبقية بن الوليد، وصالح بن عمرو وتلقى وروى عنه الإمام البخاري، صاحب الجامع الصحيح، الذي سبق أن ترجمنا له في علماء بخارى، والإمام مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صاحب صحيح مسلم، وأبو القاسم البغوي، وتوفي في دمشق سنة ٢٣٩ هـ (٨٥٣م).

٢ - أبو طـــالـــب طـــاهربن جعفر المخزومي الخوقنـــدي الخوارزمي:

وهو - كما ترى من نسبه - من أشراف قريش، من قبيلة بني مخزوم، التي هاجر أبناؤها كما هاجر أبناء القبائل العربية الأخرى، لنشر الاسلام، حتى وصلوا (خوارزم) وأقاموا بها ولقد ولد صاحب الترجمة في (خوارزم) في مدينة (خوقند) وتلقى الحديث على يد عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، واشتهر بقراءة القرآن، وبالأدب، وسكن سمرقند، وتوفي بها سنة ٤٠١ هـ (١٠١٠ م) وروى عنه الحديث ابنه محمد بن طاهر.

٣ - أبو الريحان محمدبن أحمد البيروني الخوارزمي:

ولد أبو الريحان البيروني في خوارزم سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٣ م)، ثم انتقل الى ضاحية من ضواحيها، وتدعى (بيرون) فنسب اليها، وتوفي عام ٤٤٠ هـ (١٠٤٨ م).

يعد (أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني) أحد نوادر العقل البشري ونوابغه، شارك باقتدار - في معظم العلوم المعروفة، في عصره، وألف فيها المؤلفات العديدة الهامة، واشتهر بالفلسفة والفلك والرياضة والتاريخ، وبلغت فهارس أسماء مصنفاته - كما يقول ياقوت الحموي - ستين ورقة، وكان ضليعاً في اللغات الشرقية، فالى جانب اجادته للغته الخوارزمية - كان يجيد اللغات الفارسية، والهندية، والعبرية، والسريانية، أما اللغة التي لم يكن يكتب الا بها فهي اللغة العربية، التي عشقها، ودافع عنها.

يقول في كتابه (الصيدنة).

(ديننا والدولة عربيان وتوأمان، ترفرف على أحدهما القوة الالهية، وعلى الآخر اليد السماوية.

وكم احتشد طوائف من التوابع، وبخاصة منهم الجيل والديلم في لباس الدولة جلابيب العجمة، فلم يتفق لهم في المراد سوق، ما دام الأذان يقرع اذانهم، كل يوم خمساً وتقام الصلوات بالقرآن العربي المبين خلف الائمة صفاً صفاً، ويخطب لهم في الجوامع بالإسلام، وحبل الاسلام غير منفصم، وحصنه غير منثلم، والى لسان العرب نقلت العلوم من أقطار العالم، فازدانت، وحلت في الأفئدة، وسرت محاسن اللغة منها في الشرايين والأوردة وان كانت كل أمة تستحلي لغتها، التي ألفتها، واعتادتها، واستعملتها في مآربها).

ثم يقول: (واقيس هذا بنفسي، وهي مطبوعة على لغة (الخوارزمية) لو خلد بها علم، لاستغرب استغراب البعير على الميزاب، والزرافة في العراب، ثم منتقلة الى العربية، والفارسية، فأنا في كل واحدة دخيل ولها متكلف، والهجو بالعربية أحب الي من المدح بالفارسية، وسيعرف مصداق قولي من تأمل كتاب علم قد نقل الى الفارسي، كيف ذهب رونقه وكسف باله، واسود وجهه، اذ لا تصلح هذه اللغة الا للأخبار الكسروية، والاسمار الليلية).

فأين اللغة العربية - اليوم - التي لم تعد لغة العلوم والفنون، بل أصبحت لغة العلم في جامعاتنا ومدارسنا هي الانجليزية أو الفرنسية، وانظروا الى العرب أنفسهم كيف يدرسون الطب، أو الفلك، أو النبات، أو الجيولوجيا، أو أي علم من العلوم (غير العلوم الشرعية) تجدهم في ذلك يدرسونها بلغة الافرنج، ويفتخرون بذلك، ولا يريدون أن يعودوا الى لغتهم، التي وسعت كتاب الله لفظاً وغاية، وما ضاقت عن آي به وعظات وكم من مؤتمرات قد عقدت لاعادة تدريس العلوم باللغة العربية، ولكنها - للأسف - الى الآن، لم تسفر عن شيء محسوس ملموس.

وأنت ترى كيف كان (البيروني) يشهد للغة العربية بأنها لغة العلم، وأن الكتابة العلمية بغيرها لا تقوم بالغرض، ولا تفي بالمقصد، ويتحدث عن اللغة الفارسية، التي كانت تنافسها - آنذاك - فيقول بصراحة أن أي كتاب علم ينقل الى الفارسية يذهب رونقه، ويسود وجهه، ويزول الانتفاع به، ويعد الفارسية لغة للأسمار والحكايات، أما لغة العلم فهي العربية - بلا جدال،.

ومن مؤلفات هذا العالم المؤرخ الجغرافي الفلكي الفيلسوف:

(الآثار الباقية عن القرون الخالية).

و(تاريخ الأمم الشرقية).

و(تاريخ الهند).

وجميعها في التاريخ.

وله في الفلك والجغرافيا:

(القانون المسعودي في الهيئة والنجوم والجغرافيا)

و(الارشاد في أحكام النجوم).

و(التفهيم لصناعة التنجيم).

و(تحديد نهايات الاماكن لتصحيح مسافات الأماكن).

وله في شرح عقائد أهل الهند (تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذوله).

وله في الهندسة والرياضة كتاب (استخراج الأوتار).

وغيرها كثير، مثل (الجماهر في معرفة الجواهر).

و(كتاب الصيدنة).

و(كتاب (الاستيعاب في صفة الأسطرلاب) وهو آلة فلكية لمعرفة مواقع النجوم.

و(كتاب (لوازم الحركتين) الذي صنفه للسلطان مسعود، والذي قال

عنه ياقوت الحموي (وهو كتاب جليل لا مزيد عليه اقتبس أكثر كلماته من آيات من كتاب الله عز وجل)

وللبيروني كتاب في الشعر والأدب سماه (مختار الأشعار والآثار).

وله شرح لديوان (أبي تمام) أعجب به ياقوت، وقال انه رآه بخط المؤلف.

وكان البيروني - أيضاً - شاعراً مجيداً، قال عنه الاديب الناقد الصفدي: (يا عجب كل العجب من نظم هذا الرجل هذا النظم، اذ ليس هذا فنه، ولا عرف به فهذا شعر جيد).

وقال عنه ياقوت في (معجم الأدباء) انه كان أديباً أريباً لغوياً، ولذا ذكره في (معجم الأدباء).

وهكذا كان (البيروني) رحمه الله - قمة من القمم، التي امتلأ بها تاريخ بلاد ما وراء النهر (التركستان) التي ترزح - اليوم - تحت الاستعمار الروسي. فأين هذا الماضي المشرق المجيد مما عليه المسلمون - اليوم - من تخلف وضياع وتمزق؟

٤ - أبو عبد الله محمد الخوارزمي:

يعد (أبو عبد الله الخوارزمي) أقدم كاتب مسلم ألف كتاباً موسوعياً (دائرة معارف) سماه (مفتاح العلوم) وتكلم فيه عن جميع علوم عصره، من الطب، والهندسة، والرياضيات، والفلك، والفلسفة، والجغرافيا، وعلوم الهيئة، وغيرها من علوم ذلك الزمن. أهدى كتابه الى وزير السلطان (نوح الساماني) عام ٣٨٧ هـ (٩٩٧ م)..

٥ - أبو بكر الخوارزمي:

ولد في خوارزم عام ٣٢٤ هـ (٩٣٥ م)، واشتهر بالأدب، والشعر، والكتابة، وانتقل الى الشام وأقام بها، وخلد أسمه برسائله الأدبية

المسجعة، التي جمعت المدائح، والمراثي، والاهاجي والنظرات الأدبية والحكمية، وطبعت رسائله عدة مرات، وتوفي في الشام عام ٣٨٣ هـ (٩٩٣ م)...

٦ - محمد بن موسى الخوارزمي:

واضع علم الجبر والمقابلة ومبتكر حساب اللوغاريتمات وهو تحريف لاسمه كما يفعل الغربيون عادة. وهو أول من حل معادلات الدرجة الثانية الجبرية. كما اشتهر بعلوم الفلك والتنجيم، وكان أحد الفلكيين الذين عملوا في مرصد (المأمون). وله كتب في علم الفلك منها (الزيج) و(العمل بالاسطرلاب) وقد اشترك في قياس محيط الأرض أيام المأمون مع مجموعة من العلماء المسلمين.. ويعتقد أن مولده كان سنة ١٦٤ هـ (٧٨٠ م) وكانت وفاته سنة ٢٣٦ هـ (٨٥٠ م)

٧ - محمد بن العباس الخوارزمي:

ولد سنة ٣٢٣ هـ (٩٣٤ م) وتوفي سنة ٣٨٣ هـ (٩٩٣ م) يعد محمد بن العباس الخوارزمي من أئمة الكتاب البلغاء، ثقة في اللغة، وفي معرفة الأنساب، وهو صاحب الرسائل المعروفة برسائل الخوارزمي وله ديوان شعر، وهو ابن أخت المفسر المؤرخ المشهور الامام ابن جرير الطبري، أمه من طبرستان، وأبوه من خوارزم، ولذا كان يعرف أحياناً بالطبرخزمي، جمعاً بين طبرستان وخوارزم واستوطن نيسابور، ودفن بها عام ٣٨٣ هـ (٩٩٣ م).

٨ - شمس الدين محمد بن اسحاق الخوارزمي:

عالم حنفي، انتقل من خوارزم الى مكة، واقام بها، وألف كتاب (اثارة الترغيب والتشويق الى المساجد الثلاثة والبيت العتيق) واستخدم مهارته الفائقة في الرسم، في تصوير هذه المساجد، ورسمها بمهارة

واقتدار (وكان يبيع لوحاته على (الحجاج) فانتشرت في بقاع الأرض وتوفي سنة ٨٢٧ هـ (١٤٢٤ م).

٩ - محمد بن علي الهراش الكاثي:

نسبة الى (كاث) من مدن (خوارزم)، وهو أديب عالم باللغة وآدابها، واشتهر برسائله البليغة وله عدة مصنفات، منها كتابه (التصريف) (وشرح ديوان المتنبي) (ومجموعة رسائل) (وديوان شعر).

١٠ - الشريف شرف الدين اسماعيل:

من أهل خوارزم، اشتهر بالطب، وكان كما وصفه ابن أبي أصيبعة - في (طبقات الأطباء) طبيباً عالي القدر، وافر العلم، وجيهاً في الدولة، وكان الطبيب الخاص للسلطان (علاء الدين محمد خوارزم شاه) وقد ألف عدة مصنفات في الطب، منها: (كتاب الذخيرة الخوارزم - شاهيه في الطب) باللغة الفارسية، في أثني عشر مجلداً، وكتاب (الأغراض في الطب) مجلدان، و(كتاب يادكار في الطب) وجميعها باللغة الفارسية.

١١ - محمد بن محمد الكردري:

الخوارزمي البزازي فقيه حنفي من كردر قرية (بخوارزم) تنقل في بلاد القرم والبلغار وحج واشتهر من كتبه (الجامع الوجيز) في فقه الحنفية والمناقب الكردرية ومختصر في تعريفات الاحكام توفي سنة ٨٢٧ هـ (١٤٢٤ م).

١٢ - برهان الدين ناصر بن عبد السيد الخوارزمي المطرزي

عالم فقيه لغوي من فقهاء الاحناف ولد في الجرجانية (خوارزم) سنة ٥٣٨ هـ (١١١٤ م) وتوفي بها سنة ٦٤٠ هـ (١٢١٢ م) كان رأساً في

الاعتزال من كتبه (الإيضاح) (وشرح مقامات الحريري) و(المصباح) في النحو (والمعرب) في اللغة (والاقناع بما حوى تحت القناع)..

١٣ - الإمام الزمخشري:

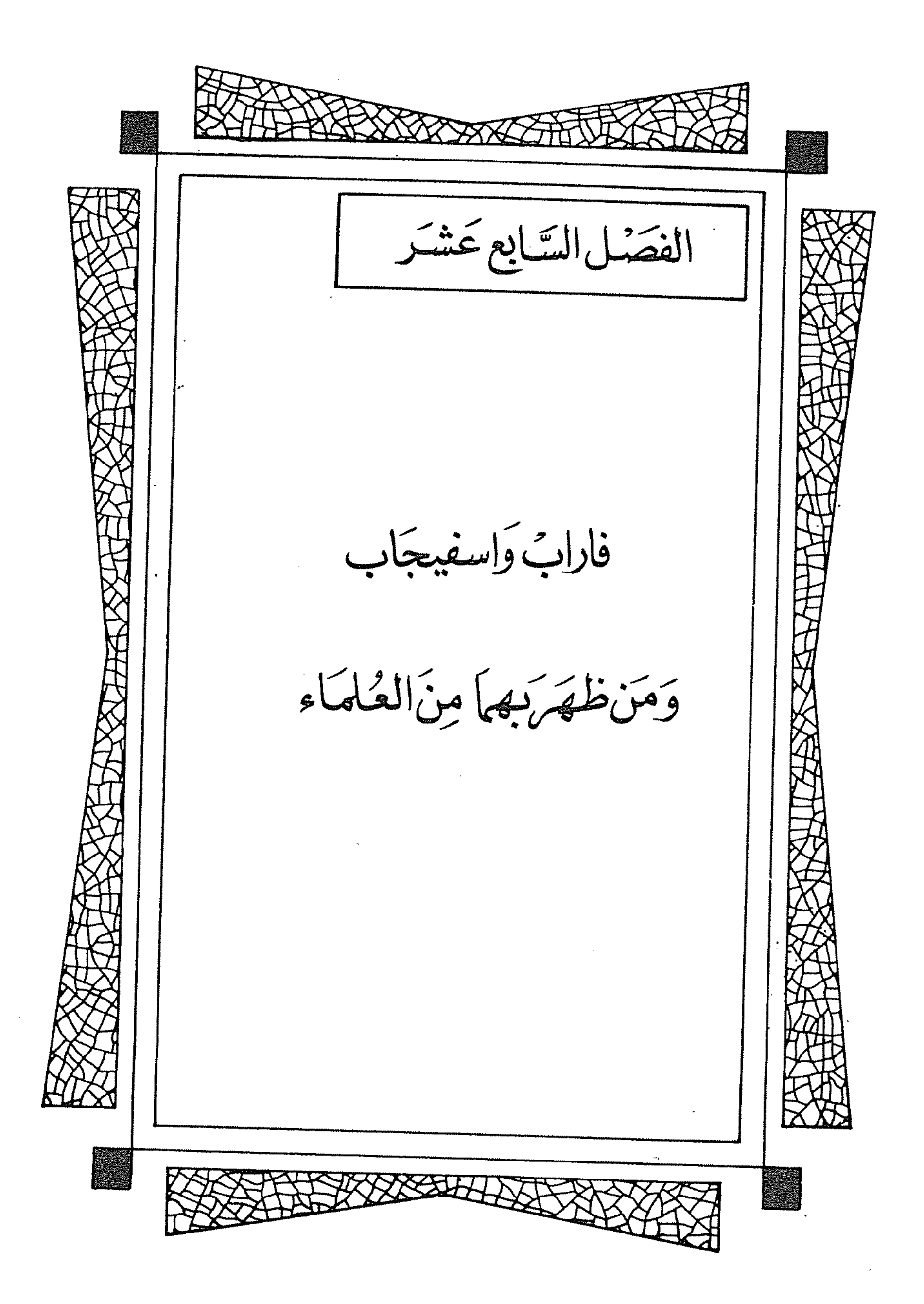
بهذا الإمام العظيم نختتم ذكر من اشتهر من علماء خوارزم وقراها، وقد ولد (جار الله محمود بن عمر الزمخشري) عام ٤٦٧ هـ (١٠٧٥ م) في قرية (زمخشر) وهي من قرى (خوارزم) واليها ينسب، وقد سافر الى مكة، لطلب العلم، وجاور بها، فلقب جار الله، ثم تنقل في بلدان العالم الاسلامي، وعواصم العلم، ينهل من ينابيعها الفياضة، ثم عاد الى الجرجانية (كركانج) عاصمة خوارزم وأقام بها ينشر العلم، ويؤلف حتى وافاه الأجل عام ٥٣٨ هـ (١١٤٤ م)..

أشهر كتبه (الكشاف) في تفسير القرآن، وهو أحد أهم المراجع في تفسير القرآن الكريم، وقد توسع فيه في الأمور اللغوية، وينكر عليه ميله للمعتزلة، وأخذه بآرائهم ودفاعه عنهم، وعلى الرغم من ذلك، فإن (الكشاف) لا يستغني عنه طالب علم. ومن أشهر كتبه «المفصل» في النحو شرحه أبو حيان في أربعة أجزاء.

وله كتب في اللغة، منها كتابه (أساس البلاغة) (ومقدمة في اللغة) وله كتب في الجغرافيا مثل كتابه (الجبال والامكنة والمياه) وله كتاب جمع فيه الأمثال وسماه (المستعصي في الأمثال) و(القسطاس في العروض) و(ربيع الأبرار) في الأدب، (ونكت الأعراب في غريب الاعراب) في النحو و(أطواق الذهب) و(أعجب العجب في شرح لاميه العرب) وله الى جانب ذلك - دراية واسعة في الحديث وله كتاب (الفائق في غريب الحديث) وهو يدل على تبحره وتوسعه في علوم الحديث.

وله الى جانب ذلك كله ديوان شعر جيد، وله معجم عربي فارسي سماه (المقدمة).

وعاش الإمام (الزمخشري) زاهداً عالماً، يقول رأيه، ولا يخاف في الله لومة لائم، وكان واسعاً في اللغة، والتفسير، وعلوم الحديث، معتزلي المذهب، منكراً أشد الانكار على غلاة الصوفية...



الفصل السابع عشر

فاراب واسفيجاب

ومن ظهر بهما من العلماء

(فاراب) مدينة وولاية وراء نهر سيحون، في تخوم بلاد الترك، وهي أبعد من (الشاش) قريبة من بلاساغون (على حدود الصين، في التركستان الشرقية، المسماة سينكيانج والواقعة تحت الاستعمار الصيني). وتقع فاراب حاليا في جمهورية قازاقستان السوفيتية. قال عنها (ياقوت الحموي) مقدارها - في الطول والعرض - أقل من يوم، الا أن بها منعة وبأساً وهي ناحية سبخة لها غياض، ولهم مزارع في غربي الوادي، تأخذ من نهر (الشاش) وهو نهر سيحون.

أما (اسفيجاب فهي الارض المزروعة الواقعة في حوض نهر أريس وروافده ومدينة اسفيجاب هي موقع قرية سيرام الحالية).

ومدينة اسفيجاب مقدار ثلث مدينة بنكث (طاشقند) في الرقعة.. ومثل بقية المدن القديمة كانت مكونة من القلعة (القهندز) والربض (الضاحية) والشهرستان (المدينة) وكان يحيط بها سور طوله فرسخ (ثلاثة أميال) وللشهرستان أربعة ابواب وبداخل الشهرستان دار الإمارة والحبس والمسجد الجامع والاسواق التي يخص المقدسي منها بالذكر سوق الانسجة القطنية المعروف بسوق الكرابيس...

وكانت اسفيجاب ثغرا من ثغور الاسلام على حدود القبائل التركية التي لم تدخل بعد في الاسلام ولذا كان بها ١٧٠٠ رباط للمجاهدين المطوعة كما يقول المقدسي.. وكانت مدن ما وراء النهر تتنافس في بناء الاربطة في اسفيجاب فكان هناك رباط بخارى الذي بناه أهل بخارى لمطوعتهم ورباط سمرقند ورباط نخشب وهي نسف.. وهناك أربطة باسماء بعض الأثرياء المسلمين الذين قاموا ببنائها مثل رباط قراتكين في عهد نصر بن أحمد الساماني.. وعند هذا الرباط يوجد قبره وقبر ابنه..

وبجانب الرباط سوق اوقفت غلتها على الرباط وعلى المجاهدين.. وكانت ابنية المدينة من الطين..

أما القلعة فقد تهدمت في القرن العاشر الميلادي ولم يهتم الاهالي بترميمها بعد أن انتشر الاسلام في القبائل التركية المجاورة والتي كانت تغير من قبل عليها..

وكانت تدخل ضمن ولاية اسفيجاب جميع الأراضي الممتدة صوب المشرق الى وادي طلاس بما في ذلك الوادي نفسه، والممتدة غربا الى سوران (صبران) ومن مدنها فاراب وسبانكث وكدر.. وتخرج كدر نحو سبعين الف مجاهد كما يقول المقدسي وجامعها بالشهرستان ومعظم اسواقها بالربض.. ويتشكك بارتولد في كدر هذه هل هي مدينة اترار او هي فاراب المتأخرة.

ومن مدن هذه المنطقة على الشط الغربي من نهر سرداريا (سيحون) مدينة ستكند.. ومدينة وسيج التي ظهر منها ابو نصر الفارابي والتي كانت قلعتها باقية الى القرن الثاني عشر الميلادي. ويروي المسعودي ان نهر سيحون (سرداريا) في نواحي فاراب كان يفيض احيانا فيغمر مساحة واسعة تزيد على ثلاثين فرسخا.. وأن القرى كانت تصبح كالقلاع على رؤوس التلال حتى كان الأهالي يلجأون الى استعمال الزوارق للاتصال ببعضهم البعض.

ومن كدر الى شاوغر مرحلة.. وشاوغر بلدة كبيرة حصينة ذات رستاق واسع وجامعها قرب السوق ومن شاوغر الى سوران (او صبران) مرحلة.. وسوران هذه كانت احد الثغور الهامة في مواجهة القبائل التركية التي لم تكن قد أسلمت بعد ولذا كانت محكمة الدفاع ويحيط بها سور وسبعة حصون وكان الغز (بدو الترك) يأتون اليها للتجارة وعن طريق اتصالهم هذا مع التجار المسلمين دخل كثير منهم في الاسلام..

وكان جامعها داخل الشهرستان (المدينة الداخلة).

ويسجل المقدسي اسماء ثغور على الحدود مع الترك من بينها بلدة شغلجن الكبيرة الغنية الحصينة والواقعة على الحدود مع أرض الكيماك وبلدة بلاج وبلدة بروكث.. وكانت البلدتان الاخيرتان موطنا للتركمان الذين اعتنقوا الاسلام حديثا.. وكان هؤلاء الداخلون الجدد في الاسلام يشكلون عدة الجند المدافعين عن حدوده والناشرين لواءه في الأراضي الجديدة.

وكانت المراعي الخصبة الواقعة بين فاراب والشاش (جنوب غرب اسفيجاب) تقطنها القبائل التركية الحديثة العهد بالاسلام.

وأسفل سوران (أو صبران) كان نهر سيحون(سرداريا) يجتاز مفازة الترك الغزية، وعلى مسافة فرسخ من النهر نفسه بالقرب من مصبه كانت تقوم مدينة ينيكيث(أي البلدة الجديدة) ويسميها العرب (القرية الحديثة) وقد كانت مشتى لملك الغز وهي الآن أطلال جنكيت الواقعة جنوبي سيردريا على بعد ثلاثة أميال من قلعة امارة خيوة المعروفة باسم جان قلعة.

وقد وقع مصب نهر سرداريا (سيحون) في أيدي المسلمين منذ القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) وذلك على يد سلجوق بينما كانت المنطقة من جند الى فاراب في ذلك القرن من بلاد الكفار ولكن ما أن دخل القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) حتى تحولت هذه المنطقة أيضاً الى الاسلام بينما ظلت سغناق عاصمة القبجاق غير المسلمين الى حين ظهور المغول وهي تقع على بعد أربعة فراسخ من أترار.. وأصبحت سغناق اطلالا بالقرب من محطة بريد تومن - أريق.

وكانت بقية المدن على نهر سيحون (سرداريا) مثل جند وخير أباد ورباط طغانين قد تحولت جميعها الى الاسلام.. وكذلك كانت مدينة

أسبانيكيت التي وصفها ياقوت بقوله: أسبانيكيت مدينة من مدن اسفيجاب بما وراء النهر بينهما مرحلة ينسب إليها ابو نصر زاهر بن حاتم بن رستم الاديب الاسبانيكثي المتوفي سنة ٣٦١ هـ. وأما اسفيجاب نفسها فقد وصفها ياقوت بما يلي (باختصار)..

أسفيجاب:

اسم بلدة كبيرة من أعيان بلاد ما وراء النهر في حدود تركستان (الشرقية) ولها ولاية واسعة وقرى كالمدن كثيرة.. كانت من أعمر بلاد الله وأنزهها وأوسعها خصبا وشجرا ومياها جارية ورياضا مزهرة.. ولم يكن بخراسان ولا بما وراء النهر بلداً لاخراج عليه الا اسفيجاب لأنها كانت ثغراً عظيماً فكانت تعفى من الخراج وذلك ليصرف أهلها خراجها في ثمن السلاح وعلى المجاهدين والمرابطين في هذا الثغر.. وكذلك كانت المدن القريبة منها مثل طراز وصبران وفاراب وسانيكيث.. ثم أتت على تلك النواحي حوادث الدهر وصروف الزمان عندما خربها خوارزم شاه محمد بن تكش عندما خانه بعض أمرائها.. وجاءت الطامة الكبرى بورود التتار عليها سنة ٦١٦ هـ فأهلكوا من بقي من أهلها وحطموا ديارها وقتلوا رجالها ونساءها فلم يبق من تلك الجنان المندرة والقصور المشرفة غير حيطان مهدومة وآثار من أمم معدومة (وقد كان أهل تلك البلاد أهل دين متين وصلاح مبين ونسك وعبادة.. والاسلام فيهم غض يحفظون حدوده ويلتزمون شروطه لم تظهر فيهم بدعة استحقوا بها العذاب والجلاد ولكن يفعل الله بعباده ما يشاء ويحكم ما يريد).

وقد خرج من اسفيجاب طائفة من أهل العلم في كل فن منهم ابو الحسن علي بن منصور المقريء المؤدب الاسفيجابي مات بعد سنة ٣٨٠ هـ.

كما خرج منها جماعة من الفضلاء منهم:

(١) اسماعيل بن حماد الجوهري، المتوفي سنة ٣٩٣ هـ:

وهو من أئمة اللغة العربية، وصاحب كتاب (الصحاح) وله - أيضاً - كتاب في العروض ومقدمة في النحو، سافر من بلدة (فاراب) صغيرا، حتى وصل (العراق) ومنها سافر الى (الحجاز) ثم عاد الى (نيسابور) بخراسان، وبها أقام، واشتهر، وظهرت علومه اللغوية وأخذ عنه جم غفير من العلماء.

كان مهتما بالطيران، وقد صنع لنفسه جناحين من خشب، وصعد الى سطح داره، ونادى في الناس: لقد صنعت ما لم أسبق إليه، وسأطير الساعة، فازدحم عليه أهل نيسابور ينظرون إليه فتأبط جناحيه، وسقط الى الأرض قتيلا..

وكان بذلك أول من حاول الطيران.

(٢) اسحاق الفارابي، المتوفي سنة ٣٥٠ هـ:

وهو أبو ابراهيم اسحاق بن ابراهيم، صاحب (ديوان الأدب) في اللغة، وخال اسماعيل بن حماد الجوهري، وقد انتقل الى اليمن، وأقام بزبيد.

(٣) أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان الفارابي، المتوفي سنة ٣٣٩ هـ:

وهو الفيلسوف، الحكيم، الفلكي، الرياضي، الطبيب، المؤرخ، المشهور، أعظم فلاسفة المسلمين، وأول من نقل كتب (أرسطو) وشرحها، وعلق عليها، وسمي بالمعلم الثاني لأن (أرسطو) كان يدعى المعلم الأول.

انتقل الى (بغداد) من (فاراب) وعاش بها، ثم انتقل الى (دمشق) وبقي بها الى حين وفاته، وكان يجيد اللغات الشرقية المعروفة في عصره، وهي: العربية، والفارسية، والتركية ولغة الهند، كما كان يجيد اللغة اليونانية.

له نحو مائة كتاب، منها:

(النصوص) وهو كتاب في اتفاق آراء (أبقراط) و(أفلاطون).

(احصاء العلوم والتعريف بأغراضها) وهو دائرة معارف علمية.

(شرح كتاب البرهان لأرسطو طاليس).

(آراء أهل المدينة الفاضلة) و(كتاب المدينة الفاضلة) و(المدينة الجاهلة) و(المدينة الفاسقة)، و(المدينة الضالة)، و(المدينة المبدّلة).

(مبادىء الموجودات).

(السياسة المدنية).

(جوامع السياسة).

(النواميس).

(المدخل الى صناعة الموسيقى) وكتاب (الموسيقى الكبير).

(الخطابة).

(ديوان الادب).

(الآداب الملوكية).

(ما ينبغي أن يتقدم الفلسفة).

(شرح كتاب المجسطي لبطليموس).

(كلام في أعضاء الحيوان).

(كلام في الملة والفقه).

(رسالة في قواد الجيوش).

(كلام في المعايش والحروب).

(شرح كتاب الخطابة لأرسطو طاليس).

(شرح كتب الجدل).

(المغالطة والقياس لارسطو طاليس أيضاً).

وله كتب في علم المنطق منها:

(التوطئة في المنطق).
(المختصر الكبير والمختصر الصغير في المنطق (أيضاً).
(كتاب المختصر الأوسط في القياس).

تعلم الفلسفة على يد (يوحنا بن جيلان) وتتلمذ على يد (عبد الله بن محمد بن سلمة المقدسي الفارابي) وسمع الحديث بدمشق من (هشام بن عمار) و(عبد الله بن أحمد بن بشير) و(عباس بن الوليد الخلال) و(أبي محمد بن عبد الرحمن الدمشقي) و(دحيم).

وقد روى عنه الحديث (أبو بكر) و(أبو زرعة) ابنا (أبي دجانة)، (وأبو بكر ابن المقري) وغيرهم.

قال عنه (ابن أبي أصيبعة) في كتابه (عيون الانباء في طبقات الاطباء):

(وكان رحمه الله فيلسوفا، واماما فاضلا، قد أتقن العلوم الحكمية وبرع في العلوم الرياضية، زكي النفس، قوي الذكاء، متجنبا عن الدنيا، مقتنعا منها بما يقوم بأوده يسير سيرة الفلاسفة المتقدمين، وكانت له قوة في صناعة الطب، وعلم الامور الكلية منها، ولم يباشر اعمالها، ولا حاول جزئياتها).

وقد كان (الفارابي) - في أول أمره - ناظرا في بستان في دمشق، فقيرا - يسهر الليل، يقرأ، ويكتب، ويؤلف، على ضوء قنديل حارس البستان، ثم ظهر فضله، وعظم شأنه، واشتهرت تصانيفه، وكثر تلاميذه، واتصل بسيف الدولة، وأكرمه اكراما بالغاً، وسافر (الفارابي) قبيل وفاته بعام (أي عام ٣٣٨) الى مصر، ثم عاد الى دمشق، وتوفي بها سنة ٣٣٩، وصلى عليه سيف الدولة.

ويذكر من فضله وزهده انه لم يكن يتناول شيئا مما ينعم به عليه سيف الدولة، سوى أربعة دراهم، في اليوم، يقتات بها هو وأهله.

وكان - في أول أمره - قاضياً، ثم ترك القضاء، ليتفرغ لعلوم الفلسفة، والرياضة والفلك، وغيرها.

وكان له في علم الموسيقى باع طويل، وهو أول من اخترع القانون، قال عنه (ابن أبي أصيبعة): (ويذكر انه صنع آلة غريبة يستمع منها ألحاناً بديعة يحرك بها الانفعالات). ويقال انه كانت له القدرة على العزف عليها، فيبكي سامعه، ثم يشجيه، ثم ينيمه، ويخرج (الفارابي) وسامعه نائما.

وقد شرح (الفارابي) قصة ظهور الفلسفة (اليونانية) وكيف انتقلت الى الاسكندرية، ثم كيف أخفت الكنيسة كتب (أرسطو) وغيره من فلاسفة الاغريق، وكيف حاربتها حربا شعواء في روما، والاسكندرية، وجميع اراضي الامبراطورية الرومانية، الا شيئاً يسيراً من المنطق، استعانوا به في جدلهم، حتى ظهر الاسلام.

وكانت كتب (أرسطو) مخفية عند رجل، فنسخها منه رجلان، أحدهما من (مرو) والآخر من (حران) فأما الذي من (مرو) فتعلم منه (ابراهيم المروزي) و(يوحنا بن جيلان) وأما (الحراني فتعلم منه (قويري) وقام (قويري) بنشر كتب (أرسطو) وتعليمها، وكذلك فعل (ابراهيم المروزي و(يوحنا بن جيلان) وتعلم (أبو نصر الفارابي) من (يوحنا بن جيلان) ثم أتم كتب الفلاسفة قراءة، دون معلم، وكانت قراءته، على (يوحنا) في بغداد، أيام المقتدر.

وصار (الفارابي) أشهر من شرح كتب الفلسفة اليونانية في التاريخ، وبخاصة كتب (أرسطو) ولقب بالمعلم الثاني، لأن (أرسطو) كان يحمل لقب المعلم الأول. ولم يكتف الفارابي بذلك، بل أضاف الى مختلف العلوم اضافات جديدة، وهو أول من أوضح علم المنطق بعبارة سهلة، وأول

من وضع موسوعة علمية وافية، وأسماها (احصاء العلوم والتعريف بأغراضها).

قال عنه (ابن أبي أصيبعة): (ثم له - بعد ذلك - كتاب شريف في احصاء العلوم والتعريف بأغراضها، لم يسبق إليه، ولا ذهب أحد مذهبه فيه، لا يستغني طلاب العلوم كلها عن الاهتداء به، وتقديم النظر فيه).

(وله كتاب في اغراض فلسفة أفلاطون وأرسطوطاليس) يشهد له بالبراعة، في صناعة الفلسفة والتحقيق بفنون الحكمة، وهو أكبر عون على تعلم طريق النظر).

ويقول (ابن أبي أصيبعة) (ولا أعلم كتابا أجدى على طالب الفلسفة منه).

وقد استفاد (ابن سينا) من كتب (الفارابي) فائدة عظيمة، وقال انه استغلق عليه فهم الالهيات من كتب الفلسفة، حتى عثر على كتاب (الفارابي) في العلم الالهي، فحل له اشكالها وأبان غامضها، وقرأ (ابن سينا) كتب (الفارابي) في الفلسفة، وعليها تتلمذ.

(وللفارابي) دعاء وابتهال أورده (ابن أبي أصيبعة) وسننقله عنه، لأنه يوضح مذهب الفارابي، وايمانه بالله، على طريقة (الفلاسفة) المسلمين، الذين خلطوا العقيدة الاسلامية ببعض (آراء أرسطو) و(أفلاطون) و(أفلوطين) التي لا تناقض العقيدة مناقضة ظاهرة، وإليك هذا الدعاء البليغ العجيب:

(اللهم إني أسألك يا واجب الوجود (وهو تعبير فلسفي شاع عند المسلمين بعد أن أدخله الفارابي) وياعلة العلل قديماً لم يزل، أن تعصمني من الزلل، وأن تجعل لي من الأمل ما ترضاه لي من عمل، اللهم امنحني ما اجتمع من المناقب، وارزقني في أموري حسن

العواقب، نجح مقاصدي والمطالب، يا اله المشارق والمغارب، رب الجوار الكنس السبع التي انبجست عن الكون انبجاس الأبهر، هن الفواعل عن مشيئته، التي عمت فضائلها جميع الجوهر (وهو اعتقاد قديم بأن الكواكب السبعة هي التي خلقت عن العقل الفعال، وهي التي تدبر هذا الكون وهو اعتقاد باطل دينياً وعلمياً) أصبحت أرجو الخير منك، وامتري زحلا ونفس عطارد والمشتري (وهو عود الى القول السابق في اعتقاد هذه الأجرام السماوية، وانها فاعلة مدبرة للكون وأهله وذلك لا شك نوع من الشرك، وعبادة الكواكب التي لا يقرها الاسلام مطلقاً، وهو كلام ناتج عن فلسفة أفلاطون وأرسطوطاليس وأفلوطين وإن كان الفارابي يجعل فعلها عن مشيئته تعالى).

اللهم ألبسني حلل البهاء، وكرامات الأنبياء، وسعادة الاغنياء، وعلوم الحكماء، وخشوع الاتقياء، اللهم أنقذني من عالم الشقاء، والفناء، واجعلني من أخوان الصفاء، وأصحاب الوفاء، وسكان السماء مع الصديقين والشهداء، أنت الله لا اله الا أنت يا علة الأشياء، ونور الأرض والسماء، امنحني فيضاً من العقل الفعال يا ذا الجلال والأفضال. (وهذه فلسفة أفلاطون وأرسطو وأفلوطين التي تقول بأن الله خرج منه العقل الفعال، ومن العقل الفعال ظهرت الكواكب السبعة السيارة، ومن الأجرام السبعة ظهرت بقية الأجرام السماوية ومنها ظهرت الأرض والمخلوقات، حسب نظرية الفيض المتسلسلة عبر عشر مراحل التي جاء بها أفلوطين.)

هذب نفسي بانوار الحكمة، وأوزعني شكر ما أوليتني من نعمة، أرني الحق حقاً، وألهمني اتباعه، والباطل باطلاً، واحرمني اعتقاده، هذب نفسي من طينة الهيولى (يعود الفارابي لتعبيرات أرسطوطاليس) إنك أنت العلة الأولى:

يا علة الأشياء جمعا والذي
كانت به عن فيضه المتفجر
رب السموات الطباق ومركز
في وسطهن من الثرى والابحر
اني دعوتك مستجيراً مذنباً
فاغفر خطيئة مذنب ومقصر
هذب بفيض منك رب الكل من
كدر الطبيعة والعناصر عنصري

ويستمر (الفارابي) في دعائه العجيب البليغ، الذي يخلط فيه دعوات الرسول ﷺ مع تعبيرات الفلسفة اليونانية الالهية، مما يدل على عمق تأثره بها تأثرٍ عن فهم عميق، وادراك لأسرارها، مع خلطها بما قد يصادم العقيدة الاسلامية، مصادمة واضحة أحياناً.

ولم ينج (الفارابي) من بعض التعبيرات التي أشرنا اليها، وبخاصة في اعتقاده أن الكواكب السيارة هي المدبرة للكون، الفاعلة له، وإن كانت أنما تفعل ذلك، لأنها من فيض العقل الفعال، الذي هو من فيض الله.

ويستمر (الفارابي) في دعائه الذي يظهر فيه خشوعه، وتبتله، كما يظهر فيه سعة علمه سعة واسعة بعلوم زمانه، مع بلاغته وقوة أسلوبه:

(اللهم رب الأشخاص العلوية، والأجرام الفلكية، والأرواح السماوية، غلبت على عبدك الشهوة البشرية، وحب الشهوات، والدنيا الدنية، فإجعل عصمتك مجنّي من التخليط، وتقواك حصني من التفريط، انك بكل شيء محيط، اللهم أنقذني من أسر الطبائع الأربع، وانقلني الى جنابك الأوسع وجوارك الأرفع.

« اللهم إنك قد سجنت نفسي في سجن من العناصر الأربعة، ووكلت

بافتراسها سباعاً من الشهوات اللهم جد لها بالعصمة، وتعطف عليها بالرحمة، التي هي بك أليق، وبالكرم الفائض، الذي هو منك أجدر وأخلق، وأمنن عليها بالتوبة العائدة بها الى عالمها السماوي، وعجل لها بالأوبة الى مقامها القدسي، وأطلع على ظلمائها شمساً من العقل الفعال، وأمط عنها ظلمات الجهل والضلال، واجعل ما في قواها بالقوة كامناً بالفعل، وأخرجها من ظلمات الجهل الى نور الحكمة وضياء العقل» الخ الخ...

والطبائع الأربعة هي: الحرارة، والبرودة، والرطوبة، واليبوسة، وحسب النظرية اليونانية الفلسفية لخلق الأشياء اتصلت البرودة بالرطوبة، فنتج عنها الماء، واتصلت الحرارة باليبوسة، فنتج عنها النار، وحصل تضاد بين الماء والنار، فظهر الهواء، بسبب تضاد الماء والنار، وتحرك الهواء على الماء، فأوجد زبداً، فجمد الزبد، فأصبح الأرض أو التراب.

وفي جسم الانسان تمثيل لهذه العناصر الأربعة، ويقابلها الأمزجة الأربعة، وهي: الصفراء وتفرز من الكبد، وهي سكن الحرارة. والسوداء، وتفرز من الطحال، وهي سكن اليبوسة. والدم، وهو سكن الرطوبة. والبلغم، وهو سكن البرودة. فإذا اعتدلت هذه العناصر الأربعة في الجسم، بحيث لا يطغى بعضها على بعض، فهي الصحة واذا زاد أحدها أو نقص فهو المرض. وعن هذه الأمزجة تبدو أمزجة الناس، فهذا سوداوي المزاج لزيادة المرة السوداء، وهذا صفراوي المزاج، لزيادة افراز الصفراء، وذلك دموي، نتيجة زيادة الدم فيه، وهذا الشخص بلغمي، بسبب زيادة افراز المادة البلغمية، وهكذا.

ونجد تأثير هذه الفلسفة اليونانية قوياً جداً، لدى جميع الكتاب

المسلمين، وبخاصة لدى الفلاسفة والأطباء منهم، وحتى أولئك الفقهاء والمحدثين، فإنهم تأثروا بهذه النظرة وبخاصة من كتب منهم في الطب النبوي، من أمثال ابن القيم، والسيوطي، والذهبي، وابن السنى، وأبي نعيم الأصبهاني، والموفق عبد اللطيف البغدادي، وغيرهم كثر.

ومما تقدم مما ذكرناه من دعاء (الفارابي) وابتهالاته الى الله سبحانه وتعالى ندرك مدى تأثير الفلسفة (اليونانية) الالهية المتمثلة في فلسفة (افلاطون) و(أرسطوطاليس) (أرسطو اختصاراً) و(أفلوطين).

ونجد نظرية الفيض الالهي في خلق الأكوان تجد صداها، لدى فلاسفة المسلمين وأطبائهم من أمثال: أبي بكر الرازي، وابن سيناء، ولا شك يعود سبب ذلك الى جهود (الفارابي) في نشر الفلسفة (اليونانية الالهية).

وعلى الرغم من أن أبا بكر الرازي (الطبيب الفيلسوف (وهو غير الفخر الرازي المفسر الأصولي الفقيه الطبيب المشهور) قد عاصر (أبا نصر الفارابي) بل هو متقدم عليه في الميلاد اذ ولد ٢٥٠ هـ (أي قبل الفارابي بعشر سنوات) وتوفي ٣١٣ هـ، أي قبل (الفارابي) بست وعشرين سنة، فإننا لا نستطيع أن نقول أن الفارابي قد تأثر بأبي بكر الرازي، الذي اهتم أيضاً بالفلسفة (اليونانية) وألف فيها الكتب.

ويبدو من تاريخ حياة هذين الطودين الشامخين أن (الرازي) كان مهتماً بالطب، وبرع فيه أكثر من اهتمامه بالفلسفة، كما أن (الفارابي) اهتم بالفلسفة أساساً، وكان اهتمامه بالطب عرضاً بسبب اهتمامه بالفلسفة، ولم يمارس الطب في حياته قط.

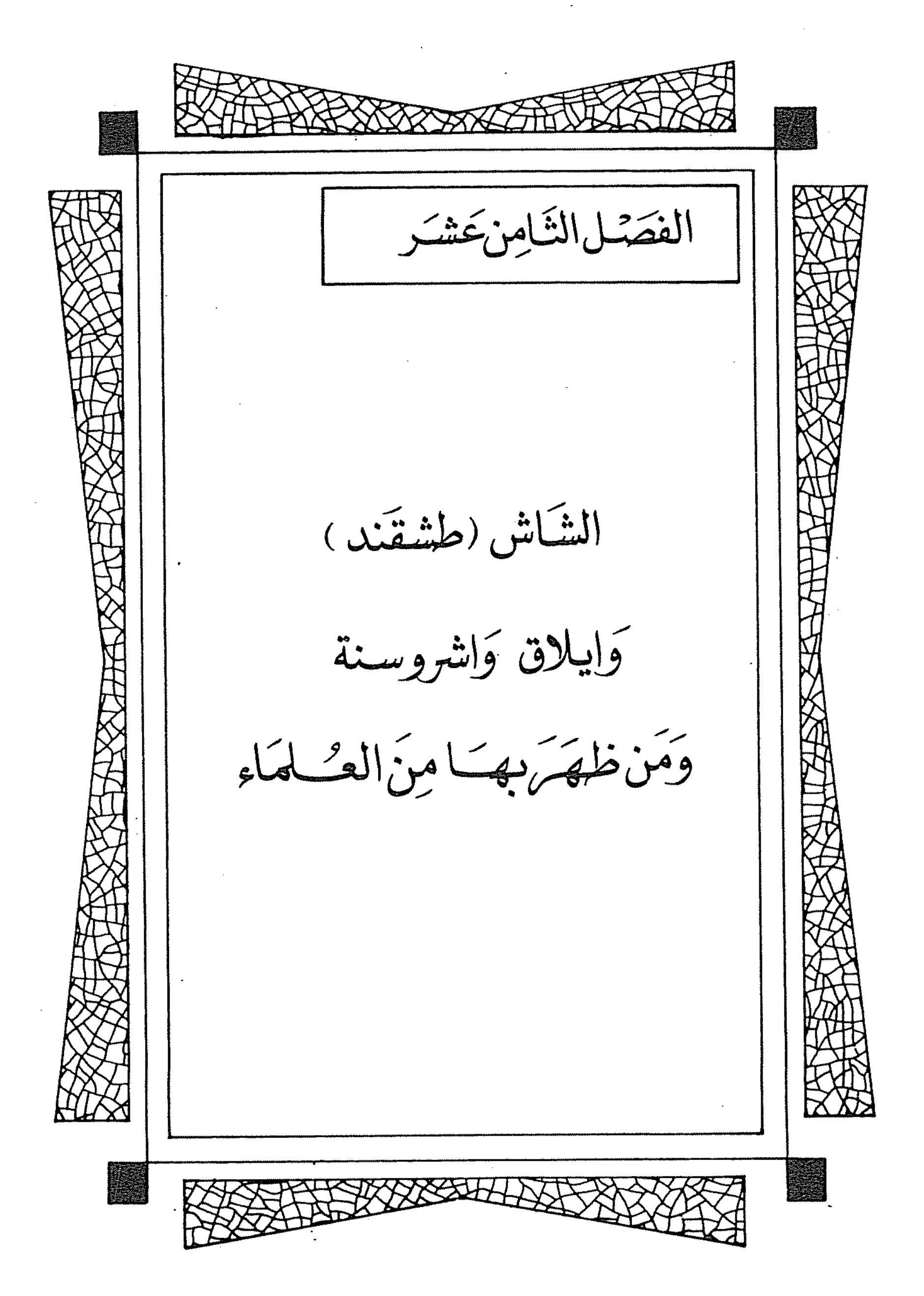
ومع هذا نجد جوانب مشتركة بينهما اذ أننا نجد في رسالة صغيرة لأبي بكر الرازي سماها (المدخل الصغير الى علم الطب) نظرية الفيض الالهي، كما وضعها (أفلوطين) وهو نفس ما يقول به (الفارابي) أيضاً،

وأن كان (الفارابي) بطبيعة الحال - أكثر توسعاً في شرح الفلسفة اليونانية الالهية، وتقديمها الى المثقف المسلم، بأسلوب سهل، بعد أن كانت عسيرة الفهم، صعبة العبارة، لا يقبل عليها الا الآحاد.

بل أن فلسفة (أفلوطين) و(أرسطو) بالذات لم تنتقل الى الثقافة الاسلامية، ومن ثم الى الثقافة الأوروبية، الا عبر ترجمات (الفارابي) وشروحه العديدة لها.

وقد رأينا كيف حرمت الكنيسة قراءة كتب الفلسفة اليونانية، ما عدا فصول محدودة من علم المنطق، ولم تستطع أوروبا أن تصل الى الفلسفة الاغريقية، الا عبر ترجمات (الفارابي) وشروحه وتعليقاته العديدة، واضافاته الغزيرة.

وهكذا نرى (الفارابي) طوداً شامخاً في مختلف العلوم العقلية الفلسفية، وتتلمذ عليه، وعلى كتبه، أجيال عديدة من مثقفي المسلمين، ومثقفي أوروبا، وبرع هذا العلم الشامخ في مختلف فروع المعرفة، وألف فيها، حتى بلغت كتبه أكثر من مائة كتاب، في الفلسفة، والسياسة، وعلوم الأحياء، والموسيقى، والرياضيات، والمنطق، والخطابة، والأدب، والتاريخ، وقيادة الجيوش، والفقة، وقد سمع الحديث من أئمة الحديث في عصره، وسمع منه، وروى عنه جماعة من المحدثين، كما يرويه عنه (ياقوت الحموي) في (معجم البلدان) وياله من طود شامخ في مختلف فروع العلم والمعرفة...



الفصل الثامن عشر

الشاش (طشقند)
وايلاق واشروسنة
ومن ظهر بها من العلماء

يعد اقليم (الشاش) أحد اقاليم ما وراء النهر الستة، حسب التقسيم الجغرافي القديم وتقع اليوم - في جمهورية (أوزبكستان) بالاتحاد السوفيتي، وعاصمة هذا الاقليم كانت تدعى (بنكث) وتدعى - اليوم - طشقند، و(طشقند) عاصمة (أوزبكستان) وقد اهتم الروس بها منذ ان استولوا على خانية بخارى عام ١٩٢٢م، وكانت (طشقند) تتبعها، واهملوا (بخارى) (وسمرقند) لأنها اكثر استعصاء على الاذابة.

وقد وصف ياقوت الحموي في (معجم البلدان) اقليم (الشاش) ونحن ننقل وصفه - هنا - بشيء من الاختصار:

(الشاش) اقليم ما وراء النهرين (جيحون) (وسيحون)، خرج منها خلق من العلماء والرواة والفصحاء، اهلها شافعية على الرغم من انتشار المذهب الحنفي في معظم بلاد ما وراء النهر ويرجع ذلك الى أبي بكر محمد بن اسماعيل القفال الشاشي، الذي فارقها، وتفقه، ثم عاد اليها، ونشر بها مذهب الشافعي.

وصفها (الاصطخري) بقوله: فأما (الشاش) و(ايلاق) فمتصلتا العمل، لا فرق بينهما: ومقدار عرض الشاش مسيرة يومين في ثلاثة، وليس بخراسان وما وراء النهر اقليم على مقداره من المساحة أكثر منابر منها، ولا أوفر قرى وعمارة، فحد منها ينتهي الى وادي (الشاش) الذي يقع في بحيرة (خوارزم) وحد الى باب الحديد ببرية، بينها وبين (اسفيجاب) تعرف بقلاص، وهي مراع، وحد آخر الى تنكرة تعرف بقرية النصارى، وحد الى جبال منسوبة الى عمل (الشاش) الا أن العمارة متصلة الى الجبل وما فيه مفترش العمارة.

و(الشاش) في أرض سهلة ليس في هذه العمارة المتصلة جبل ولا

أرض مرتفعة، وهي أكبر ثغر في وجه الترك (المقصود التركستان الشرقية قبل اسلامها) وأبنيتهم واسعة من طين وعامة دورهم يجري فيها الماء، وهي كلها مستترة بالخضرة، من أنزه بلاد ما وراء النهر قصبتها (عاصمتها) (بنكث) (طشقند) ولها مدن كثيرة وصفها (أبو الربيع البلخي) قائلا:

(الشاش) بـالصيـف جَنـة، ومن أذى الحر جُنَّـة
لكنني يعـتريني بهـا من البرد جِنـة

وقـال (البشاري) (الشاش) كورة (اقلـيم أو مقـاطعـة) وقصبتهـا (بنكث).

واقليم الشاش مرتبط بأقليم ايلاق اوثق ارتباط حتى قال عنها ياقوت (وكورته مختلطة بكورة الشاش لا فرق بينهما). ويقول بازتولد[١] وايلاق هي وادي أنجرين والشاش هي وادي نهر باراك المعروف باسم جرجيق.. ولهذا النهر منبعان يخرج احدهما من جبال بسكام ويخرج الآخر من رستاق جدغل...

وبالقرب من نهر انجزين تقوم مدينة بناكث وبالقرب من فم نهر جرجيق تقوم مدينة نجاكث والمسافة التي تفصل بين هاتين المدينتين ثلاثة فراسخ فقط...

ويقول المقدسي ان بناكث لم يكن بها حصن وكان جامعها في السوق وقد خربها المغول في هجومهم المدمر فيما دمروا من مدن العالم الاسلامي ولكن تيمورلنك اعاد بناءها وأسماها شاهرخيه تكريما لابنه القائد المغوار (شاهرخ) ولا تزال اطلال شاهرخيه (كما يقول بارتولد) ماثلة على الضفة الشرقية لنهر سرداريا (سيحون) عند فم وادي جيشجن. وأسفل هذا الموضع تقوم أطلال مدينة بناكث القديمة.

---

(١) كتاب تركستان من الفتح العربي الى الغزو المغولي.

ويصف بارتولد عاصمة اقليم الشاش وهي بنكث (أو طشقند الحالية حسب أحسن التخمينات) فيقول: كان يحيط بمدينة بنكث سوران داخلي وخارجي وللسور الخارجي سبعة أبواب وللسور الداخلي عشرة ابواب وكان للشهرستان (المدينة الداخلة) ثلاثة ابواب تدعى باب ابي العباس وباب الجنيد وباب كش.. وللقلعة (القهندز) بابان أحدهما يفتح على الشهرستان والآخر على الربض (الضاحية).. وكان طول البلد فرسخ وعرضها فرسخ.. وكانت المدينة واطرافها تزخر بالبساتين والرياض.

ويشتهر اقليم الشاش واقليم ايلاق بمعادنه الكثيرة وخاصة معدن الفضة... وكان منجم الفضة على بعد مرحلة من بنكث (طشقند الحالية).. وكانت فضة الشاش تستخدم في السكة (النقود) طوال العصر العباسي..

ويذكر ياقوت عن أسبره أنها ناحية بأقصى بلاد الشاش بما وراء النهر..وانها بلاد يخرج منها النفط والفيروز والحديد والصفر[1] والذهب والآنك[2]..وفيها جبال الفحم الذي كان يباع الحمل والحملان منهبدرهم واحد فقط.. وكان لهذا الفحم خاصية عجيبة اذ انه بعد احتراقه يتحول الى رماد شديد البياض فيستعمل رماده في تبييض الثياب ويتعجب ياقوت من ذلك قائلا (ولا يعرف في بلدان الارض مثل هذا).

أما قصبة ايلاق فهي مدينة تونكث التي صعب على الباحثين من امثال بارتولد (تحديد موقعها) وكانت الأرض المزروعة الواقعة على نهر جرجيق يطوقها من ناحية الشمال حائط يمتد من جبال سبالك الى وادي سرداريا (سيحون) وقد بني هذا الحائط لحماية المنطقة من غارات بدو الترك وذلك قبل اسلامهم وقبل فتح السامانيين لاسفيجاب أي قبل عام

(١) الصفر هو النحاس.
(٢) الآنك هو الرصاص.

٢٢٦ هـ (٨٤٠ م).. وينسب ابن حوقل بناء هذا الحائط الضخم الى عبد الله بن حميد الذي تولى أمر خراسان سنة ١٤٩ هـ (٧٦٦ م) بعد وفاة أبيه عامل خراسان.. ولا تزال بقايا هذا الحائط ماثلة الى حين زيارة بارتولد لها (في بداية القرن العشرين) على شكل حاجز يسميه الاهالي كمبير دوال أي الحائط العجوز (ويا لها من تسمية تدل على عمره الذي يزيد عن ١٢٠٠ عام) ويبلغ طول بقايا هذا الحائط المكتشف ٢٤ ميلا مما يدل على أن طول هذا الحائط كان كبيرا جدا[١]. وقد كان هذا الحائط يصل الى شط نهر جرجيق على بعد فرسخين فوق بنكث (طشقند).

وعلى النقيض من اشروسنة كان عدد مدن الشاش وايلاق كبيرا للغاية فيذكر الاصطخري ٢٧ مدينة بالشاش بينما يذكر المقدسي ٣٤ مدينة.. ويذكر الاصطخري أسماء أربعة عشر مدينة بايلاق بينما يعد المقدسي اسماء سبعة عشر مدينة[٢]..

وقد وصف ياقوت ايلاق بما يلي:

ايلاق: مدينة من بلاد الشاش المتصلة ببلاد الترك (المقصود التركستان الشرقية قبل اسلامها) على عشر فراسخ من مدينة الشاش، انزه بلاد الله وأحسنها.

وهو عمل برأسه.. وكورته مختلطة بكورة الشاش لا فرق بينهما.. وقصبتها تونكث وبايلاق معدن الذهب والفضة في جبالها ويتصل هذا الجبل بحدود فرغانة وقد نسب اليها قوم منهم:

(١) **أبو الربيع طاهر بن عبد الله الايلاقي**: كان اماما تفقه على ابي بكر عبد الله بن أحمد القفال المروزي وأخذ الاصول عن ابي اسحاق الاسفرائيني، مات سنة ٤٦٥ هـ (٩٧٥ م) وله ست وتسعون سنة.

---

(١) انظر بارتولد كتاب تركستان من الفتح العربي الى الغزو المغولي.

(٢) المصدر السابق.

(٢) **ابو عبد الله محمد بن داود بن أحمد الايلاقي**: الخطيب: من ايلاق، اقام بمرو مدة وأخذ عن الحسن بن مسعود الفراء ثم انتقل الى نيسابور وسكنها وأخذ علم (الخلاف) في اقوال الفقهاء عن محمد بن يحيى الجيزي.

كان ابو عبد الله فقيها صالحا سمع الحديث الكثير من الفراوي وعبد المنعم القشيري وزاهر الشحامي وطبقتهم ثم قدم مرو وأقام في المدرسة العميدية الى أن مات سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٣ م).

أما (أشروسنة) فيصفها ياقوت بما يلي:

أشروسنة (بالضم ثم السكون وضم الراء وواو ساكنة وسين مهملة مفتوحة ونون وهاء).

أشروسنة بلدة كبيرة بما وراء النهر من بلاد الهياطلة بين سيحون وسمرقند بينها وبين سمرقند ١٦ فرسخا..

قال الاصطخري: أشروسنة اسم الاقليم وليس بها مكان ولا مدينة بهذا الاسم والغالب عليها الجبال تقع شرقها فرغانة وغربها سمرقند وجنوبها حدود كش والصغانيان وشومان وواشجرد وراشت.

عاصمتها بنجيكث ومن مدنها ساباط وزامين وديزك وخرقانة ينسب الى اشروسنة عدد من أهل العلم منهم **ابو طلحة حكيم بن نصر بن جندبك الاشروسني**.

ويقول بارتولد أن كبرى مدن أشروسنة هي (بنجيكث كما يذكرها ياقوت) وانها الآن أطلال تقع على بعد ستة عشر ميلا الى الجنوب الغربي من أوراتبة.

أما ثاني مدن أشروسنة فهي زامين التي تقع على ضفتي نهر يخرج من الجبال القريبة ولم يكن لها سور كعادة المدن القديمة، بل كانت الاسواق

على ضفتي النهر وتصل بينهما جسور صغار.. وهي لا تزال باقية باسم سرسندة كما يقول بارتولد...

واما جيزك أو ديزك فتعتبر ثالث مدن اشروسنة.. وكانت تقع في السهل في رستاق فكنان واشتهرت بأنها أحد اهم مراكز المجاهدين المعروفين بالمطوعة لأنها كانت على حدود بلاد الكفار من القبائل التركية الشرقية الذين لم يكونوا قد دخلوا في الاسلام بعد. وكان بها عدد كبير من الاربطة والخانات المخصصة لهؤلاء المجاهدين.. ومن أشهر هذه الاربطة رباط خدايسر الذي بناه الأفشين قائد المعتصم السلجوقي...

ومن اعلام (الشاش) الإمام أبو بكر محمد بن علي بن اسماعيل القفال (الكبير) الشاشي: ولد ٢٩١ هـ (٩٠٤ م) بالشاش، وطلب العلم، بعد أن اشتغل فترة بصنع الأقفال، وارتحل كما يفعل طلبة العلم - في ذلك العصر - الى (خراسان) و (العراق) ثم عاد بعد أن أصبح علما في الفقه الشافعي والتفسير واللغة والحديث - سمع الحديث من أبي عروبة، وابي بكر بن خزيمة ومحمد بن جرير الطبري، وابي بكر الباغندي، وابي بكر بن دريد، وروى عنه الحاكم، وابو عبد الرحمن السلمي.

له عدة تصانيف: منها (أصول الفقه) (ومحاسن الشريعة) و (شرح رسالة الشافعي) وتوفي سنة ٣٦٥ هـ (٩٧٥ م) «وأدب القضاة».

ومن اعلامها الامام أبو بكر محمد بن أحمد بن الحسين الشاشي القفال، الملقب بفخر الاسلام:

ولد بقرية (ميافرقين) من اعمال الشاش سنة ٤٢٩ هـ (١٠٢٧ م) ورحل - كعادة طلبة العلم الى (خراسان) و (العراق) وطهر ونبغ في (بغداد) وتولى التدريس في المدرسة النظامية أشهر جامعات العالم في ذلك الزمان، وصارت اليه رياسة الشافعية ببغداد والعراق.

له عدة كتب، منها: (حلية العلماء في معرفة مذاهب الفقهاء)

و(المعتمد) و(الشافي شرح مختصر المزني و(الطلاق). والشافي شرح كتاب الشامل لشيخه ابي نصر بن الصباغ شرحه في عشرين مجلداً.

وتوفي ببغداد سنة ٥٠٧ هـ (١١١٤ م) بعد أن نشر العلم، تدريسا، وتعليماً، وكتابة وخطابة. ودفن الى جانب شيخه ابي إسحاق الشيرازي صاحب التنبيه والمهذب.

ولعل القارىء يلاحظ تكرار لقب القفال في علماء الاسلام، وبخاصة علماء بلاد ما وراء النهر، و(القفال) لقب (صنعة الأقفال) ونتيجة لهذه الجامعات المفتوحة في المساجد تحول هؤلاء الصناع المهرة من صنع الأقفال الى صنع الرجال، ومن التفنن في طَرْق الحديد الى التفنن في طُرِق الحديث، والفقه، واللغة، والتفسير.

وقد مر بنا ذكر الامامين: ابي بكر محمد بن علي بن اسماعيل القفال، ومحمد بن أحمد بن الحسين القفال، وكلاهما من (الشاش) وسيأتي:

أبو بكر عبد الرحمن بن أحمد القفال المروزي، المشهور بالقفال الصغير، تمييزا له عن القفال الكبير. وهو محمد بن علي بن اسماعيل، وقد اشتغل بصنع الأقفال، حتى بلغ عمره أربعين سنة، ثم طلب العلم، وصار فيه علما اربعين سنة اخرى، وتوفي سنة ٤١٧ هـ (١٠٢٦ م) في مصر، ودفن عند قبر الإمام الشافعي، وكان علما من أعلام الشافعية في العراق، ثم في مصر.

ومن أعلام الشاش ابو الحسن علي بن الحاجب الشاشي:

وهو أحد العلماء الأعلام في الحديث والفقه، طلب العلم في خراسان والعراق والشام والحجاز، ثم عاد الى بلاده الشاش يعلم الناس، وكانت وفاته بها.

ومن اعلامها أبو يعقوب اسحاق بن ابراهيم الشاشي:

كان يعد فقيه الحنفية في زمانه، ولد بالشاش، ونشأ بها، ثم ارتحل لطلب العلم، وسكن مصر، وتولى بها القضاء، وله كتاب (أصول الفقه)

المشهور باسم (أصول الشاشي) وكانت وفاته بمصر سنة ٣٢٥ هـ (٩٣٧ م).

ومن أعلام الشاش أحمد بن محمد بن احمد الشاشي: وهو ابن فخر الاسلام محمد بن أحمد بن الحسين الشاشي المتقدم ذكره. وكان أحمد قد افتى في حياة والده وحدّث. وبلغ مكانة عالية في العلوم الشرعية وإن لم يصل الى مكانة والده توفي سنة ٥٢٩ هـ (١١٣٤ م).

ومنهم: أحمد بن عبد الله بن محمد الشاشي: وهو حفيد فخر الاسلام المتقدم ذكره تفقه على ابن الخل شارح كتاب «التنبيه» للشيرازي، وكانت وفاته سنة ٥٧٦ هـ (١١٨٠ م).

ومنهم: عمر بن احمد بن الحسين الشاشي: أخو الإمام فخر الاسلام المتقدم ذكره. وتتلمذ على يد الشيخ ابي اسحاق الشيرازي وكانت وفاته سنة ٥٥٠ هـ (١١٥٥ م).

ومنهم: عبد الله بن محمد ابن أحمد الشاشي: والد أحمد بن عبد الله الشاشي.. وهو أيضاً ابن فخر الاسلام الشاشي. ولد سنة ٤٨١ هـ (١٠٨٨ م) وتوفي سنة ٥٢٨ هـ (١١٣٣ م). ودفن في بغداد الى جانب والده الفخر الشاشي.

ومنهم: عمر بن محمد بن موسى الشاشي: ولد سنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م) وتفقه بمرو على الإمام ابي فضل اليمني وسمع بها الحديث من علمائها وتنقل في البلاد طلباً للعلم. ومات بقاشان سنة ٥٢٧ هـ (١١٣٢ م).

ومنهم: محمد بن علي بن حامد الشاشي: شيخ الشافعية في عصره. تفقه على الإمام أبي بكر السنجي في الشاش ثم استوطن غزنه (في أفغانستان) وصنف تصانيف كثيرة وظهر بها علمه وفضله ثم استدعاه نظام الملك الى هراة (في أفغانستان أيضاً). كان مولده سنة ٣٩٧ هـ (١٠٠٦ م) ووفاته سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م).

ومنهم: ابو عبد الله محمد بن عمر بن محمد الشاشي: كان فقيها عالما تفقه على الامام البغوي وحدّث عنه وكانت وفاته سنة ٥٥٦ هـ (١١٦٠ م).

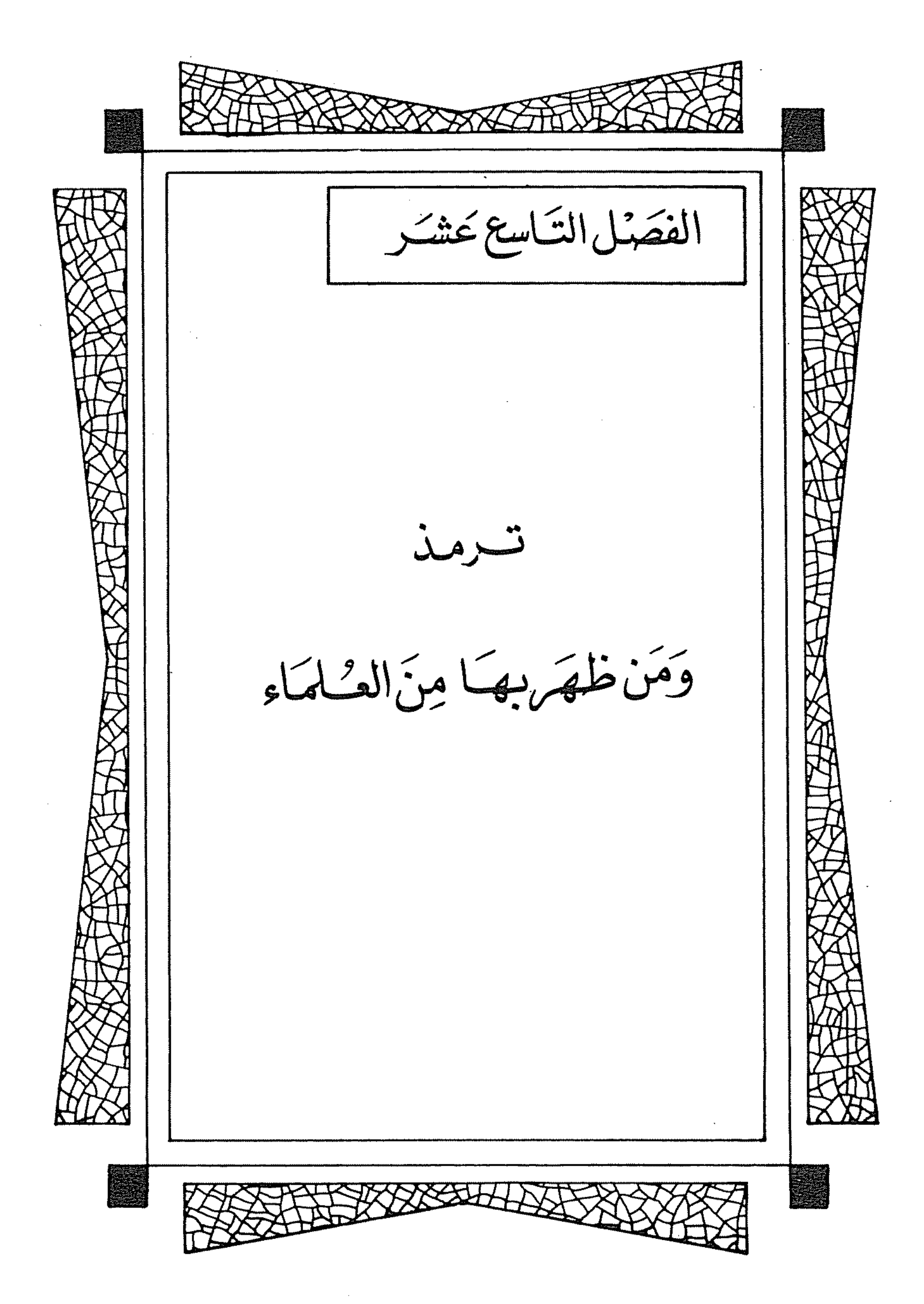
ومنهم: أبو الليث نصر بن حاتم بن بكر الشاشي: من أوائل أصحاب ابن سريج. من تلاميذه الامام أبي بكر محمد بن علي الشاشي (القفال الكبير) ومنهم الحاكم الذي قال: كتبنا عنه سنة ٣٣٩ هـ (٩٥٠ م).

ومنهم: المؤمل بن مسرور الشاشي: اشتهر بالعبادة والمجاهدة وكانت وفاته في مرو سنة ٥١٧ هـ (١١٢٣ م).

ومنهم: القاسم بن محمد بن علي الشاشي: ابن الإمام القفال الشاشي الكبير وله كتاب التقريب.

ومنهم: عبد الجبار بن محمد بن ثابت الشاشي الخرقي: كان فقيها فاضلا عالماً بالحساب وتوفي بمرو سنة ٥٥٣ هـ (١١٥٨ م).

ومنهم: محمد بن اسماعيل بن عبيد الله بن ودعة القفال: كان حسن المعرفة بالمذهب والخلاف وعلم الكلام والجدل وكانت وفاته في دمشق سنة ٥٨٥ هـ (١١٨٩ م).



الفصل التاسع عشر

ترمذ

ومن ظهر بها من العلماء

تضبط ترمذ بكسر التاء والميم، وهو المستفيض على الألسنة، كما ذكره الحافظ الذهبي وياقوت في معجم البلدان، وبعضهم يجعلها بالفتح وبعضهم بالضم. تقع (ترمذ) على نهر جيحون الأعلى ويدعى - أيضاً - (أموداريا) ويشكل نهر جيحون الحدود بين جمهورية أوزبكستان وجمهورية تركمنستان وكلاهما واقع - اليوم - تحت الاستعمار الشيوعي الروسي فيما يسمى بالاتحاد السوفيتي، وترمذ - الان - مدينة صغيرة لا تذكر حتى على الخرائط واقعة في الحدود الغربية لجمهورية (أوزبكستان).

وقد كانت (ترمذ) مدينة عظيمة زاخرة بمدارسها ومعاهدها وأسواقها، وصفها ياقوت في معجم البلدان بقوله: (ترمذ مدينة مشهورة من أمهات المدن، راكبة على نهر جيحون، من جانبه الشرقي، متصلة العمل بالصغانيان. (وهي ولاية عظيمة في بلاد ما وراء النهر، متصلة الأعمال بترمذ، كان أول من فتحها الصحابي الحكم بن عمرو الغفاري، وذلك سنة ٤٦ هـ) ولها قهندز (القهندز لفظة فارسية تعني القلعة العتيقة وأصبحت علماً على قلاع المدن) وربض يحيط به سور، وأسواقها مفروشة بالآجر ولهم شرب يجري من الصغانيان، لأن جيحون يستقل عن شرب قراهم).

وها هي اليوم - مدينة مجهولة، بعد أن دنستها اقدام المستعمرين الروس، وقد كانت البوذية سائدة في ترمذ حتى اشرق عليها نور الإسلام عندما فتحها موسى بن عبد الله بن خازم سنة ٧٠ هـ (٦٨٩ م) واستقل بها موسى بن عبد الله عن حكم الدولة الاموية، ولكن ما لبث

عثمان بن مسعود أن أخضعها لسيادة الدولة الاموية وذلك سنة ٨٥ هـ (٧٠٤ م) عندما أرسله المفضل بن المهلب بن أبي صفرة لاستعادتها من موسى بن عبد الله بن خازم.

وكما هو معروف فإن المهلب ابن ابي صفرة وأبناءه يعتبرون من أقدر قواد الدولة الأموية وهم الذين مهدوا لها في العراقين عراق العرب وعراق العجم وفي فارس وخراسان وما وراء النهر وقمعوا كل فتنة وخاصة الخوارج الذين كثر خروجهم في دولة بني أمية.. وتعرف الجزيرة القريبة من ترمذ باسم جزيرة عثمان بن مسعود وهي تعرف الآن باسم جزيرة آرال بيغمير أي جزيرة الرسول وهي الجزيرة التي نزل بها عثمان بن مسعود في ١٥ ألف مقاتل لحصار ترمذ التي استقل بها موسى بن عبد الله عن الخلافة الأموية. وكانت ترمذ مرسىً هاماً على نهر جيحون (أموداريا) الذي ينبع من جبال بامير ويسير على الحدود بين افغانستان والاتحاد السوفيتي (جمهورية طادجكستان وأوزبكستان ثم تركمنستان) ثم يجري هذا النهر الهام بين تركمنستان وأوزبكستان حتى يصب في بحيرة خوارزم التي تعرف الآن باسم بحيرة آرال.

وقد كانت ترمذ تشتهر بصناعة السفن وصناعة الصابون.. وكانت تنافس بلخ في ذلك. وشاطرت ترمذ بلاد ما وراء النهر وخراسان تاريخها السياسي فكانت تابعة لعامل خراسان في عهد بني أمية ثم في عهد بني العباس.. ثم تبعت حكم آل سامان الذين حكموا بخارى وبلاد ما وراء النهر وافغانستان.. وان كانوا خاضعين رسمياً للخلافة العباسية، ثم تبعت بعد ذلك الدولة الخوارزمية ثم الدولة الغزنوية ثم السلاجقة ثم جاء التتار فدمروها تدميراً كما دمروا كثيراً من حواضر العالم الاسلامي.. وتحول التتار بعد ذلك الى الاسلام واستعادت ترمذ مجدها وذكرها ابن بطوطة في رحلته وقال انها مدينة جميلة كبيرة يعيش

أهلها في رغد من العيش.. (كانت رحلة ابن بطوطة في القرن الثامن الهجري اي بعد التتار بقرن ونيف من الزمان) وقد ظهر بترمذ دولة علاء الملك خداوند زاده (وذلك قبيل ظهور التتار) الذين ينسبون الى الإمام السبط الحسين بن علي بن أبي طالب.. ورغم تخريب التتار لها إلا أن ترمذ سرعان ما استعادت مكانتها وكذلك بقي بيت علاء الملك حكاماً لترمذ حتى في عهد تيمورلنك.. ولا تزال قبور السادة من آل بيت النبي معروفة باسم (سلطان سادات) في قرية بالقرب من ترمذ تسمى صالح آباد.. ولم يبق من ترمذ المدينة القديمة سوى الاطلال.. ويوجد بين هذه الاطلال قبر من الرخام متقن الصنعة ينسب للولي محمد بن علي الترمذي المتوفي سنة ٢٥٥هـ وأشهر من نبغ من ترمذ الإمام الترمذي..

الإمام الترمذي: هو الإمام أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة السلمي البوغي الترمذي، نسب الى بوغ وهي قرية من قرى (ترمذ) وقد توفي بها، كما نسب الى ترمذ التي ولد وعاش بها. ولد سنة ٢٠٩ هـ، وفي مولده بعض الاختلاف، وتوفي ٢٧٩ هـ، قيل أنه ولد أكمة (أي أنه ولد أعمى) والصحيح انه كف بصره في شيخوخته.

أدرك الترمذي كثيراً من أئمة شيوخ الحديث فكان من شيوخه الإمام محمد بن اسماعيل البخاري، ولازم البخاري، وانتفع به انتفاعاً عظيماً، وكان ذكياً نابغاً، شديد الحفظ، متيناً في الدين، زاهداً ورعاً، وقد سمع منه البخاري حديثاً واحداً كعادة الشيوخ في اظهار فضل تلاميذهم النابهين، قال له البخاري ذات يوم: (ما انتفعت بك أكثر مما انتفعت بي) وكفى بها شهادة من إمام الحديث للترمذي.

وعلى الرغم من اعتزاز (الترمذي) بشيخه البخاري وتوقيره اياه، توقيراً لا حد له، الا انه خالفه فيما يظن أنه الحق.

كان عصر الترمذي هو عصر الحديث حقاً، فقد ظهر اعلام المحدثين

في عصر واحد تقريباً وعاش اصحاب الامهات الست في الحديث، في وقت واحد، وكل من جاء بعدهم كان عالة عليهم. الى حد كبير.

واليك بياناً يوضح تاريخ مولد ووفاة هؤلاء الأئمة الستة، أصحاب الصحاح، والسنن المشهورة وهي المعتمدة أساساً في كتب الحديث:

١ - الإمام محمد بن أسماعيل البخاري، ولد في شوال سنة ١٩٤ هـ وتوفي في شوال سنة ٢٥٦ هـ. وهو صاحب (الجامع الصحيح) اشهر كتب الحديث وأصحها.

٢ - الإمام مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، ولد سنة ٢٠٤ هـ. ومات سنة ٢٦١ هـ وهو صاحب الصحيح المشهور بأسم صحيح مسلم، وهو أحسن كتب الحديث تبويباً، وصنعة، ويأتي بعد (صحيح البخاري) في درجة الصحة.

٣ - الإمام محمد بن عيسى الترمذي، ولد سنة ٢٠٩ هـ، ومات سنة ٢٧٩ هـ، وهو صاحب (الجامع الصحيح) المشهور باسم (سنن الترمذي).

٤ - الإمام أبو داود سليمان بن الأشعث، ولد سنة ٢٠٢ هـ، ومات سنة ٢٧٥ هـ، وهو صاحب (سنن أبي داود).

٥ - الإمام أحمد بن علي النسائي، ولد سنة ٢١٥ هـ، ومات سنة ٣٠٣ هـ وهو صاحب سنن النسائي.

٦ - محمد بن يزيد بن ماجه، ولد سنة ٢٠٩ هـ ومات سنة ٢٧٣، وهو صاحب سنن ابن ماجه.

ولعل القارىء الكريم قد لاحظ أن أكثر هؤلاء الأئمة قد ولد في بداية القرن الثالث الهجري وتوفي في الثلث الأخير منه، وقد تتلمذ بعضهم لبعض، واشتركوا جميعاً في الأخذ عن تسعة شيوخ هم:

١ - محمد بن بشار بندار. توفي سنة ٢٥٢ هـ.

٢ - أبو موسى محمد بن المثنى توفي ٢٥٢ هـ.

٣ - زياد بن يحيى الحساني.

٤ - عباس بن عبد العظيم العنبري توفي سنة ٢٤٦ هـ.

٥ - أبو سعيد الأشج عبد الله بن سعيد الكندي توفي سنة ٢٥٧ هـ.

٦ - أبو حفص عمرو بن علي الفلاس توفي سنة ٢٤٩ هـ.

٧ - يعقوب بن ابراهيم الدورقي المتوفي سنة ٢٥٢ هـ.

٨ - محمد بن معمر القيسي البحراني سنة ٢٥٦ هـ.

٩ - نصر بن علي الجهضمي. المتوفي سنة ٢٥٠ هـ.

وانت ترى أن ائمة الحديث الستة نشأوا وولدوا في (خراسان) وبلاد ما وراء النهر، فالإمام (البخاري) من بخارى (وهي اليوم - في جمهورية (أوزبكستان) والإمام مسلم من (نيسابور) وهي من أهم مدن (خراسان) وهي - اليوم - في ايران، و(خراسان) كما اسلفنا القول مقسمة - اليوم - بين الاتحاد السوفيتي (جمهورية تركمنستان) وأفغانستان.. (وكلاهما يرزح تحت الاحتلال الروسي الشيوعي) وايران (وهي توشك ان تقع فريسة للدب الروسي).

والإمام الترمذي من (ترمذ) في (أوزبكستان) بالاتحاد السوفيتي. والإمام ابو داود من سجستان (وسجستان) تقع جنوب (هراة) في (أفغانستان) وتبعد عنها بثمانين فرسخاً. والإمام النسائي من (نسا) بخراسان وهي الآن خرائب على بعد خمسة أميال من عشق آباد في جمهورية تركمنستان السوفيتية.

والإمام ابن ماجة من أهل (قزوين) وبحر قزوين واقع - اليوم -

في معظمه تحت براثن الاستعمار الروسي ما عدا الشاطىء الجنوبي منه، فإنه يقع في ايران.

وكم ظهر من ائمة العلماء، في كل فن، من شواطىء هذا البحر، الذي كان بحيرة اسلامية لا ينازعهم فيها منازع.

وبحر قزوين له أسماء عديدة منها بحر الخزر، وبحر الديلم، وبحر جيلان، وبحر جرجان وبحر طبرستان، وبحر شروان، وبحر باكو، وقد ذكرنا هذه الأسماء جميعاً، لأن الباحث قد يقرأ أحدها فيظنه مكاناً آخر، ويتعب في البحث، حتى يجد أن المقصود واحد، وهو بحر (قزوين).

وقد فتحت (قزوين) في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فتحها الصحابي الجليل البراء بن عازب، غزاها منطقة منطقة، حتى أخضع أغلبها لحكم الاسلام، وانتقضت هذه المناطق في عهد عثمان - رضي الله عنه - ثم أعادها الصحابي الربيع بن خيثم في عهد الإمام علي - كرم الله وجهه - ووسع أراضي المسلمين فيها، وكان الإمام علي يقول: (من كره منكم ان يقاتل معنا معاوية فليأخذ عطاءه، وليخرج الى الديلم، ليقاتلهم).

وها هي (قزوين) التي كانت معقلا من معاقل الاسلام، وحصناً من حصونه المنيعة، ترزح تحت الاستعمار الروسي، دون أن نعرف أن لنا أوطاناً كثيرة لا تزال تحت نير الاستبداد الشيوعي.

وهكذا ترى، عزيزي القارىء، أن أغلب واشهر علماء الاسلام هم من بلاد ما وراء النهر (التركستان) وخراسان وجميعها - تقريباً - واقع تحت براثن الدب الروسي اليوم...

لقد كان الإمام الترمذي يطوف البلاد الاسلامية، وخرج من (ترمذ) الواقعة - اليوم - في (أوزبكستان) الى (خراسان) يتعلم، ويعلم،

ويسمع من شيوخها. ويتدارس العلم معهم وينشره في مساجدها. وينتقل من مرو الى (نيسابور) ومن (نيسابور) الى الري، ومن خراسان الى فارس، ومن فارس الى العراق، الذي كان يموج بحركة علمية واسعة، ويدخل بغداد والبصرة ويسمع من مشائخها ويحدث في مساجدها.. ثم ينتقل من العراق الى الحجاز ليتعلم ويعلم.

وهكذا كان علماء الإسلام عامة، وعلماء الحديث خاصة، مولعين بالرحلات المتتابعة، ليسمعوا من شيوخ الحديث وأينما انتقلوا فهم في دارهم دار الاسلام، ولا حواجز مصطنعة ولا حدود مفتعلة، ولا جوازات ولا قيود، وهذه هي دار الاسلام متصلة بالود عامرة بالحب، على الرغم من مشاق الطريق، ووعثاء السفر.

لقد سمع من الإمام الترمذي خلق كثير في ترمذ و(مرو) و(نيسابور) و(البصرة) و(بغداد) و(مكة) و(المدينة) وأشهر تلاميذ الإمام (الترمذي) محدث خراسان، وعلمها أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي المروزي (نسبة الى مرو عاصمة خراسان) وتقع - اليوم في جمهورية (تركمنستان) في الاتحاد السوفيتي).

وللترمذي مؤلفات كثيرة، أهمها وأشهرها (الجامع الصحيح) المشهور باسم (سنن الترمذي) الذي مدحه جهابذة العلماء، وقال عنه مؤلفه الإمام (الترمذي).

(صنفت هذا الكتاب، فعرضته على علماء الحجاز. والعراق، وخراسان، فرضوا به، ومن كان في بيته هذا الكتاب فكأنما في بيته نبي يتكلم).

وقال عنه الحافظ (ابو الفضل المقدسي) فيما يرويه عن شيخه (الانصاري) قال (كتاب الترمذي عندي أنفع من كتاب البخاري ومسلم، لأن كتابي بخاري ومسلم لا يقف على الفائدة منهما، الا المتبحر العالم،

وكتاب آبو عيسى يصل الى فائدته كل أحد من الناس).

ووصف (المقدسي) كتاب (الترمذي) ادق وصف، وشرح أبوابه، وطريقته في التأليف، بإيجاز وافٍ، وننقله هنا، لأنه يوضح الكتاب ومقاصده:

وكتابه على أربعة أقسام: قسم صحيح مقطوع به. وهو ما وافق فيه البخاري ومسلماً، وقسم على شرط الثلاثة دونها (أي أبي داود والنسائي وابن ماجة) كما بيناه، وقسم للضدية، أبان علته، ولم يغفله وقسم رابع، أبان هو عنه، وقال (أي الترمذي):

(ما أخرجت في كتابي هذا الا حديثاً قد عمل به محتج، أو عمل بموجبه عامل واخرجه سواء صح طريقه أم لم يصح، وقد أزاح عن نفسه الملام، فإنه شفي في تصنيفه، وتكلم عن كل حديث بما يقتضيه).

وكان من طريقته - رحمه الله - أن يترجم الباب، الذي فيه حديث مشهور عن صحابي قد صح الطريق اليه، وأخرج من حديثه في الكتب الصحاح، فيورد في الباب ذلك الحكم من حديث صحابي آخر، لم يخرجوه من حديثه ولا يكون الطريق اليه كالطريق الأول، الا أن الحكم صحيح ثم يتبعه بأن يقول:(وفي الباب عن فلان وفلان، ويعد جماعة فيهم الصحابي المشهور وأكثر). وقال (القاضي ابن عربي)عن كتاب (الترمذي) ما يلي:

(وليس فيهم مثل كتاب أبي عيسى حلاوة مقطع، ونفاسة منزع، وعذوبة مشرع، وفيه أربعة عشر علماً، وذلك أقرب الى العمل وأسلم، وأسند، وصحح، وضعف، وعدد الطرق، وجرح، وعدل، وأسمى، وأكنى، ووصل، وقطع، وأوضح المعمول به، والمتروك، وبين اختلاف العلماء في الرد والقبول لآثارة وذكر اختلافهم في تأويله. وكل علم من هذه العلوم أصل في بابه، وفرد في نصابه، فالقارىء له لا يزال في

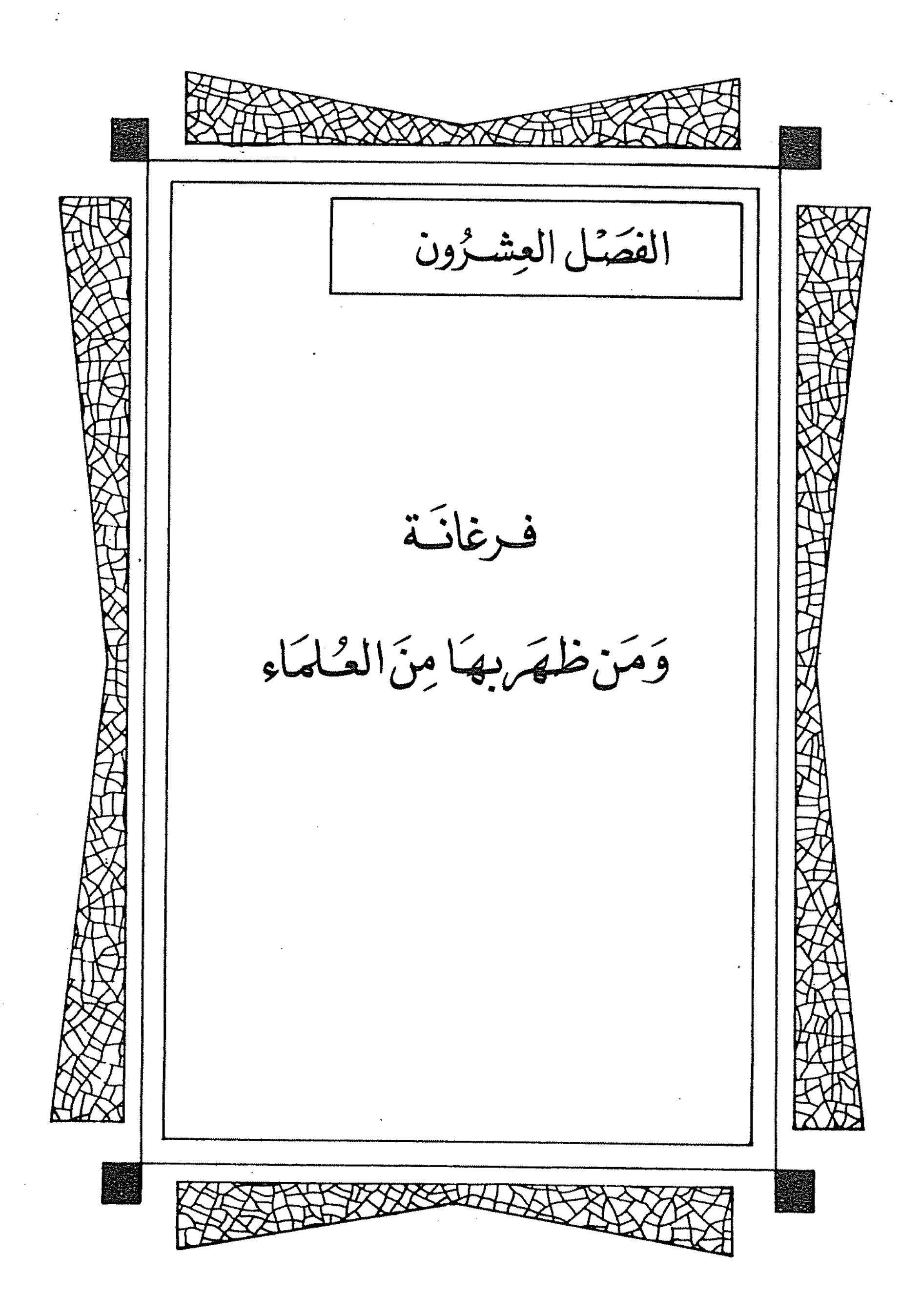
رياض مونقة وعلوم متفقة متسقة، وهذا شيء لا يعمه الا العلم الغزير والتوفيق الكثير، والفراغ والتدبير).

ولم يكتف (الترمذي) بكتابه (الجامع الصحيح) بل ألف كتباً كثيرة، في الحديث وغيره، منها كتاب (الشمائل) وكتاب (العلل) في الحديث وكتاب (الاسماء والكنى) في رجال الحديث وكتاب (الزهد) وكتاب (التاريخ).

عاش (الترمذي) حياة العلماء الأفذاذ الزهاد، من هذه الأمة الممتدة من الصين في الشرق الى المحيط الأطلسي (بحر الظلمات) في الغرب – حياة مليئة بالعلم والعمل، مع ترفع وزهد عن الدنيا، وبذل لكل غال ونفيس في سبيل تحصيل العلم، أولا، ثم نشره بعد تحصيله والتمكن منه.

قال عنه (الحاكم) أحد أعلام الحديث من بعده: (مات محمد بن اسماعيل البخاري، ولم يخلف بخراسان مثل أبي عيسى في العلم والحفظ والورع والزهد، بكى حتى عمي، وبقي ضريراً سنيناً).

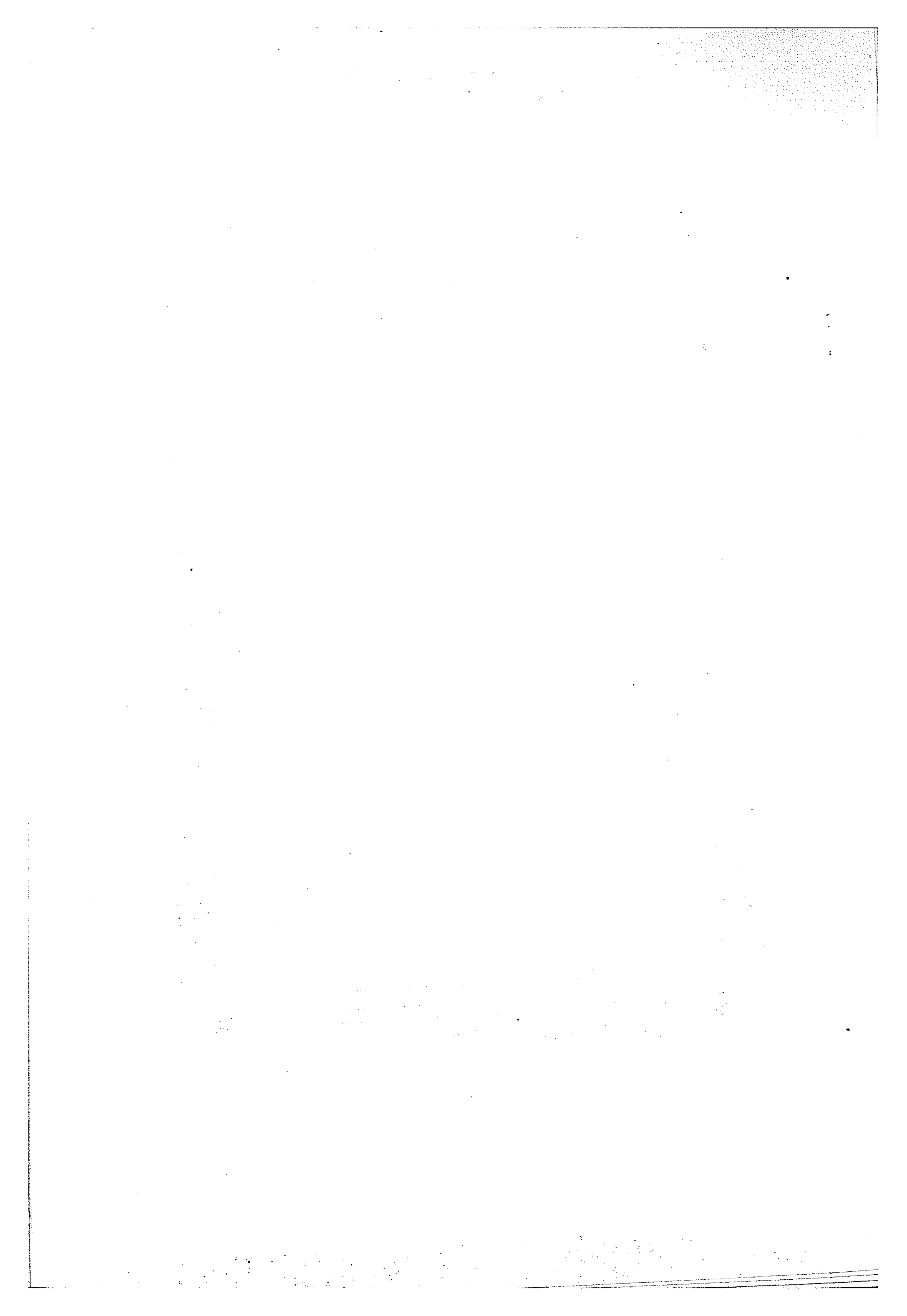
رحم الله الإمام (الترمذي) ورضي عنه، ورضي عن جميع علماء هذه الأمة الابرار، الذين جاهدوا في الله حق جهاده، ونشروا العلم في ربوع الأرض لا يبتغون مالا ولا عزاً ولا جاهاً، وعرفوا أنهم ورثة الأنبياء، فقاموا مقامهم يذبون عن شريعتهم، وينشرون رايتهم، ويرفعون اعلامهم لا يخافون في الله لومة لائم، ولا يبالون بنصب أو مشقة...



الفَصْل العِشرُون

فرغانَة

وَمَن ظهر بهَا مِنَ العُلمَاء



جُغْرَافيتُهَا وَمُدُنهَا

تقع فرغانة - اليوم في جمهورية (قيرغيزيا) في الاتحاد السوفيتي، وقد أهملت فرغانة وأصبحت العاصمة (فرونزي) - (ويقع جزء منها في جمهورية اوزبكستان وهو خوقند وما حولها).

وكان يطلق على الاقليم بأكمله اسم (فرغانة) وكانت بلاد ما وراء النهر تقسم الى ست كور أي مقاطعات، وهي:

١ - (فرغانة) وقصبتها (أخسكيت).
٢ - (أسبيجاب) وقصبتها (أسبيجاب).
٣ - (الشاش) وقصبتها (بنكث) وهي طشقند اليوم.
٤ - (الصغد) وقصبتها (سمرقند).
٥ - (بخارى) وقصبتها (بخارى).

وتقع (طشقند) و(سمرقند) و(بخارى) اليوم، في جمهورية أوزبكستان بالاتحاد السوفيتي.

٦ - (أشروسنة) وقصبتها (بنجكث).

ويقع على نهر جيحون، اقليم (خوارزم) وعاصمته - اليوم - تدعى (خيوة).

وصف ياقوت الحموي فرغانة في (معجم البلدان) فقال عنها: (مدينة وكور واسعة وراء النهر متاخمة لبلاد تركستان في زاوية، من ناحية هيطل من جهة مطلع الشمس على يمين القاصد لبلاد الترك، كثيرة الخيرات، واسعة الرستاق يقال كان بها أربعون منبراً، بينها وبين سمرقند خمسون فرسخا، ومن ولايتها خجندة (خوقند) (وتقع خوقند

حاليا في شرق جمهورية اوزبكستان).

وبفرغانة في الجبال الممتدة بين الترك وبينها من الاعناب والجوز والتفاح وسائر الفواكه والورد والبنفسج وأنواع الرياحين، مباح ذلك كله، لا مالك له، ولا مانع يمنع الآخذ منه، وكذلك في جبالها وجبال كثيرة مما وراء النهر من الفستق المباح ما ليس ببلد غيره. قال الاصطخري (فرغانة) اسم الاقليم، وهو عريض، على سعة مدنها وقراها وقصبتها (عاصمتها) أخسكيت، وليس بما وراء النهر أكثر قرى من فرغانة، وربما بلغ حد القرية مرحلة لكثرة أهلها وانتشار مواشيهم وزروعهم.

ويصف بارتولد أخسكيت فيقول (باختصار وتصرف):

أخسكيت: قصبة ولاية فرغانة تقع في الجزء الشمالي منها - على شط سيحون (سرداريا) الايمن ويذكر المقدسي وابن حوقل انها كانت مكونة مثل بقية المدن القديمة من قلعة (قهندز) ومدينة (شهرستان) وضاحية (ربض) وكانت دار الامارة والحبس بالقلعة.. أما المسجد الجامع فكان بالشهرستان بجوار القلعة (كما هو الحال في سمرقند وبخارى) وأما مصلى العيد فكان على شط نهر جيحون (سرداريا).

وكانت الاسواق في الشهرستان وفي الربض.. وكان للشهرستان خمسة أبواب وكان يسقي الشهرستان عدد من القنوات المتصلة بالنهر تصب في حياض جميلة جوانبها من الآجر والجص مصهرجة.

وكانت المدينة تمتد لأكثر من ثلاثة فراسخ كما يقول ابن حوقل.. ويقارنها المقدسي بمدينة الرملة في فلسطين فيقول انها أكبر منها بمرة ونصف وكانت البساتين تمتد خارج المدينة الى فرسخين (الفرسخ ثلاثة أميال) وفي الجانب المقابل من النهر مروج ومزارع كثيرة تليها رمال تمتد بمقدار مرحلة.

وكان يربط اخسكيث بالأجزاء الجنوبية لفرغانة عدد من الطرق فكان هناك طريق مستقيم يربطها بخوقند مجتازا المفازة والرمال (سبعة فراسخ) وهناك طريق آخر يربطها بخوقند عبر مدينة باب وهناك طريق يربط أخسكيث بمدينة قبا يبلغ طوله عشرة فراسخ.

وتقع مدينة كاسان على بعد خمسة فراسخ شمال اخسكيث.. وكانت كاسان عاصمة لامراء فرغانة في القرن الثامن والتاسع الميلادي.

ويعد المقدسي من مدن فرغانة وقراها أربعين ذات مسجد جامع.

أما ياقوت فيصف اخسكيث بما يلي:

أخسكيث: بالفتح ثم السكون وكسر السين المهملة وياء ساكنة وكاف وثاء مثلثة وبعضهم يقول بالتاء المثناة.. اسم مدينة بما وراء النهر وهي قصبة فرغانة تقع على شط نهر الشاش (نهر سيحون او سرداريا) على أرض مستوية.. بينها وبين الجبال نحو فرسخ شمالي النهر.

ولها قهندز وربض. ومقدارها في الكبر نحو ثلاثة فراسخ (تسعة أميال) وبناؤها طين وعلى ربضها ايضا سور.. وللمدينة الداخلة (الشهرستان) أربعة أبواب.

وفي المدينة والربض مياه جارية وحياض كثيرة، وكل باب من أبواب ربضها يفضي الى بساتين ملتفة وانهار جارية لا تنقطع مقدار فرسخ (٣ أميال).. وهي من أنزه بلاد ما وراء النهر.

وقد خرج منها جماعة من أهل العلم والأدب منهم:

أبو الوفاء محمد بن محمد بن القاسم الاخسكيتي: كان اماما في اللغة والتاريخ.. توفي سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٥ م) وأخوه **أحمد بن محمد بن القاسم** كان أديباً فاضلاً شاعرا.. وكان مقامها بمرو وبها ماتا. ومن شعر أحمد يصف بلده:

من سوى تربة أرضي خلق الله اللئاما
أن أخسيكث أم لم تلد الا الكراما

ومنها **نوح بن نصر بن محمد الفرغاني الاخسكيثي** قدم همذان سنة ٤١٥ هـ (١٠٢٤ م) وروى الحديث عن بكر بن فارس الناطقي وأحمد بن محمد الهروي.. وسمع بالعراق وخراسان والشام.

وتعتبر **خجندة** ولاية من ولايات فرغانة.. وهي مدينة تتبعها أرياف تدعى الرساتيق وقد كانت خجندة في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) وحدة ادارية مستقلة ولكنها غدت بعد ذلك من أعمال فرغانة وكان لخجندة ملك قبل الاسلام. وكانت خجندة من أكبر مدن ما وراء النهر وتخضع لنفس النظام الذي كانت تتبعه تلك المدن أي انها مكونة من القلعة (القهندز) والمدينة (الشهرستان) والضاحية (الربض).. وفي القلعة كان الحبس وفي الشهرستان يقوم المسجد الجامع.. أما دار الإمارة فكانت في الربض. (على غير المعتاد.. لأن معظم المدن القديمة كانت دار الإمارة تقوم في القلعة).

وقد اشتهرت خجندة بكرومها وبساتينها.. وكان عدد السكان من الكثرة بحيث لم تكن غلة الحقول المجاورة تفي بحاجتهم من الغذاء.. لذا فإن قمح المدينة كان يأتي من فرغانة واشروسنة. (وتقع خجندة (خوقند) حاليا في جمهورية اوزبكستان).

وكانت تشق وسط المدينة قناة تأخذ من نهر خوجة باقرغان احد فروع نهر سرداريا (سيحون). وكانت مدينة كند تعتبر من أعمال خجندة..

وكانت الرحلة من خجندة الى سمرقند تستغرق ثمانية أيام بالراحلة وتعتبر المنطقة الواقعة بينهما ومسافتها ١٤٨ ميلا ضمن ولاية أشروسنة

وكانت المنازل في هذه الطريق مجموعة من القرى والمدن التابعة لاشروسنة وهي باركث ورباط معد وزامين وساباط واركند وشاوكث.. ولم تكن عاصمة اشروسنة وهي بنجكث تقع على هذا الطريق..

وقد وصف ياقوت في معجم البلدان خجندة بما يلي (باختصار وتصرف).

خجندة: بلدة مشهورة بما وراء النهر على شاطىء سيحون (سرداريا) بينها وبين سمرقند عشرة أيام.. وهي مدينة نزهة ليس بذلك الصقع أنزه منها ولا أحسن فواكه وفي وسطها نهر جار والجبل متصل بها.

وفيها قال الشاعر:

ولم أر بلـــــدة بـــــازاء شرق
ولا غرب بـــأنزه من خجنـــــدة
هي الغراء تعجـــب من رآهـــا
وهي بـــالفـــارسيـــة دل مزنـــدة

وكان سلم بن زياد لما ولي خراسان ليزيد بن معاوية بن أبي سفيان أنفذ جيشا الى خجندة فهزموا..

وقال الاصطخري: خجندة متاخمة لفرغانة قد جعلناها في جملة فرغانة.. وان كانت مفردة في الأعمال عنها، وهي في غربي نهر الشاش (سيحون) وطولها أكثر من عرضها وليس في عملها مدينة غير كند، وهي بساتين ودور مفترشة ولها قرى يسيره ومدينة وقهندز (قلعة) وهي مدينة نزهة فيها فواكه تفضل على فواكه سائر النواحي وفي أهلها جمال ومروءة وهي بلد يضيق عما يمونهم من الزروع فيجلب اليها من سائر النواحي من فرغانة وأشروسنة أكثر من سنة ما يقيم أودهم.. تنحدر السفن اليهم في نهر الشاش (نهر سيحون) وهو نهر يعظم من أنهار تجتمع

إليه من حدود الترك والاسلام.. وعموده نهر يخرج من بلاد الترك في حد أوزكند ثم يجتمع اليه نهر خوشاي ونهر اوشى وغير ذلك فيعظم ويمتد الى أخسكيت ثم على خجندة ثم على بنكث (طشقند) ثم على بيكند فيجري الى فاراب فاذا جاوز صبران جرى في برية تكون على جانبيه الاتراك الغزية حتى يقع في بحيرة خوارزم (بحر الارال).

وينسب إليها جماعة وافرة من أهل العلم منهم **أبو عمران موسى بن عبد الله المؤدب الخجندي**.. كان أديباً فاضلا صاحب حكم وأمثال مدونة مروية.. وقد أخذ الحديث عن أبي النصر محمد بن الحكم البزاز السمرقندي وغيره.

وتعتبر **مرغينان** من أهم مدن فرغانة وذلك منذ عهد القراخانيين ويصفها السمعاني كما ينقله عنه ياقوت في معجمه بأنها من أشهر البلاد من نواحي فرغانة. وتليها مدينة **قبا** وهي الآن قرية (كوفا) وتفوق من حيث المياه وعدد البساتين اخسكيت العاصمة نفسها.. وكانت كبقية المدن القديمة تضم (قهندز) (قلعة) وشهرستان (مدينة) وضاحية (ربض) وكانت الاسواق ودار الإمارة والحبس بالربض.. أما المسجد الجامع فكان بالقلعة وتقع المدينة على مجرى ماء متصل بنهر سيحون (سرداريا).

ومن مدن فرغانة **اندیجان** والنسبة إليها اندیجاني وهي من المناطق التي فتحها المسلمون مبكراً رغم أن فرغانة لم تخضع نهائيا للحكم الاسلامي الا في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي).

وهناك اسطورة تزعم ان بفرغانة قبر النبي أيوب ولا تزال موجودة الى اليوم باسم حضرت ايوب وحولها مياه يستشفى بها لانهم يعتقدون انها هي التي استشفى بها أيوب عليه السلام.. وتقع حضرت أيوب هذه على بعد ميل ونصف من قرية جلال أباد[1] بالقرب من مدينة اندیجان

(١) انظر كتاب بارتولد: تركستان من الفتح العربي الى الغزو المغولي:

وقد وصفها المقدسي، ويذكر بارتولد في كتابه التركستان نقلا عن جمال قرشي ان في منطقة اسبيد بولان بفرغانة قبور الفين وسبعمائة من الصحابة والتابعين الذين بعثهم عثمان بن عفان رضي الله عنه تحت امرة محمد بن جرير فاستشهدوا جميعا في واقعة مع الكفار.. ولا يزال هذا الموضع قائما الى اليوم كما يقول بارتولد. كما نجد في منطقة فرغانة في خوقند قبر الامام عبد الله بن علي زين العابدين بن الإمام السبط الحسين بن علي المتوفي عام ١١٣ هـ (٧٣١ م).

وفي رباط سرهنك في قرية كاخ من أعمال فرغانة نجد قبر فاتح بلاد ما وراء النهر قتيبة بن مسلم الباهلي ويشير الاهالي إليه باسم مقبرة (الامام الشيخ قتيبة) في جلال كدك من أعمال انديجان.

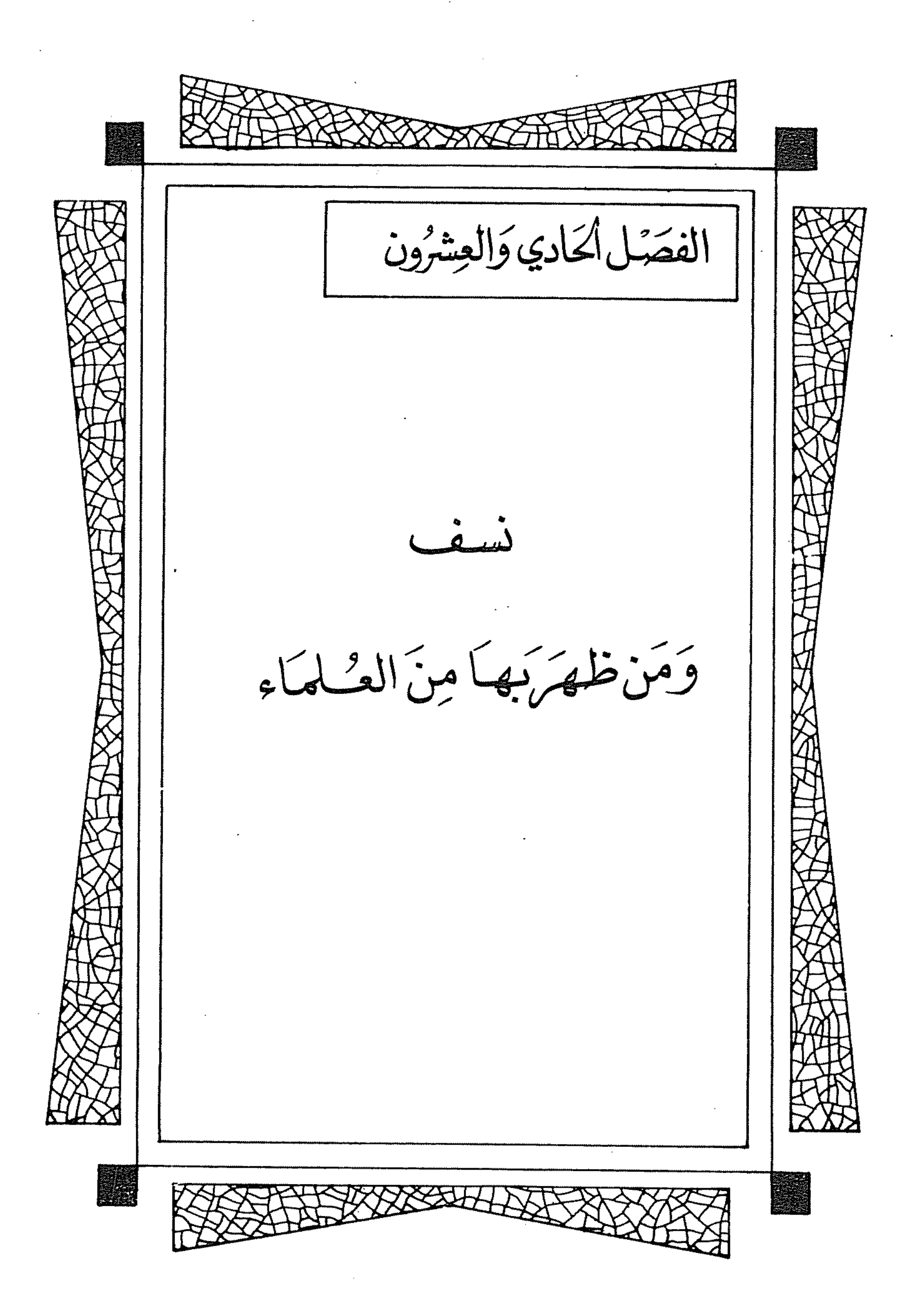
ويصف ابن حوقل الاصطخري مناجم الفحم في جبال أسبره.. وكانت تباع ثلاثة اوقار (والوقر حمل حمار) بدرهم فقط. هكذا كانت فرغانة، أما بعد أن دخلها الروس القياصرة، وذلك عام ١٢٨٣ هـ (١٨٦٦ م) فقد أقاموا بها مستعمراتهم، وطردوا سكانها، وبحلول عام ١٣٣٤ هـ (١٩١٥ م) - كان الروس قد أقاموا ثمانين مستعمرة روسية، وفي عام ١٣٣٥ هـ (١٩١٦ م) - ثار الأهالي ضد القوات الغازية، فأبادت القوات الروسية مائة وخمسين الفا من الاهالي. وشردت مئات الألوف، الذين فروا الى الجبال، حيث لاقى العديد منهم حتفهم، نتيجة المجاعة الرهيبة، التي سببتها القوات الروسية باحراقها المحاصيل، وتكررت حرب الابادة، بعد أن جاء لينين وقامت الثورة الشيوعية بأبشع مما كانت عليه أيام القياصرة وأبيد سكان المنطقة الشمالية من اقليم فرغانة (جمهورية قرغيزيا) عن بكرة أبيهم، حتى المواشي والاغنام لم تسلم من الابادة، ففي المناطق الجنوبية التي بقي فيها القرغيز (لانها اقل خصوبة من المناطق الشمالية) تناقص عدد المواشي من ٦ مليون رأس عام ١٣٤٨ هـ (١٩٢٩ م) الى مليوني رأس عام ١٣٥٦ هـ (١٩٣٧ م)

وذلك حسب الاحصاءات الرسمية السوفيتية. ولم تترك روسيا حتى أولئك الذين تظاهروا بالشيوعية وساروا في ركابها من سكان القرغيز، بل أبعدت رئيس وزراء قيرغيزيا (يوسوف عبد الرحمانوف) وأعدمت رزفيلوف وعبد الكريم صديقوف لأنهما طالبا باشباع سكان قيرغيزيا من حاصلاتها الزراعية قبل ارسال المنتوجات الزراعية الى موسكو. وفرغانة (قيرغيزيا) غنية في ثرواتها الزراعية والمعدنية وأهم حاصلاتها: القطن والشوندر السكري، والحبوب، والفواكه، وأهم معادنها: الذهب، والقصدير، والتوتياء والبترول، والفحم، والأنتومني، والزئبق.

كانت (فرغانة) مسقط رأس علماء أجلاء مثل **أحمد بن كثير الفرغاني** الذي عاش في زمن الخليفة العباسي المتوكل، وقد انتقل هذا العالم المهندس من فرغانة الى بغداد حيث اشتهر في علم الهيئة، ثم طلبه حاكم مصر الى القاهرة فأنشأ بها المقياس الجديد لفيضان النيل في منيل الروضة بالقاهرة. ومن علماء (فرغانة) الذين ينسبون إليها **أبو منصور أحمد بن عبد الله الفرغاني** الذي ولد عام ٣٢٧ هـ (٩٣٨ م)، وتوفي سنة ٣٩٨ هـ (١٠٠٧ م) انتقل الى مصر، وسكن بها الى ان وافته المنية، واشتهر بمؤلفاته التاريخية، منها (سيرة كافور الأخشيدي) وسيرة العزيز سلطان مصر المنتسب الى العلويين. وتكملة لتاريخ بدأه والده اسمه (التاريخ). ومنها **علي بن أبي بكر بن عبد الجليل الفرغاني المرغيناني** الذي يعد أحد مشاهير علماء الاحناف، نسبته الى (مرغينان) وهي احدى قرى (فرغانة) ولد سنة ٥٣٠ هـ (١١٣٥ م) وتوفي سنة ٥٩٣ هـ (١١٩٤ م) وكان حافظاً مفسراً محققاً فقيهاً أديباً من تصانيفه (بداية المبتدي) وشرحه (الهداية في شرح البداية)و(منتقي الفروع) و(الفرائض) و(مناسك الحج) و(مختارات النوازل) وفتاويه جمعها في كتاب اسماه (التجنيس والمزيد). ومنها **حاجب بن مالك بن راكين**

الفرغاني انتقل من بلده فرغانة الى دمشق وحدث بها عن **أحمد بن ابراهيم البالس وأحمد بن حمدون وعمرو بن علي وهلال بن العلاء** وغيرهم.. وروى عنه سعيد بن الاعرابي ويوسف الميانجي وأبو بكر بن أبي دجانة وأبو القاسم الطبري وغيرهم وكانت وفاته بدمشق سنة ٢٠٦ هـ (٨٢١ م).

ومنها: أبو الفتح محمد بن اسماعيل الفرغاني دخل نيسابور، وتلقى علوم الحديث ومنها **حسام الدين محمد بن محمد بن عمر الاجنسكيثي** نسبة الى (أخسكيث) وهي عاصمة اقليم فرغانة آنذاك وتوفي سنة ٦٤٤ هـ (١٢٤٦ م) وهو فقيه حنفي أصولي، له كتاب (المنتخب في أصول المذهب)، المشهور بالمنتخب الحسامي، الذي شرحه مجموعة من العلماء، منهم الفقيه **عبد العزيز البخاري**. ومنها **أحمد بن محمد بن القاسم الأجنسكيثي** ولد سنة ٤٦٦ هـ(١٠٧٤ م) في فرغانة وهي (أخسكيث) اشتهر بالأدب، وحسن الصنعة في الكتابة، واختاره الحكام والسلاطين، ليكون كاتبهم، له مصنفات في الأدب، منها كتابه (الزوائد) في شرح سقط الزند - للمعري وتوفي بمرو سنة ٥٣٨ هـ (١١٣٤ م).



الفصل الحادي والعشرون

نسف

ومن ظهر بها من العلماء

يقول ياقوت الحموي: (نسف) بفتح اوله وثانيه هي مدينة كبيرة كثيرة الأهل والرستاق بين جيحون وسمرقند، خرج منها كثير من أهل العلم في كل فن، **وهي نخشب نفسها.**

«قال الاصطخري: وأما **(نسف)** فانها مدينة، ولها قهندز (لفظ قهندز فارسي، ومعناه القلعة القديمة، واختص بقلاع المدن) وربض (ضاحية) ولها أبواب أربعة، وهي على مدرج (طريق) بخارى وبلخ، وهي في مستواه، والجبال منها على مرحلتين فيما يلي كش وأما بينها وبين جيحون فمفازة لا جبل فيها، ولها نهر واحد يجري في وسط المدينة وهي مجمع مياه كش، فيصير منها هذا النهر، فيشرع الى القرى، ودار الامارة على شط هذا النهر بمكان يعرف برأس القنطرة.. ولنسف قرى كثيرة ونواح، ولها منبران سوى المدينة، والغالب على قراها المباخس، وليس بنسف ورساتيقها نهر جار غير هذا النهر (نهر كشكادريا) وينقطع في بعض السنة، ولها آبار تسقي بساتينهم ومباقلهم، والغالب على نسف الخصب».وقد ذكر بارتولد في كتابه التركستان نقلا عن السمعاني وياقوت والمقدسي اسماء عشرات القرى التابعة لنسف.

مما تقدم من وصف (ياقوت الحموي) يبدو أن (نسف) تقع اليوم - في (أوزبكستان) جنوب (بخارى) في الطريق الى بلخ وبلخ في أفغانستان وبينها وبين نهر جيحون (اموداريا) مفازة هي - كما تبدو - جزء من صحراء (قره قوم) التي تمتد من حدود، (أوزبكستان) الشرقية الى (تركمنستان) وقد خرب المغول نسف مثلما خربوا معظم المدن التي استولوا عليها ثم قامت باسم قرشي التي تعني القصر بلغة المغول. وذلك لان الخان كبك وهو من سلالة جغتاي ابن جنكيز خان بنى قصرا قريبا

منها فقامت حوله المدينة من جديد وعرفت منذ ذلك العهد باسم قرشي وذلك بعد ان دخل المغول في الاسلام وأصبحوا من حماته بعد ان كانوا ألد اعدائه.

وكم من مدن اسلامية اندثرت أو تغيرت أسماؤها ومعالمها في المناطق، التي ترزح تحت الاستعمار الروسي.. وقد ظهر من **(نسف)** العديد من الجهابذة العلماء.

منهم: ابو اسحاق ابراهيم بن معقل بن الحجاج النسفي:

قال عنه ياقوت: كان من أجلة العلماء وأصحاب الحديث الثقات، كتب الكثير، وجمع السنة والتفسير، وحدث عن، قتيبة بن سعد وهشام ابن عامر الدمشقي وحرملة بن يحيى المصري وروى عنه كثير من العلماء ومات سنة ٢٩٤ هـ (٩٠٦ م).

ومنهم: الحسين بن خضر النسفي، أحد فقهاء الاحناف المشهورين:

تولى القضاء في بخارى ونواحيها، وبها توفي سنة ٤٢٤ هـ/١٠٣٣ م. له مؤلفات عدة، منها (الفوائد) (والفتاوى) وجميعها في الفقه.

وظهر من نسف: أبو البركات عبد الله بن أحمد النسفي:

المفسر، الفقيه، المشهور، صاحب المؤلفات الجليلة، والمصنفات العجيبة، مثل (مدارك التنزيل) في تفسير القرآن الكريم، و(المنار) في أصول الفقه، و(كشف الاسرار شرح المنار) والوافي في الفروع، (الكافي شرح الوافي) و(عمدة العقائد في العقائد) و(كنز الدقائق في الفقه) و(المصفى) شرح منظومة أبي حفص النسفي في الخلاف.

وتوفي الامام أبو البركات سنة ٧١٠ هـ/١٣١٠ م بعد أن ترك ثروة علمية لا يزال ينتفع بها الى يومنا هذا.

ومنهم: أبو الفضل برهان الدين محمد بن محمد النسفي، أحد أعلام

التفسير والأصول والكلام..

فقيه حنفي، ولد سنة ٦٠٠ هـ/١٢٠٣ م، في (نسف) وانتقل منها في طلب العلم، وسكن (بغداد) وبها ظهر فضله وعلمه، وبها توفي سنة ٦٨٧ هـ/١٢٨٩، بعد أن ترك مجموعة من المؤلفات في التفسير والأصول وعلم الكلام، منها (الواضح) في تلخيص تفسير الفخر الرازي المسمى بالتفسير الكبير، ومنها (الفصول) في علم الجدل و(منشأ النظر) في علم الخلاف، و(المقدمة النسفية)، أيضا، في علم الخلاف، و(القوادح الجدلية) و(شرح الاسماء الحسنى) (وكتاب دفع النصوص والنقود).

ومنهم: خرج الحافظ عبد العزيز بن محمد بن عاصم النسفي النخشبي:

ونسب الى (نخشب) وهي (نسف) كما تقدم وصفه (ياقوت) بأنه أحد الأئمة في الحديث،

سمع أبا القاسم عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن عمر، وأبا القاسم علي ابن محمد الصحاف وأبا طاهر محمد بن أحمد بن عبد الرحيم الكاتب الأصبهاني، وغيرهم كثير من مشايخ الحديث في عصرهم، وتنقل في البلدان، طلبا للحديث، ولعلو السند، كما يفعل مشايخ هذا العلم لا يألون في ذلك جهدا ولا يدخرون في ذلك وسعا، والامة الاسلامية تعينهم على ذلك، ينتقلون من (نسف) أو (بخارى) الى (سمرقند) و(مرو) و(نيسابور) و(بغداد) و(دمشق) و(مكة) و(المدينة) وكأنهم في بلدهم لم يفارقوها، ففي كل مدينة يجدون أهلا وأحبابا، ويلقون بشاشة وترحابا لا يصدهم صاد، ولا تطاردهم جوازات واقامات، بل هي دار الاسلام، دار واحدة ممتدة، أينما ذهب وجد اخوة واحبابا، ووجد شيوخا وطلابا.

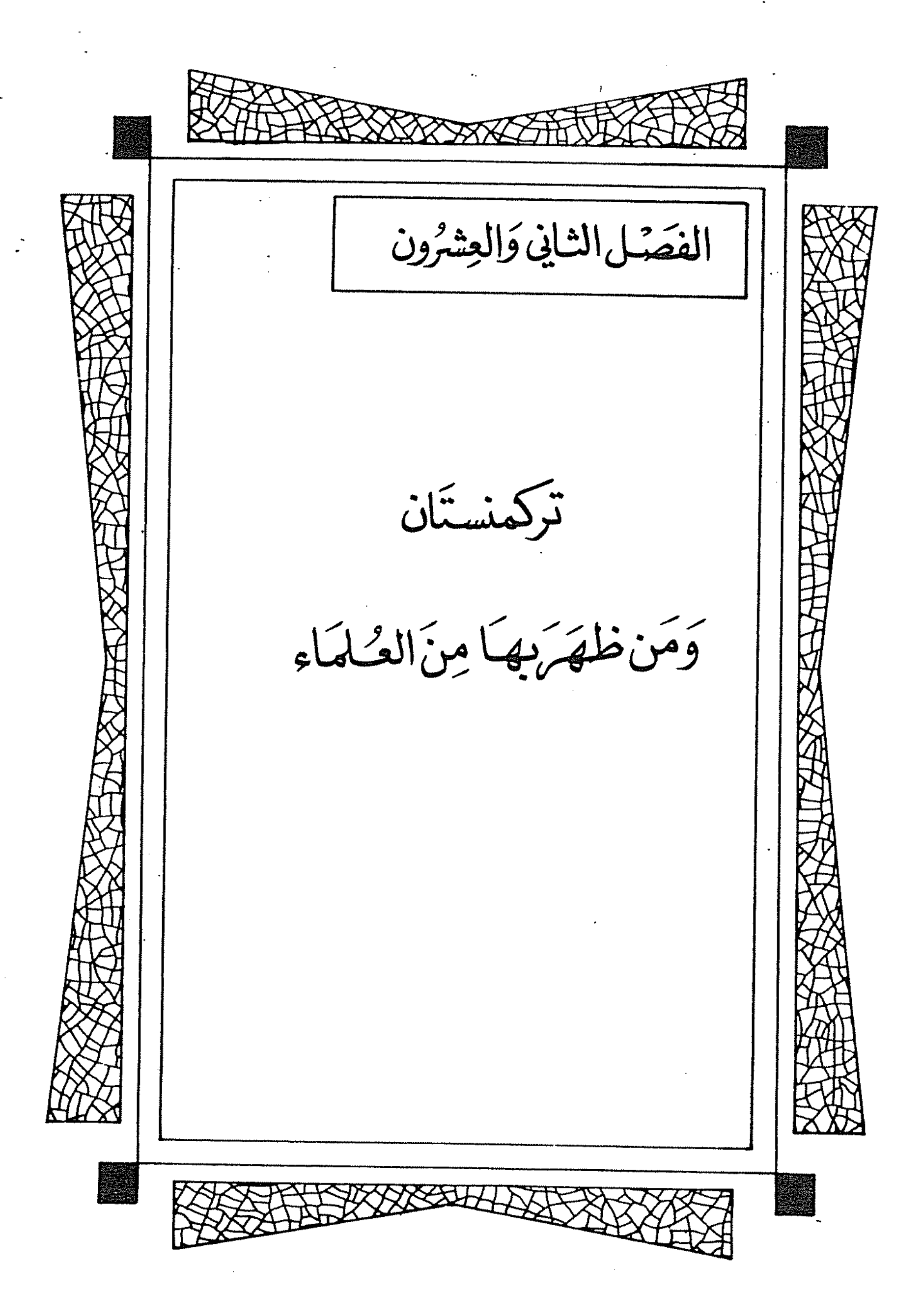
قدم الحافظ عبد العزيز بن محمد النسفي الى (دمشق) واستقر بها، وروى عنه خلق كثير، منهم: عبد العزيز الكناني، وابو بكر الخطيب،

ثم عاد الحافظ عبدالعزيز الى موطنه (نسف) (نخشب) وبها مات، ولما يبلغ الأربعين، وذلك سنة ٤٥٢ هـ.(١٠٦٠ م).

ومنهم: ابو العباس جعفر بن محمد بن المعتز المستغفري النسفي:

ولد في نسف سنة ٣٥٠ هـ (٩٦١ م) وبها كانت وفاته سنة ٤٣٢ هـ (١٠٤١ م) خطيب نسف وامامها.. فقيه ومحدث ومؤرخ.. وأما في الخطابة فقد كان لا يبارى.. وله مصنفات كثيرة منها كتاب «الدعوات» جمع فيها الاحاديث الواردة في الدعاء وكتاب فضائل القرآن «والشمائل والدلائل ومعرفة الصحابة الاوائل» «والمسلسلات» وهي أيضا في الحديث.. وله كتاب «الزيادات» وهي زيادات اضافها على كتاب «المختلف والمؤتلف» لعبد الغني بن سعيد، وله في التاريخ عدة كتب منها «تاريخ نسف» وتاريخ كش...

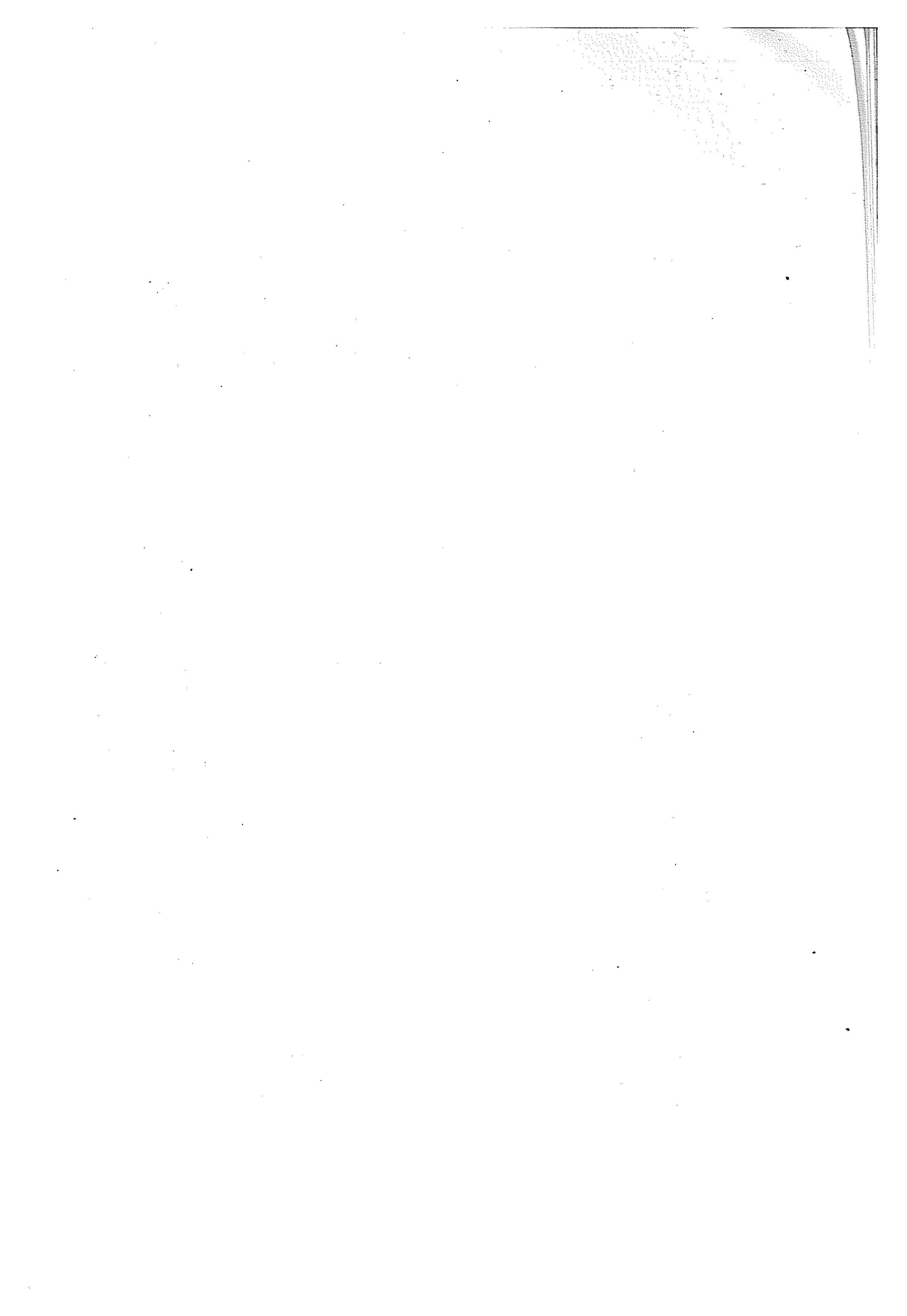
ويؤخذ عليه أنه يروي أحيانا بعض الاحاديث الموضوعة من غير أن يبين حالها.



الفصل الثاني والعشرون

تركمنستان

ومن ظهر بها من العلماء



خراسان ٧

خراسان اقليم واسع غرب فارس ويقع اليوم في دول ثلاث هي: -

١ - أفغانستان.

٢ - ايران.

٣ - جمهورية تركمنستان في الاتحاد السوفيتي.

وأول حدودها الغربية هي مدينة ازادور عاصمة مقاطعة جوين وبيهق وآخر حدودها الشرقية الجنوبية مما يلي الهند طخارستان وطخاري بالقرب من بلخ وستان معناها أرض أي أرض بلخ الواقعة اليوم في افغانستان ومنها غزنة عاصمة الدولة الغزنوية وهي في افغانستان اليوم. وكذلك سجستان موطن الإمام ابي داود سليمان بن الاشعث صاحب سنن ابي داود وهي كذلك في افغانستان.. قال الامام السبكي في الطبقات.. وخراسان عمدتها مدائن أربع كانما هي قوائمها المبنية عليها وهي مرو ونيسابور وبلخ وهراة. هذه هي مدائنها العظام ولا ملام عليك لو قلت بل هي مدن الاسلام اذ هي كانت دِيار العلم على اختلاف فنونه[1].

وتشمل على أمهات من البلاد كما يقول ياقوت الحموي في معجم البلدان (منها نيسابور وهي في ايران اليوم) وهراة (في افغانستان)

---

(١) وقال الإمام النووي في التهذيب: خراسان الاقليم العظيم المعروف موطن الكثير أو الاكثر من علماء المسلمين رضي الله عنهم وقد قال رسول الله ﷺ يخرج من خراسان رايات سود لا يردها شيء حتى تنتصب بايلياء (بيت المقدس) رواه الترمذي.

ومرو (في تركمنستان) وهي كانت قصبتها وبلخ (في افغانستان) وطالقان وهما مدينتان احداهما في ايران والأخرى في طخارستان في (افغانستان) ونسا وابيورد وسرخس (في تركمنستان) وما يتخلل ذلك من المدن التي دون نهر جيحون. وترمذ الواقعة على نهر جيحون (وهي الآن في اوزبكستان).

ومن الناس من يدخل أعمال خوارزم وجميع بلاد ما وراء النهر فيها وليس الامر كذلك كما يقول ياقوت.. والسبب في ذلك أن أعمال بلاد ما وراء النهر كانت تضم لمن يتولى أعمال خراسان فارتبطت لذلك بلاد ما وراء النهر بخراسان ولذا نجد كثيرا من المؤرخين مثل البلاذري يدخلها فيها ويقسم خراسان الى أربعة اقسام..

القسم الاول: هو ايران شهر ويشمل نيسابور وقهستان والطبسان وهراة.

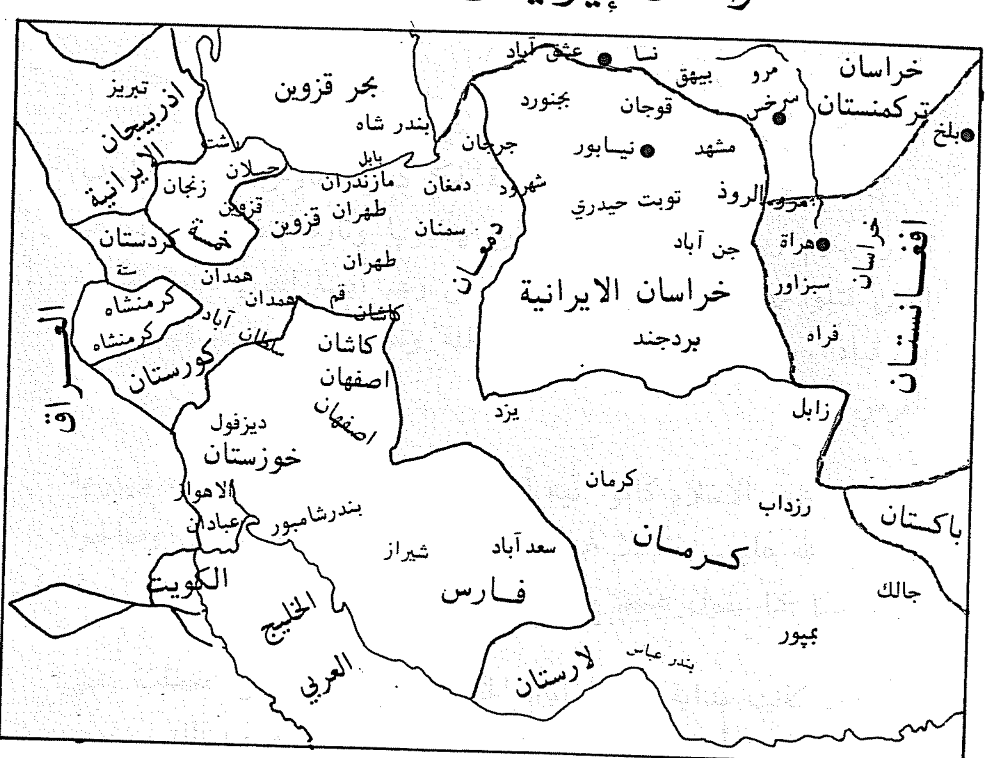
القسم الثاني: مرو الشاهجان وسرخس ونسا وابيورد ومرو الروذ والطالقان، وخوارزم وآمل وهما على نهر جيحون.

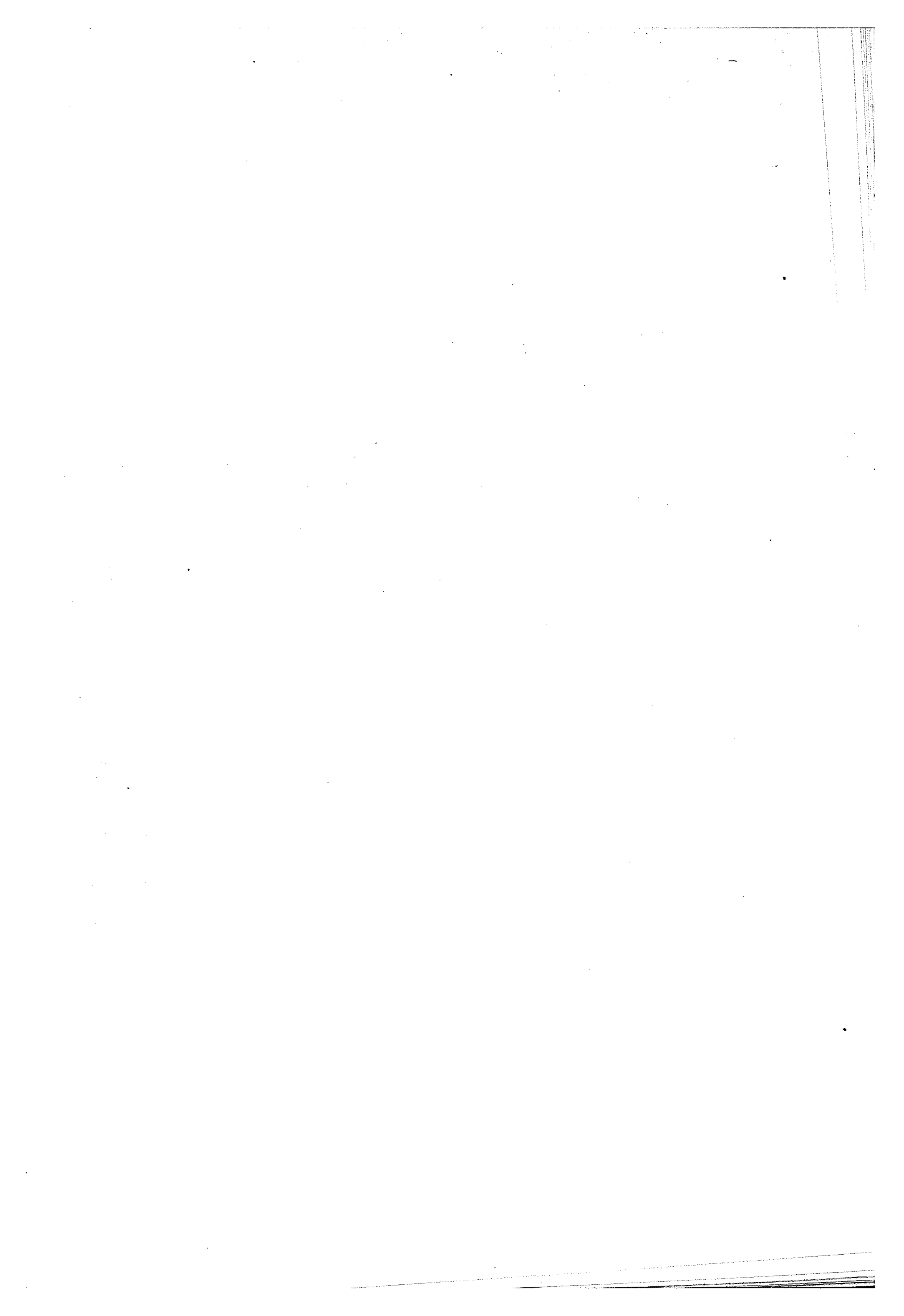
القسم الثالث: غربي نهر جيحون وهو الفارياب والجوزجان وطخارستان العليا والباميان وولج وبذخشان وهو المدخل الى التبت (وبذخشان اقليم غني بالذهب بين افغانستان وتركمنستان) وكابل (عاصمة افغانستان اليوم) وترمذ (في اوزبكستان) والصغانيان (في تركمنستان واوزبكستان).

والقسم الرابع: ما وراء النهر بخارى والشاش والصغد ونسف واشروسنة وفرغانة وسمرقند. وتقسيم البلاذري هذا يشمل جمهوريات تركستان الخمس الواقعة اليوم في الاتحاد السوفيتي وهي: اوزبكستان، وتركمنستان، وطادجكستان، وقيرغيزيا، وقازاقستان.

وهو توسع شديد في مفهوم خراسان وتحديد ياقوت أدق وأضبط

خراسان الإيرانيّة والأفغانيّة والسّوفيتيّة





وهو يشمل كما أسلفنا اجزاء من ايران وافغانستان وجمهورية تركمنستان.. وجمهورية تركمنستان بها مدينة عشق آباد وهي العاصمة وقد قامت على بعد خمسة اميال من نسا التي أصبحت خرائب وحوالي ثلاثة اميال من شهرستان التي خربت أيضا.. ولم تعد تذكر لا من اهلها ولا من غيرهم.. وفي تركمنستان مدينة مرو وهي عاصمة خراسان سابقا وبها مدينة آمل ومدينة بيهق ومدينة سرخس وسنتحدث عن هذه المدن ومن ظهر بها من مشاهير العلماء بعد ان نتحدث عن مرو ومن ظهر بها من العلماء.

فتح خراسان

كانت اجزاء من خراسان خاضعة لحكم كسرى فارس وكانت الحرب تدور بينهم وبين قوات كسرى فتارة يغلبونها وتارة يخضعون لها. وهم الذين قتلوا فيروز بن يزدجرد ملك فارس وهم أيضا الذين قتلوا كسرى بن قباذ.. وكان ملوكهم يسمون الهياطلة وهم على المجوسية ايضا مثل الفرس..

فلما ظهر الاسلام كانوا فيه أحسن الامم رغبة وأشدهم اليه مسارعة منًّا من الله عليهم وتفضلا لهم فأسلموا طوعا ودخلوا فيه سلما وصالحوا عليه سلما كما يقول عنهم ياقوت في (معجم البلدان).

وقد كانت بداية فتحها أيام الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما أرسل أبا موسى الأشعري رضي الله عنه عبد الله بن بديل ابن ورقاء الخزاعي الى خراسان فصالحه أهل الطبسين.

ووجه عمر رضي الله عنه الأحنف بن قيس عام ١٨ هـ الى خراسان ثم دخل هراة (في افغانستان) ومرو الشاهجان ونيسابور في مدة يسيرة

(تمت هذه الفتوحات سنة ٢٣ هـ)(١) وهرب منه يزدجرد بن شهريار آخر ملوك فارس وقتل في مرو، قيل قتله طحان اختبأ في بيته طمعا في ما عنده من ذهب وجواهر كان يخفيها. (وكان قتله سنة ٣١ هـ في خلافة عثمان رضي الله عنه).

وقال ربعي بن عامر في ذلك:

ونحن وردنا من هراة مناهلا رواء من المروين ان كنت جاهلا

---

(١) ذكر ياقوت في معجم البلدان آن فتح خراسان كان سنة ١٨ هـ بينما ذكر السيد أحمد زيني دجلان في كتابه الفتوحات الاسلامية أن فتح خراسان كان سنة ٢٣ هـ على الصحيح. وذكر أن عمر أذن للمسلمين في الانسياح في بلاد فارس عندما رأى كثرة نقضهم للعهد بسبب وجود يزدجرد ملكهم الذي كان يهيجهم. وقد كان يزدجرد يفر من وجه المسلمين معركة بعد معركة بدءاً بالمدائن ثم نهاوند ثم جلولاء، ثم سار يزدجرد الى الري (وهي طهران اليوم) وسار من مكان الى آخر يثير الناس ضد المسلمين حتى ثار أهل فارس والفيرزان وأهل الجبال.

وكتب عمر للأحنف بن قيس بالمسير الى خراسان فسار بجيش كثيف فدخلها من الطبسين عنوة وافتتح هراه (في شمال أفغانستان) ثم سار نحو مرو الشاهجان (في تركمنستان) وأرسل الى نيسابور (في إيران) مطرف بن عبد الله بن الشخيز والي سرخس (في تركمنستان) الحارث بن حسان. فلما دنا الأحنف من مرو الشاهجان هرب منه يزدجرو الى مرو الروذ (وهي في شمال أفغانستان) وكتب يزدجرو الى خاقان الترك والى ملك الصغد والى ملك الصين يستمدهم. وخرج الاحنف يريد يزدجرد الى مرو الروذ فلما سمع به يزدجرد فر الى بلخ (في شمال افغانستان أيضاً) ونزل الأحنف بن قيس مرو الروذ وقدم أهل الكوفة الى بلخ وانهزم يزدجرد وعبر النهر (أي نهر جيحون ويسمى أيضاً اموداريا) وفتحت طخارستان وهي المنطقة الواسعة الخصبة المحيطة ببلخ في شمال أفغانستان.. واستخلف الاحنف بن قيس على طخارستان ربعي بن عامر.. وكتب الأحنف الى عمر بخبر الفتوح فخاف عمر على المسلمين من التوغل في أرض الكفار وكتب الى الأحنف أن لا يجاوز النهر أي نهر جيحون والذي يسمى أيضاً نهر بلخ لأنه يمر قريباً منها كما يسمى ايضاً نهر امودار يا. فلما عبر يزدجرد النهر مهزوماً لم يتبعه الاحنف. فجمع يزدجرد الجموع من الترك وأهل فرغانة والصغد ورجع الى بلخ وآخذها من المسلمين ووقعت معركة عنيفة بين مرو الروذ ومرو الشاهجان بين قوات المسلمين بقيادة الأحنف وقوات الترك الذين استنجد بهم يزدجرد.. ثم أن الترك انسحبوا بليل الى بلخ.. وعبر يزدجرد من مرو الشاهجان الى خاقان الترك في بلخ ثم عبر معه النهر الى فرغانة.. وكان قد حاول أخذ خزائن أهل فارس فأبى عليه أهلها وقالوا أن المسلمين أوفياء وأهل دين ومصالحتهم خير لنا من الفرار معك الى أرض الترك فنازعوه وأخذوا خزائنهم منه. وفر يزدجرد بصحبة ثلة من اصحابه الى خاقان الترك. وأقام يزدجرد طوال عهد عمر في بلاد الترك فلما ارتد أهل خراسان في زمن عثمان رضي الله عنه قدم اليهم يزدجرد وقد كان يكاتبهم سراً ويحرضهم على الثورة والردة.. ثم أن المسلمين اعادوا فتح خراسان في زمن عثمان.. واختبأ يزدجرد عند طحان في مرو فقتله الطحان طمعاً فيما عنده من جواهر وذلك سنة ٣١ هـ.

وبلخ ونيسابور قد سقيت بنا — وطوس ومرو قد أزرنا القنابلا
أنخنا عليهم كورة بعد كورة — نفضّهمُ حتى احتوينا المناهلا
فلله عينا من رأى مثلنا معا — غداة أزرنا الخيل تركا وكابلا

ومن هذه الابيات يتضح أن المسلمين قد فتحوا في زمن عمر رضي الله عنه أغلب نواحي خراسان فهم قد فتحوا هراة وبلخ وكابل وجميعها اليوم في افغانستان وفتحوا نيسابور وطوس وتسمى اليوم مشهد وهما في ايران وفتحوا مرو عاصمة اقليم خراسان وهي اليوم في تركمنستان في الاتحاد السوفيتي.

فلما مات عمر رضي الله عنه وتولى عثمان رضي الله عنه الخلافة ثارت مناطق من خراسان على المسلمين فابتدأت نيسابور وكان فيها أخوال كسرى بنو كنازا فثاروا على المسلمين وأخرجوهم منها وتبعهم أهل مرو الشاهجان ولحقهم في ذلك أهل بلخ والتجأ المسلمون الى مرو الروذ وعليها عبد الرحمن بن سمر فكتب الى عثمان بذلك وأنشد أسيد بن المتشمس المري شعرا....

الا أبلغا عثمان عني رسالة — لقد لقيت عنا خراسان بالغدر
فأذكِ هداك الله، حربا مقيمة — بمروى خراسان العريضة في الدهر
ولا تفترز عنا فان عدونا — لآل كنازا المدين بالجسر

فأرسل عثمانُ عبدالله بن عامر بن كريز واليه على البصرة لاعادة غزوها[1] .. فانطلق هذا الشاب المغوار الذي لم يكن قد تجاوز الخامسة والعشرين وقام باعادة فتحها واخضاعها وذلك سنة ٣٠ هـ وأقر صلح

---

(١) عبد الله بن عامر بن كريز هو ابن خال عثمان بن عفان رضي الله عنه. وقد فتح الله على يديه كثيراً من البلدان. وعندما اتم إعادة فتح خراسان أحرم من نيسابور بعمرة شكراً لله ثم قدم على عثمان يحمل اليه بشائر الفتح والغنائم. وقد أتى به وهو صغير الى النبي ﷺ فقال النبي ﷺ هذا يشبهنا وجعل يتفل عليه ويعوذه فصار عبد الله يبتلع ريق النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ إنه لمسقي فكان كثيراً ما يظهر له الماء في الارض الجافة.

الطبسين لما وجدهم لم ينقضوا العهد وفتح بيهق وجوين ونيسابور وبلخ وهراة وفتح طخارستان ثم سار الى خوارزم فلم يقدر عليها.. وصالح أهل بلاد ما وراء النهر (المقصود نهر جيحون ويدعى ايضا أموداريا).

وأنشد أسيد بن المتشمس المري يبلغ عثمان رضي الله عنه بهذا النصر بعد أن أبلغه خبر انتقاض نواح من خراسان فقال:

الا ابلغا عثمان عني رسالة ... لقد لقيت منا خراسان ناطحا
رميناهم بالخيل من كل جانب ... فولوا سراعا واستقادوا النوائحا
غداة رأوا خيل العراب مغيرة ... تقرب منهم أسدهن الكوالحا
تنادوا الينا واستجاروا بعهدنا ... وعادوا كلابا في الديار نوابحا[1]

واستتب الأمر للمسلمين حتى وقعت الفتنة الكبرى بمقتل عثمان الشهيد رضي الله عنه وانشغال الإمام علي بحرب البغاة فانتقضت أجزاء من خراسان.. فلما استتب الأمر لمعاوية بعث اليهم قيس بن الهيثم بن قيس السلمي وولاه خراسان فأخضع من نقض العهد وصالحه أهل بلخ وهراة وأرسل زياد بن ابيه الحكم بن عمرو الغفاري (الصحابي) فغزا الصغانيان وذلك سنة ٤٦ هـ في أيام معاوية بن ابي سفيان وكان بذلك أول من أخضع أجزاء من بلاد ما وراء النهر.. ثم قام عبيد الله بن زياد بن أبيه بغزو بلاد ما وراء النهر وفتح بيكند صلحاً على الف الف درهم وبيكند تبعد عن بخارى بأربعين كيلو متراً فقط ثم فتح بخارى صلحاً وذلك عام ٥٤ هـ ونكثت الخاتون ملكة بخارى ونواحيها العهد فولى معاوية سعيد بن عثمان بن عفان أمر خراسان فتوجه اليها سعيد وحارب جيشها اللجب وانتصر عليهم وفتح بخارى وسمرقند سنة ٥٦ م وفي معركة سمرقند استشهد قثم بن العباس ابن عم رسول الله ﷺ فأقام له أهل السمرقند مشهداً عظيماً يقال له مزار شاه زنده.

(١) نقلنا قصة فتح خراسان هذه بشيء من التصرف من كتاب معجم البلدان لياقوت الحموي.

واستقر الإسلام في خراسان وما وراء النهر وانتشر انتشاراً عظيماً بفضل الدعاة الى الله وظهر منهم من لا يحصى من العلماء والفضلاء والادباء.. قال عنهم ياقوت (فأما العلم فهم فرسانه وسادته واعيانه ومن اين لغيرهم مثل محمد بن اسماعيل البخاري ومثل مسلم بن الحجاج القشيري وابي عيسى الترمذي واسحاق بن راهويه وأحمد بن حنبل وابي حامد الغزالي والجويني امام الحرمين والحاكم ابي عبد الله النيسابوري.. وغيرهم من أهل الحديث والفقة، ومثل الأزهري والجوهري وعبد الله بن المبارك وكان يعد من أجواد الزهاد والادباء والفارابي صاحب ديوان الأدب والهروي وعبد القاهر الجرجاني وأبي القاسم الزمخشري، هؤلاء أهل الأدب والنظم والنثر الذين يفوت حصرهم ويعجز البليغ عن عدهم).

وممن ينسب الى خراسان **عطاء الخراساني** روى عن ابن عباس وابن عمر وعبد الله بن مسعود وكعب بن عجره ومعاذ بن جبل وعدد كبير من التابعين مثل سعيد بن المسيب ونافع مولى ابن عمر وعكرمة مولى ابن عباس وروى عنه الحديث مالك بن أنس ومعمر وشعبه وحماد وسفيان الثوري وخلق كثير من ائمة العلم.

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لما مات العبادلة عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمرو بن العاص صار الفقه في جميع البلدان الى الموالي فصار فقيه أهل مكة عطاء بن أبي رباح وفقيه أهل اليمن طاووس وفقيه أهل اليمامة يحيى بن أبي كثير وفقيه أهل البصرة الحسن البصري وفقيه أهل الكوفة النخعي وفقيه أهل الشام مكحول وفقيه أهل خراسان عطاء الخراساني إلا المدينة فإن الله تعالى خصها بقرشي فكان فقيه أهل المدينة غير مدافع سعيد بن المسيب.

وهكذا استطاع الاسلام في فترة وجيزة من الزمان أن يحول ابناء هذه الأمم من أعداء للإسلام الى ابناء بررة مدافعين عنه رافعين اعلامه. ولم يأت زمن التابعين حتى كان أئمة أهل العلم من الأمم المفتوحة التي من الله عليها بدخول الاسلام.. ففجر طاقاتها وابدلها بضلال الكفر وظلمته نور الإسلام وعدله.

وظهرت في خراسان دول قوية وأولها وأهمها دولة بني العباس حيث ظهر من خراسان ابو مسلم الخراساني مؤسس الدولة العباسية فدخلها وهو شاب حدث على حمار وخرج منها بمائة الف فارس ومقاتل حتى أزاح دولة بني أمية.. وكان محمد بن علي بن عبد الله بن العباس قد قال لدعاته.. «عليكم بأهل خراسان فإن هناك العدد الكثير والجلد الظاهر. وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة لم تتقسمها الأهواء ولم تتوزعها النحل وهم جند لهم ابدان واجسام ومناكب».

وصدقت فراسة محمد بن علي بن العباس فخرج أنصاره وأهل دعوته منها. وانساحت جيوشهم فدكت عروش بني أمية وأسست ملك بني العباس.

ومنهم ظهر البرامكة الذين وزروا للمنصور والمهدي والرشيد ثم كانت نكبتهم على يد الرشيد.. وظهرت منهم الدولة الطاهرية على يد طاهر بن الحسين أكبر قواد المأمون.. ومنهم ظهرت الدولة السامانية على يد مؤسسها أسد بن سامان وأبنائه الذين ولاهم المأمون بلاد ما وراء النهر.

وظهر من خراسان ما لا يحصى من العلماء والزهاد والعباد والفقهاء والادباء والشعراء والاطباء..

وبما أن خراسان مقسمة الآن بين ثلاث دول هي إيران وافغانستان وتركمنستان في الاتحاد السوفيتي فإننا سنقصر حديثنا على بعض مشاهير

العلماء الذين ظهروا من القسم الذي تحتله روسيا اليوم والمسمى تركمنستان فإن الحديث عن علماء خراسان لا يتأتى لنا وهو خارج عن موضوعنا وهو المسلمون المنسيون في الاتحاد السوفيتي ولذا فأننا سنقصر الحديث على أهم المدن الواقعة في تركمنستان ومن ظهر بها من العلماء.

مرو: وأهم هذه المدن هي مرو عاصمة اقليم خراسان بأكمله وهي التي أخرجت مئات بل الآف العلماء والمشاهير في كل فرع منه، ويكفي مرو فخراً ان تكون قد أخرجت كما يقول (ياقوت الحموي) الإمام أحمد بن حنبل وسفيان بن سعيد الثوري وعبد الله بن المبارك واسحاق بن راهويه وبشر الحافي.. وابو بكر عبد الرحمن بن أحمد القفال المروزي...

وبمرو قبور مجموعة من الصحابة والتابعين منهم الحكم بن عمرو الغفاري أول من غزا بلاد الصغانيان وهي بلاد ما وراء النهر.. وسليمان بن بريدة وبريدة بن الحصيب الاسلمي[1] الذي رفع للنبي ﷺ لواء عند دخوله المدينة عندما قدم اليها في الهجرة وقريط بن أبي رمثه الذي غزا خراسان مع الاحنف بن قيس واستوطن مرو ومات بها.

ومرو في الواقع ليست مدينة واحدة بل هي مدينتان: مرو الشاهجان ومرو الروذ ولفظ مرو يعني الحجارة البيض.

ومرو الشاهجان تسمى مرو العظمى لأن مرو الروذ صغيرة بالنسبة لها وهي عاصمة اقليم خراسان بأكمله.. والشاهجان لفظة فارسية تعني السلطان أو روح السلطان والمقصود أن مرو هي سلطانة المدن وروحها.. والنسبة الى مرو مروزي.. وكم من العلماء والمحدثين والفقهاء الذين تنتهي اسماؤهم بهذه النسبة المروزي. ومرو الشاهجان تقع الآن في

---

(١) الحكم بن عمرو الغفاري وبريده بن الحصيب الاسلمي هما صحابيان. وقد قال لهما رسول الله ﷺ انتما عينان لأهل المشرق وكانت وفاة الحكم سنة ٥٠ هـ ووفاة بريده سنة ٦٣ هـ وماتا بمرو. وكذلك مات بمرو سليمان وعبد الله ابنا بريده بن الحصيب الاسلمي.

جمهورية تركمنستان السوفيتية.

وفي مرو القديمة قلعة قهندز (والقهندز كل قلعة عتيقة في المدن). يحيط بها ربض واسواق ويجري فيها نهران صغيران هما الرزيق والماجان يخترقان شوارعها ومنهما سقي ضياعها ومزارعها.. هكذا وصفها (ياقوت) وقال (تركتها أنا في سنة ٦١٦ هـ على أحسن ما تكون.. وبمرو جامعان للحنفية والشافعية يجمعهما السور.. ولولا ما عرا من ورود التتار الى تلك البلاد وخرابها لما فارقتها الى الممات لما في أهلها من الرفد ولين الجانب وحسن العشرة وكثرة كتب الاصول المتقنة بها فإني فارقتها وفيها عشر خزائن للوقف لم أر في الدنيا مثلها كثرة وجودة منها خزانتان في الجامع يقال لها العزيزية وفيها اثني عشر الف مجلد أو ما يقاربها والأخرى الكمالية وبها خزانة شرف الملك.. وخزانة نظام الملك الحسن بن اسحاق في مدرسته.. وخزانتان للسمعانيين وخزانة في المدرسة العميدية وخزانة لمجد الملك والخزانة الخاتونية في مدرسة الخاتون والخزانة الضميرية في خانكاه).

وهذه المكتبات الضخمة في متناول جميع القراء تغير من يطلبها بدون مقابل حتى قال (ياقوت)«وكانت سهلة التناول ولا يفارق منزلي منها مائتا مجلد وأكثر بغير رهن فكنت أرتع فيها وأقتبس من فوائدها هذا الكتاب (أي معجم البلدان) وغيره مما جمعته فهو من تلك الخزائن».

وكان ياقوت كثيراً ما يترنم بهذه الابيات اثناء اقامته في مرو:

أقمرية الوادي التي خان الفها — من الدهر أحداث أتت وخطوب
تعالي أطارحك البكاء فإننا — كلانا بمرو الشاهجان غريب

وبهذه الابيات:

أخلاي أن أصبحتم في دياركم | فإني بمرو الشاهجان غريب
أموت اشتياقاً ثم أحيا تذكراً | وبين التراقي والضلوع لهيب
فما عجب موت الغريب صبابة | ولكن بقاه في الحياة عجيب

مرو الروذ: مدينة صغيرة تبعد عن مرو الشاهجان بخمسة أيام بالراحلة ولفظ مرو يعني الحجارة البيض التي يقتدح بها والروذ النهر.. والمقصود من مرو الروذ حجارة النهر البيضاء التي يقتدح بها..

وتقع مرو الروذ على نهر عظيم هو نهر مورغاب وتقع على الحدود بين تركمنستان وافغانستان (وكان يسمى نهر الروذ) وهي في أفغانستان.

خرج منها خلق كثير من العلماء والفضلاء وينسبون مرورودي أو مروذي.. بها توفي المهلب بن أبي صفرة قائد الدولة الأموية المشهورة. ومنهم أحمد بن عامر بن بشر بن حامد المروذي وهو من كبار فقهاء الشافعية توفي سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٢ م). ومنهم حسين بن محمد بن أحمد المرورودي فقيه شافعي تولى القضاء وتوفي سنة ٤٦٢ هـ (١٠٦٩ م).. ومنها كريمة بنت أحمد المروذية المشهورة بست الكرام وكانت تروي صحيح البخاري من حفظها وتوفيت بمكة سنة ٤٦٣ هـ (١٠٧٠ م) ومنهم أبو بكر أحمد بن محمد بن صالح المرورودي صاحب الإمام أحمد بن حنبل (وسنترجم لعلماء مرو الروذ بتفصيل اكبر في كتابنا عن أفغانستان).

اعلام مرو الشاهجان الإمام عبد الله بن المبارك (من اتباع التابعين). هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي بالولاء المروذي مولداً ونشأة، الحافظ الثقة الثبت شيخ الإسلام المجاهد الزاهد التاجر. كان أبوه تركياً مولى لرجل من التجار من بني حنظلة وأمه تركية خوارزمية.

ولد في مرو سنة ١١٨ هـ - (٧٣٦ م) وأخذ عن علمائها ثم ارتحل

في طلب العلم وأصبح حجة ثقة في علم الحديث والفقه والعربية وأيام الناس (أي تاريخ الغزوات الاسلامية).

كان يحج عاماً ويغزو عاماً[١] ورغم تبحره في هذه العلوم كلها وكونه اماماً فيها الا انه كان يتكسب بالتجارة ولا يأخذ على علمه شيئاً.. بل على العكس من ذلك كان ينفق على طلبته وطلبة العلم اينما كانوا. وكان من أكثر الناس جوداً وسخاء.. ورغم نجاحه في التجارة كان يعتبر اماماً في الزهد.. اذ لم تدخل الدنيا قلبه وان دخلت جيبه.. وذلك هو الزاهد الحقيقي.. كان يأخذها من حلال وينفقها في حلال.. ولم

---

(١) لقد كان عبد الله بن المبارك علماً في العلم والزهد والجهاد وبعث بأبيات الى صديقه الزاهد العابد الفضيل بن عياض عام ١٧٩ هـ عندما كان بطوس يرغبه في الجهاد ويحثه عليه. ويوضح له أهمية الجهاد في الاسلام وأنه أفضل العبادات بعد الفرائض قال:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا	لعلمت أنك في العبادة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه	فنحورنا بدمائنا تتخضب
أو كان يتعب خيله في باطل	فخيولنا يوم الكريهة تتعب
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا	وهج السنابك والغبار الأطيب
ولقد أتانا من مقال نبينا	قول صحيح صادق لا يكذب
لا يستوي وغبار خيل الله في	أنف إمرئٍ ودخان نار تلهب
هذا كتاب الله ينطق بيننا	ليس الشهيد بميت لا يكذب

مشيراً بذلك الى قوله تعالى «ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون».

وقد كان ابن المبارك رضي الله علماً من أعلام الجهاد وفرسانه كما كان علماً من أعلام الفقه وعلوم الحديث والعربية والتاريخ – وقد قال احد رفقائه في الجهاد وهو عبدة بن سليمان المروزي: «كنا في سرية في بلاد الروم مع عبد الله بن المبارك فصادفنا العدو فلما التقى الصفان خرج رجل من العدو فدعا الى البراز (المبارزة) فخرج اليه رجل فقتله (أي ان الرومي قتل المسلم) ثم دعا الى البراز فخرج اليه (رجل من المسلمين) فطارده ساعة فطعنه فقتله فازدحم اليه الناس. فكنت فيمن ازدحم اليه فإذا هو يلثم وجهه بكمه فأخذت بطرف كمه فمددته فإذا هو عبد الله بن المبارك فقال: وانت يا أبا عمر ممن يشنع علينا». ولم يكن ابن المبارك يريد ان يعرف..

ولقد ختم عبد الله بن المبارك حياته المباركة بالجهاد فإنه قد أدركته المنية وهو عائد من جهاد الروم. وكانت وفاته بمدينة بهيت في شهر رمضان.. وهو أول من الف كتاباً في الجهاد جمع فيه الآيات والاحاديث الواردة في الجهاد وبعض اقوال الصحابة والتابعين.

تكن ثروته لنفسه بل كانت للفقراء من المسلمين ولطلبة العلم منهم خاصة.. وكانت ثروته أيضاً للجهاد في سبيل الله وللحج.

مات ابن المبارك رضي الله عنه عند عودته من غزو الروم في قرية بهيت على نهر الفرات سنة ١٨١ هـ - (٧٩٧ م) - بعد ان ترك ذكراً حسناً باقياً أبد الدهر.. ومن آثاره العظيمة كتاب (الجهاد) وهو أول من صنف فيه وكتاب (الرقائق).

قال عنه سفيان الثوري: ابن المبارك هو عالم المشرق والمغرب وقال عنه الفضيل بن عياض: ما رأت عيناي مثل ابن المبارك. وقال عنه المعتمر بن سليمان: ابن المبارك فقيه العرب والعجم... وقال عنه العباس بن مصعب المروزي جمع ابن المبارك الحديث والفقه والعربية وأيام الناس والشجاعة والسخاء وقال عنه ابن معين كان كيّساً متثبتاً ثقة وكان عالماً صحيح الحديث.

الإمام أحمد بن حنبل: أبو عبد الله أحمد بن حنبل بن هلال الشيباني المروذي ثم البغدادي ولد سنة ١٦٤ هـ بمرو وقيل بل جيء به حملا من مرو وولد في بغداد وبها نشأ.

اشتهر من قبيلته المثنى بن حارثة الشيباني أحد مشاهير قواد الفتح الإسلامي في العراق.. انتقل جد الإمام أحمد الى خراسان وكان والياً على سرخس (احدى مدن خراسان) وناصر الدعوة العباسية عند ظهورها واوذي في هذا السبيل.. وكان أبوه قائداً وتوفي والده وهو طفل صغير فنشأ يتيماً فقيراً عزيز النفس حفظ القرآن الكريم في صباه الباكر ثم اتجه الى الديوان لمزيد من الدرس قال عن نفسه:

(كنت وأنا غليم (تصغير غلام) اختلفت الى الكتاب ثم اختلفت الى الديوان وأنا ابن اربع عشر سنة...

وكان عمه يرسل الى الوالي يعلمه بأحوال بغداد ليعلم بها الخليفة

فأرسلها ذات مرة مع ابن اخيه أحمد بن حنبل في صباه فلما علم الصبي الورع بذلك رماها في الماء تأثماً من الوشاية.. وقد لفت هذا الورع والنجابة المبكرة نظر كثير من اهل العلم اليه فاحبوه واكرموه حتى قال الهيثم بن جميل (إن عاش هذا الفتى فسيكون حجة على اهل زمانه)

ثم اتجه الإمام أحمد بن حنبل في شرخ شبابه الى علوم الحديث فأتقنها وقال:

(أول من كتبت عنه الحديث أبو يوسف) ولزم هيثم بن بشير بن أبي حازم الواسطي أربع سنوات يأخذ عنه الحديث.. وسمع عبد الرحمن بن مهدي وأبا بكر بن مهدي.. وبقي ببغداد يتلقى علوم الحديث من شيوخها من سنة ١٧٩ هـ الى ١٨٦ هـ، فلما تمكن بما عندهم رحل الى البصرة ليأخذ من علمائها ثم الى الكوفة ثم الى الحجاز واليمن.

وفي رحلته الى الحجاز سنة ١٨٧ التقى بالإمام الشافعي ولزمه وتتلمذ على يديه وكان الإمام أحمد لا يمل من الثناء على الشافعي والدعاء له حتى قال: الشافعي للناس كالشمس للأرض وكالعافية للابدان ورحل الى اليمن ليأخذ عن شيخها في الحديث عبد الرزاق وفي اثناء رحلته التقى بعبد الرزاق في مكة اتى اليها للحج فقال له زميله وصديقه يحي بن معين ها هو عبد الرزاق نأخذ عنه ها هنا فقال أحمد: لا أغير النية في رحلتي اليه.. وذهب الى صنعاء ليأخذ عنه وسار على هذا الاجتهاد حتى حفظ الف الف حديث وصنف كتاب المسند وجمع فيه من الحديث ما لم يتفق لغيره.. وجمع فيه ثلاثين الف حديث.. وله كتب كثيرة منها كتاب (الناسخ والمنسوخ) والرد على من ادعى تناقض (القرآن) والتفسير) وكتاب في التاريخ (وفضائل الصحابة) و(المناسك) و(الزهد) و« الاشربة » « والمسائل » « وعلل الحديث »...

وكان الشافعي يقول (خرجت من بغداد وما خلفت بها أفقه واتقى من ابن حنبل.

وجلس أحمد للفتيا والتدريس وقد بلغ الأربعين فأقبل عليه الناس اقبالا شديداً وكان في مجلس درسه نحو خمسة الآف شخص منهم شيوخ في العلم.

وكانت مجالسه تمتاز بالوقار والسكينة وحسن الانصات واجلال العلم... وكان للفقراء تقديم على الامراء والاغنياء في مجلسه، نقل الذهبي عن المروزي قال (لم أر الفقير في مجلس أعز منه في مجلس أبي عبد الله.. كان مائلا اليهم مقصراً عن أهل الدنيا، وكان فيه حلم ولم يكن بالعجول وكان كثير التواضع تعلوه السكينة والوقار. اذا جلس في مجلسه بعد العصر للفتيا لا يتكلم حتى يسأل واذا خرج الى مسجده لم يتصدر يقعد حيث انتهى به المجلس).

سيرته واخلاقه: اشتهر الإمام أحمد بالزهد وعفة النفس والصبر والجلد منذ صغره حيث نشأ يتيماً فقيراً عزيز النفس.. فلما ظهر علمه وفضله أبى أن يقبل هدايا الملوك والخلفاء ورفض عطايا الاغنياء واكتفى بدخله القليل من منسج للثياب (طرزاً) كان خلفه له ابوه. وإن اصابته خصاصة حمل حبله على عاتقه يؤجر نفسه للحمل في الطريق وهو امام.

ورغم ورعه الشديد وزهده البالغ فقد سئل ذات مرة عن المسألة في الورع فقال:

(استغفر الله لا يحل لي أن أتكلم في الورع وأنا آكل من غلة بغداد.. لو كان بشر بن الحارث صلح أن يجيبك).

وكان اذا جاع أخذ الكسرة اليابسة فنفضها من الغبار ثم صب عليها الماء حتى تبتل ثم يأكلها بالملح...

وكان كثير القيام بالليل يسمع له دوي بالقرآن تخنقه العبرات أثناء قراءته وينشج به نشيجاً في سكون الليل وهدأته.

وكان يختم في كل سبعة أيام ختمة وفي كل سبع ليال ختمة وقد يمكث ثلاث أيام لا يطعم.

وقد ابتلي الإمام أحمد ابتلاء عظيماً أيام المأمون عندما استطاع أحمد بن أبي داود قاضي القضاة المعتزلي أن يقنع المأمون بالاعتزال وبخلق القرآن.. وجعلوا ذلك أساس الدين فمن قال بخلق القرآن فهو مؤمن ومن أبى ذلك فهو كافر.

وفرضوا ذلك على الأمة فرضاً فاستجاب العلماء خوفاً وفرقاً.. ولم يثبت إلا أحمد بن حنبل..

وقد جاء في كتاب المأمون الأمر بالقول بخلق القرآن ما يلي: (قد عظم هؤلاء الجهلة القائلون بأن القرآن كلام الله غير مخلوق بقولهم في القرآن الثلم في دينهم والجرح في أمانتهم وسهلوا السبيل لعدو الاسلام... ووصفوا خلق الله وفعله بالصفة التي هي لله وحده وشبهوه به.. وليس يرى أمير المؤمنين لمن قال بهذه المقالة حظاً في الدين ولا نصيباً من الإيمان واليقين).

وفي خطاب آخر للمأمون الى والي بغداد يقول فيه عن القائلين بقدم القرآن والمنكرين لخلقه انهم (شر الأمة ورؤوس الضلالة المنقوصون من التوحيد.. وأحق من يتهم في صدقه وتطرح شهادته ولا يوثق بقوله ولا عمله فإنه لا عمل الا بعد يقين ولا يقين إلا بعد استكمال حقيقة الاسلام واخلاص التوحيد) وأمره بجمع الناس وامتحانهم في هذه العقيدة. وعزل كل من لا يوافق عليها ولا يدين بها.

ثم اشتد المأمون في فرض عقيدته على الأمة وخاصة منهم العلماء

وأمر بضرب رقبة بشر بن الوليد وابراهيم بن المهدي ان لم يرجعا عن قولهما بقدم القرآن.. فرجعا.. وجمع الوالي العلماء وقرأ عليهم كتاب المأمون فأقروا بخلق القرآن اما مواربة واما تعريضاً الا أربعة أحمد بن حنبل، وسجاده، والقواريري، ومحمد بن نوح.. فأمر بهم فشدوا في الحديد فاعترف سجاده والقواريري بعد يومين من شد وثاقهما فأطلق سراحهما..

وبقي الإمام أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح.. فتوفي محمد بن نوح وبقي الإمام أحمد إماماً للمعارضة دون منازع.

وحبس في السجن ٢٨ شهراً وحاول المعتصم الذي تولى الخلافة بعد المأمون أن يغري ابن حنبل بترك معتقده وقال والله لئن اجابني لاطلقن عنه بيدي ولاركبن اليه بجندي. وقال له (يا أحمد والله اني عليك لشفيق واني لاشفق عليك كشفقتي على هارون ابني ما تقول: فقال الإمام أحمد: اعطوني شيئاً من كتاب الله أو سنة رسوله) وكرر عليه القول والإمام أحمد يطلب منهم دليلا من كتاب الله أو سنة رسوله فلا يجدون إلا الأمر والقوة يعتصمون بها فيضربونه بالسياط حتى ينتفخ وجهه ويدوسونه بالاقدام حتى يغشى عليه.. فلما يفيق يقول له المعتصم يا أحمد علام تقتل نفسك.. والله اني عليك لشفيق..

«ما تقول يا أحمد فيقول الإمام أحمد (أعطوني شيئاً من كتاب الله أو سنة رسوله). فيجلدونه حتى تتقلع يداه ويسيل الدم من ظهره ووجهه ويغشى عليه مرة ثانية فلما أفاق اخذوه الى السجن.. وكرروا ذلك مرات والإمام أحمد ثابت على قوله لا يتزحزح حتى مضت ٢٨ شهراً وتولى الواثق فأخرجه من السجن وأمره بالعزلة فكان مختفياً لا يخرج الى صلاة ولا غيرها حتى مات الواثق فلما ولي المتوكل رفع المحنة عن أحمد وأمر بإحضاره واكرامه.. وكان زهد أحمد وعفافه في أيام المتوكل

أعظم من صبره وجلده أيام المأمون والمعتصم.. واليك قصة عفو المتوكل كما يرويها حنبل قال: (بينما نحن جلوس بباب الدار اذ يعقوب (حاجب المتوكل) قد جاء فأستأذن على أبي عبد الله (أحمد بن حنبل) فدخل ودخل أبي وأنا.. ومع بعض غلمانه بدرة على بغل ومعه كتاب المتوكل فقرأه على ابي عبد الله (أنه صح عند امير المؤمنين براءة ساحتك وقد وجه اليك بهذا المال تستعين به) فأبى أن يقبله فقال مالي اليه حاجة. فقال يا ابا عبد الله اقبل من أمير المؤمنين ما آمرك به فإن هذا خير لك عنده فاقبل ولا ترده. فإنك أن رددته خفت أن يظن بك سوء فحينئذ قبلها. فلما خرج قال يا أبا علي قلت لبيك قال ارفع هذه الانجابة وضعها (أي البدرة تحتها) فوضعتها وخرجنا فلما كان من الليل اذا أم ولد (جارية) ابي عبد الله تدق علينا الحائط فقلت لها مالك فقالت مولاي يدعو عمه. فأعلمت ابي. فدخلنا على أبي عبد الله وذلك في جوف الليل. فقال يا عم ما أخذني النوم هذه الليلة فقال له أبي ولم، قال: لهذا المال وجعل يتوجع لأخذه وجعل ابي يسكنه ويهون عليه فلما كان السحر وجه الى عبدوس والحسن بن البزاز فحضرا وحضر جماعة فجعلنا نكتب من يذكرونه من أهل الستر والصلاح ببغداد والكوفة فوجه منها الى أبي سعيد الأشج وابي كريب والى من ذكر من أهل العلم والسنة ممن يعلمون أنه محتاج ففرقها كلها).

ثم أقام أحمد في عسكر المتوكل وضيافته فكان يتعفف عن طعامه وأمواله.. ورفض أن ينزل في الدار التي أنزله اياها امير المؤمنين بل اكترى لنفسه داراً.. وكانت تأتيه مائدة من المتوكل كل يوم فيها الوان من الطعام والفاكهة والثلج فما ينظر فيها أبو عبد الله ولا ذاق منها شيئاً.. وكان يكثر الصوم ويفطر على رغيف جاف ليلة.. وليلة لا يفطر الا على الماء..

ولما رجع الى داره نزع الثياب التي البسها أياه الخليفة وجعل يبكي ويقول: (سلمت من هؤلاء ستين سنة حتى اذا كان في آخر عمري بليت بهم. ما أحسبني سلمت من دخولي على هذا الغلام فكيف بمن يجب على نصحه من وقت تقع عيني عليه الى أن أخرج من عنده.. يا صالح وجه بهذه الثياب الى بغداد تباع ويتصدق بثمنها.. ولا يشتر احد منكم شيئاً منها.

وقال لاولاده وابناء عمومته يلومهم على أخذ أعطيات أمير المؤمنين (لِمَ تأخذونه والثغور معطلة غير مشحونة.. والفيء غير مقسوم بين أهله). وقال له ولده ذات مرة: اليس قد أمرت ما جاءك من هذا المال من غير مسألة ولا اشراف نفس أن يأخذها؟ قال: قد أخذت مرة بلا اشراف نفس فكيف بالثانية والثالثة؟ فما بال نفسك ألم تشرف؟

وهكذا كان الإمام أحمد علماً في الدين ونبراساً للأمة حتى وافاه الاجل ببغداد سنة ٢٤١ هـ واجتمع الناس عليه في مرض موته يزورونه حتى سدت الشوارع والازقة المؤدية الى داره.. وجاءه رسول امير المؤمنين فقال له: ان أمير المؤمنين يقرئك السلام وهو يشتهي أن يراك. فقال الإمام أحمد: هذا مما أكره وأمير المؤمنين أعفاني مما أكره!! فما هي الا يومين انتقل بعدها ابو عبد الله الى جنات عرضها السموات والأرض.

وارتجت بغداد بموته واجتمع في جنازته الف الف يشيعونه.. وكان يوماً مشهوداً أسلم فيه من اليهود والنصارى والمجوس نحو عشرين ألفاً...

فلله ما أعظمه حياً وميتاً وما أجلّ خدمته للاسلام في حياته وبعد وفاته... وفي يسره وعسره.. وفي أيام شدته ومحنته وفي أيام رخائه ونعمته...

ومن علماء مرو وأطبائها **ابو علي الحسن بن علي بن محمد القطان المروزي**: عين الزمان.. طبيب فيلسوف ومهندس وأديب ولد في مرو الشاهجان سنة ٤٦٥ هـ (١٠٧٣ م) ونشأ بها وتخرج على يد علمائها وأطبائها.. واصله من بخارى ولكنه مروزي الميلاد والنشأة والوفاة وقد كانت وفاته سنة ٥٤٨ هـ (١١٥٣ م).. ويبدو أن مؤلفاته قد فقدت وليس لها ذكر.

الفضيل بن عياض: هو ابو علي الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر التميمي الخراساني من ضاحية مرو وقيل ولد بسمرقند سنة ١٠٥ ونشأ بابيورد... وكان أول أمره شاطرا يقطع الطريق بين ابيورد وسرخس.

كتب الحديث بالكوفة ثم تحول الى مكة المكرمة فاستوطنها الى أن توفي بها في المحرم سنة ١٨٧ هـ. سمع الحديث من جماعة من ائمة هذا العلم منهم سليمان التميمي وجعفر الصادق وعطاء بن السائب وحميد الطويل ويحيى الانصاري وسفيان الثوري . وروى عنه خلق كثير منهم ابن عيينة ويحيى القطان وعبد الله بن المبارك والامام الشافعي والحميدي والقعنبي وأجمعوا على توثيقه والاحتجاج به وصلاحه وزهده وورعه.

قال عنه اسحاق بن ابراهيم: ما رأيت أحداً أخوف على نفسه وأرجا للناس من الفضيل. وكان شديد الهيبة للحديث ويثقل عليه جدا.

قال رحمه الله: ما أدرك من أدرك ما عندنا بكثرة صلاة ولا صيام ولكن بسخاء النفس وسلامة الصدور والنصح للأمة. وقال ايضا: ترك العمل بسبب الناس رياء والعمل بسببهم شرك والاخلاص أن يعافيك الله منهما. وقال: من عرف الناس استراح يعني انهم لا ينفعون ولا يضرون وانما النفع والضر بيد الخالق وحده.

وسئل عن التواضع فقال: تخضع للحق وتنقاد له وتقبل الحق من كل من تسمعه.

وكان يقول: اني لأعصي الله فأعرف ذلك في خلق حماري وخادمي.

ومن قوله: جعل الشر كله في بيت واحد وجعل مفتاحه الرغبة في الدنيا وجعل الخير كله في بيت وجُعلَ مفتاحه الزهد في الدنيا.. وثلاث يقسين القلب: كثرة الأكل وكثرة النوم وكثرة الكلام. وخير العمل أخفاه.. أمنعه من الشيطان وأبعده من الرياء. ولا عمل لمن لا نية له ولا أجر لمن لا خشية له.. طوبى لمن استوحش من الناس وأنس بربه وبكى على خطيئته... وأصل الزهد الرضا عن الله تعالى.

وكان يقول:من طلب أخاً بلا عيب صار بلا أخ.. ولا تؤاخ من اذا غضب منك كذب عليك.. ولو أن أهل العلم زهدوا في الدنيا لخضعت لهم رقاب الجبابرة..

وسبب توبته أنه عشق جارية فبينما هو يرتقي الجدران اليها سمع تاليا يتلو...

(ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله) فقال: يا رب قد آن ورجع فأواه الليل الى خرابة فاذا فيها رفقة فقال بعضهم نرتحل وقال آخرون بل نبيت حتى نصبح فإن فضيلا يقطع الطريق ونحن نخافه... فظهر عليهم وأمنهم وأعلن توبته.. وتحول من اللصوصية وقطع الطريق الى أن أصبح من كبار العارفين بالله ومن مشاهير العلماء الزهاد...

وكان لا يأكل الا من عمل يده يشتغل بالسقاية ويكتفي بأقل الكفاف حتى قال لو أن الدنيا بحذافيرها عرضت علي لا أحاسب بها لكنت اتقذرها كما يتقذر أحدكم الجيفة.

وكان يقول: لم يتزين للناس بشيء أفضل من الصدق وطلب الحلال.

ويقول: من جلس الى صاحب بدعة لم يعط الحكمة.

عاش جزءاً من حياته قاطع طريق فاتكا وعاش بقية حياتة زاهدا ناسكاً فسبحان من جعل قلوب العباد بين أصابعه يقلبها كيف يشاء.. ورضي الله عن الفضيل بن عياض العابد العالم الزاهد الناسك...

ودخل ذات مرة على هارون الرشيد مع سفيان بن عيينة بعد ان دعاهم هارون الرشيد فسأل الفضيل بن عياض ايهم أمير المؤمنين فأشار اليه سفيان فقال له الفضيل: أنت الذي أمر هذه الأمة في يدك وعنقك؟ لقد تقلدت أمرا عظيما.. فبكى الرشيد.. ثم اتى كل واحد في المجلس ببدرة فكل قبلها الا الفضيل فقال له الرشيد.. يا ابا علي ان لم تستحل أخذها فأعطها ذا دين أو أشبع بها جائعا أو اكس بها عاريا.. فلم يقبل فلما خرجوا قال له سفيان ابن عيينة: هلا أخذتها وصرفتها في ابواب البر فأخذ الفضيل بلحيته وقال له: أنت فقيه البلد والمنظور اليه وتغلط مثل هذا الغلط؟ لو طابت لأولئك لطابت لي.

وقال له الرشيد يوماً: ما أزهدك فقال له الفضيل: أنت أزهد مني. فقال وكيف ذلك؟ قال: اني لأزهد في الدنيا وانت تزهد في الآخرة والدنيا فانية والآخرة باقية..

وكان الفضيل يقول: لو كانت لي دعوة مستجابة لم أجعلها الا في امام لأنه اذا صلح الإمام أمن العباد..

وقال: لأن يلاطف الرجل أهل مجلسه ويحسن خلقه معهم خير له من قيام ليله وصيام نهاره..

اسحاق بن راهويه (ابو يعقوب) اسحاق بن ابراهيم بن مخلد الحنظلي التميمي المروزي عالم خراسان وأحد أئمة الحديث من أهل مرو مولدا ونشأة.. ولد بها سنة ١٦١ هـ (٧٧٨ م) وطلب العلم في صغره واشتهر بجده وحدة ذكائه وقوة حفظه وتفرغ لعلم الحديث وطاف البلاد لجمع

الحديث. ويكفيه فخرا أن يكون من تلاميذه الامام أحمد بن حنبل والأئمة البخاري ومسلم والترمذي والنسائي.

وسبب تسمية ابيه راهويه انه ولد في الطريق الى مكة فقال أهل مرو راهويه أي ولد في الطريق.

كان اسحاق بن راهويه اماما مقدما في الحديث قال عنه الدارمي: ساد اسحاق أهل المشرق والمغرب بصدقه. وقال فيه الخطيب البغدادي: اجتمع له الحديث والفقه والحفظ والصدق والورع والزهد.

رحل الى العراق والشام والحجاز واليمن لطلب الحديث ثم عاد الى خراسان واستوطن نيسابور وتوفي بها سنة ٢٣٨ هـ (٨٥٣ م) بعد ان نشر علم الحديث وأخرج أئمته احمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي.

ذكر الدارقطني اسحاق بن راهويه فيمن روى عن الشافعي وعده البيهقي في اصحاب الشافعي قال عنه أحمد بن حنبل: «اسحاق عندنا امام من ائمة المسلمين سمع من سفيان ابن عيينه ومن في طبقته».

بشر الحافي: هو ابو نصر بشر بن الحارث المروزي المعروف بالحافي[1].. من كبار الصالحين والعباد والزهاد وهو من ثقات رجال الحديث.. ولد بمرو سنة ١٥٠ هـ (٧٦٧ م) وبها نشأ وطلب العلم ثم ارتحل الى بغداد واستقر بها الى أن توفاه الله سنة ٢٢٧ هـ (٨٤١ م) أسلم جده الأعلى على يد الامام علي بن أبي طَالب كرم الله وجهه.

ذكر بشر ابتداء أمره وسبب توبته أنه وجد في الطريق كاغده مكتوب عليها اسم الله تعالى قد وطئتها الأقدام (كما نراه كل يوم حيث ترمى الصحف والمجلات وعليها الآيات القرآنية والأحاديث النبوية في الطرقات تطؤها الأقدام) فاغتم لذلك بشر وأخذها وطيبها بما معه

(١) كان أبوه احد كتبة الوالي في خراسان. قال المناوي (وأصله من رؤساء مرو) وعاش في ابتداء امره حياة مترفة.

من طيب فجعلها في شق حائط فرأى فيما يرى النائم كأن قائلا قال له يا بشر أبشر. طيبت إسمي لأطيّبن اسمك في الدنيا والآخرة.

واشتهر بشر بن الحارث بشدة ورعه وتقواه وكان يقول: الحلال لا يحتمل السرف والنظر الى البخيل يقسي القلب والدعاء ترك الذنوب، ولا تجد حلاوة العبادة حتى تجعل بينك وبين الشهوات حائطا من حديد.. وكيف يكون فيك خير وانت لا يأمنك صديقك.. ولا تكون كاملا حتى يأمنك عدوك..

وعقوبة العالم حبه للدنيا. ولم أر أفضح للانسان من بطنه.. ولا تجالس الا من يعينك على آخرتك.. وحبك لمعرفة الناس إياك رأس حب الدنيا...

بحسبك أن قوما موتى تحيا القلوب بذكرهم وأن قوما أحياء تقسو القلوب بذكرهم. وكان له شعر لطيف في الزهد ومنه هذه الأبيات:

أقسم بالله لرضخ النوى	وشرب ماء القلب المالحة
أعز للانسان من حرصه	ومن سؤال الأوجه الكالحة
فاستغن بالله تكن ذا غنى	مغتبطا بالصفقة الرابحة
اليأس عز والتقى سؤدد	ورغبة النفس لها فاضحة
من كانت الدنيا به بَرَّةٌ	فأنها يوما له ذابحة

وكان يقول: ما أقبح أن يطلب العالم فيقال هو بباب الأمير... ويقول: لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحب أن يعرفه الناس.

وكان يقول: من لم يحتمل الغم والأذى لم يقدر أن يدخل فيما يحب (من الأعمال الصالحة والزهد في الدنيا).

مر بشر رحمه الله ذات مرة ببعض الناس فسمعهم يقولون عنه: هذا رجل لا ينام الليل ولا يفطر الا في كل ثلاثة ايام مرة فبكى وقال: اني لا أذكر أني سهرت ليلة كاملة ولا أني صمت يوما ثم لم افطر من ليلته.

وكان صديقه الامام أحمد بن حنبل يقول عنه «لم يترك بشر لأحد موضعا يقف فيه. ولما مات بشر قال عنه: ما له في هذه الأمة نظير الا عامر بن عبد قيس[1] ». وقد أخذ بشر العلم عن الامام مالك والفضيل بن عياض وأحمد بن حنبل وعبد الله بن المبارك وحماد بن زيد وغيرهم كثير.

وقال: العلماء موصوفون بثلاثة أوصاف: صدق اللسان وطيب المطعم وكثرة الزهد في الدنيا.

موت التقي حيـــاة لا نفـــاد لهـــا
قـد مـات قوم وهم في الـدنـا أحيـاء

وقد اشتهر من علماء مرو (الشاهجان) **ابو بكر عبد الرحمن بن أحمد القفال المروزي المشهور بالقفال الصغير** تمييزا له عن القفال الكبير محمد بن علي بن اسماعيل الشاشي المتقدم ذكره في علماء الشاش.

اشتغل بصنع الأقفال وبرع فيها حتى بلغ عمره أربعين سنة ثم طلب العلم ونبغ فيه واشتهر وعاش للعلم أربعين سنة أخرى يدرس ويعلم ويصنف ويؤلف.. حتى صار أوحد أهل زمانه فقها وعلما..

رحل اليه الناس من كل مكان وانتشر علمه في الآفاق وهو أحد أركان مذهب الشافعي كما يقول عنه ياقوت في معجم البلدان..

رحل لطلب العلم من مرو الى العراق وتتلمذ على يد ابي العباس بن شريح شيخ الشافعية يومئذ في بغداد، وأقام عنده وأخذ عنه حتى كان شيخه يقدمه للتدريس ثم تولى رئاسة الشافعية بعد وفاة شيخه.. وانتقل في آخر حياته الى مصر وبها توفي سنة ٤١٧ هـ (١٠٢٧ م) ودفن عند ضريح الإمام الشافعي رضي الله عنهم جميعاً..

---

(١) وكان بشر يقول: فُضّل عليّ احمد بن حنبل بثلاث: طلب الحلال لنفسه ولغيره وأنا أطلبه لنفسي فقط، واتساعه في النكاح وضيقي عنه وكونه نصب اماما للعامة.

وله عدة مصنفات أشهرها شرح فروع محمد بن الحداد المصري في الفقه.

وقد نبغ من القفالين المهرة في صنع الأقفال ثلاثة تحولوا بها من صنع الأقفال الى صنع الرجال ومن حذق الصنعة في الحديد الى حذق الصنعة في الفقه والحديث وفنون المعرفة..

هؤلاء هم ابو بكر عبد الرحمن بن أحمد القفال المروزي الذي ترجمنا له آنفا.. ومحمد بن أحمد بن الحسين الشاشي القفال المولود بميافرقين وهي احدى قرى الشاش (طشقند) كان أحد أعلام الفقه الشافعي وانتهت إليه رئاسة الشافعية ببغداد وتوفي سنة ٥٠٧ هـ (١١١٣ م) والثالث هو أبو بكر محمد بن علي بن اسماعيل القفال الشاشي المشهور بالقفال الكبير...

أوحد أهل زمانه فقها وعلما وناشر لمذهب الشافعي في بلاد الشاش وما جاورها.. المتوفي سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٦ م).

وجميعهم تقع بلادهم اليوم تحت ربقة الاستعمار الروسي فيما يسمى الاتحاد السوفيتي والشاش هي طشقند عاصمة اوزبكستان في الاتحاد السوفيتي ومرو تقع في تركمنستان في الاتحاد السوفيتي فهل يا ترى يعلم أهل مرو وطشقند أمجاد آبائهم!! وهل يا ترى يستطيعون أن يقرأوا تراثهم!! وكيف يتأتى لهم ذلك وقد منع تدريس اللغة العربية بل ومنعت الكتابة والتعليم بالحرف العربي وجعلت الكتابة كلها بالحرف الروسي.. وجعل التعليم كله يدور عن ماركس ولينين وانجلز...

ومن ينسب الى مرو **عبد الله بن عثمان بن جبله الازدي بالولاء المروزي** منشأ وموطنا...

ولد سنة ١٤٥ هـ (٧٦٢ م) وأخذ علم الحديث من مشايخ هذا العلم فنبغ فيه حتى صارت الرحلة اليه.. كان حافظا متقنا للحديث ثقة..

ولاه عبد الله بن طاهر بن الحسين حاكم خراسان وفارس وما وراء النهر قضاء جوزجان فاستعفى تعففا.. وقد كان كثير من سلف هذه الأمة يرفضون تولي القضاء أو الولاية وقد رفضها الامام ابو حنيفة حتى ضرب وجلد من أجل ذلك وأدخل السجن وتوفي فيه..

وسبب رفضهم انهم كانوا يعلمون تدخل الخليفة أو كبار رجال دولته في أمر القضاء وبعضهم كان يعتقد ظلم الخليفة وأخذه الفيء لنفسه وحاشيته دون المسلمين فكان يعتبر تعاونه معهم تعاونا على الظلم.. وهكذا كان الأئمة الأربعة ابو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد جميعا رافضين للولاية والقضاء وكذلك كان غيرهم من أعلام هذه الأمة الأتقياء البررة.

وكان عبد الله بن عثمان من هؤلاء العلماء الأتقياء فلما الح عليه عبد الله بن طاهر بن الحسين في تولي قضاء خراسان استعفى...

وكان عبد الله بن عثمان من الأثرياء الكرماء الذين لا يدخرون مالا في مرضاة الله وبلغ ما تصدق به في حياته الف الف درهم.. فكان مثال العالم الزاهد السخي بعلمه وبماله.. ولم يكن يكتفي بنشر العلم لوجه الله بل كان ينفق على كثير من طلبته الفقراء المعوزين.

وهكذا كان علماء هذه الأمة الأبرار ينشرون العلم لوجه الله لا يبتغون به مالا ولا جاهاً ولا منصباً بل كانوا أشد الناس نفوراً من هذه المناصب...

وكان غنيهم يجود بماله كما يجود بعلمه.. وكان فقيرهم يتمسك بعزة نفسه ولا يطرق ابواب الخلفاء والأمراء بل يمتنع عليهم ويهرب منهم ولا يقبل عطاياهم وان قبلها وزعها في الحال على الفقراء والمعوزين.

وهكذا عاش عبد الله بن عثمان المروزي مثالاً للعالم المسلم الذي يجود بعلمه وماله ولا يبتغي في ذلك مرضاة سلطان ولا تزلفا لحاكم بل كان

شديد البعد عنهم. وكانت وفاته في مرو سنة ٢٢١ هـ (٨٣٦ م) فرضي الله عنه وعن علماء هذه الأمة الأبرار..

ومن علماء مرو محمد بن أحمد المروزي المعروف بالحزقي.. (نسب الى حزق) احدى قرى مرو التي نشأ بها واشتهر بالفقه وعلم الكلام وأقام في نيسابور احدى عواصم خراسان التي اشتهرت بمئات العلماء.. وانتقل في أخريات حياته الى قريته وتوفي بها عام ٥٣٣ هـ (١١٣٨ م).. له عدة مؤلفات في الفقه..

ومن ينسبون الى مرو اسماعيل بن الحسين بن محمد العلوي الحسيني المروزي.

نسابة زمانه.. ولد في مرو سنة ٥٧٢ هـ (١١٧٦ م) ونشأ بها وأخذ في طلب العلم واشتهر بتبحره في علوم الانساب وكان من أعرف الناس بها.. قدم بغداد سنة ٥٩٢ هـ (١١٩٥ م) وأقام بها مدة ثم عاد الى مرو.. والتقى به ياقوت الحموي صاحب معجم البلدان ومعجم الادباء في مرو سنة ٦١٤ هـ (١٢١٧ م) واثنى عليه كثيراً.

له مؤلفات كثيرة منها (حظيرة القدس) في ستين مجلدا. و(بستان الشرف) في عشرين مجلدا. (وغنية الطالب في نسب آل ابي طالب). والموجز في النسب.

كانت بينه وبين الامام فخر الرازي المفسر الفقيه الأصولي المعروف صداقة ومودة. وألف اسماعيل بن الحسين له كتابا وأسماه الفخري نسبة الى الفخر الرازي. وكانت وفاته سنة ٦١٤ هـ (١٢١٧ م) في مرو.

ومن علماء مرو المشهورين محمد بن نصر المروزي:

أصله من مرو ولد ببغداد ونشأ بنيسابور واستوطن سمرقند.. كان اماما في الفقه والحديث ومن اعلم الناس باختلاف الصحابة ومن بعدهم في الأحكام وهو ما يسمى علم (الخلاف) وهو العلم الذي يدرس اختلاف

الفقهاء منذ عهد الصحابة في المسائل الفقهية. له كتب كثيرة منها (المسند) في الحديث وكتاب (ما خالف به ابو حنيفة عليا وابن مسعود) و(قيام الليل) و(قيام رمضان) و(الوتر) والقسامة في الفقه.

كان مولده ببغداد سنة ٢٠٢ هـ (٨١٧ م) ووفاته سنة ٢٩٤ هـ (٩٠٦ م).

ومن علماء مرو الذين ينسبون اليها **أحمد بن علي بن سعيد المروزي**.. أحد حفاظ الحديث فقيه محدث... ولد بمرو ونشأ بها ثم رحل الى الشام وتولى قضاء حمص ثم قضاء دمشق وبها كانت وفاته سنة ٢٩٢ هـ (١٠٠١ م) له تصانيف ومسانيد عدة...

ومن فقهاء مرو المشهورين **الحسين بن شعيب بن محمد السنجي**:

فقيه مرو في عصره إمام في الفقه الشافعي.. له عدة مؤلفات في الفقه منها (شرح كتاب الفروع لابن حداد المصري وله كتاب (المجموع) في الفقه وشرح التلخيص لابن القاص.. وقد نقل عنه الامام الغزالي في كتاب (الوسيط)..

أخذ الفقه عن أبي بكر القفال المروزي والقاضي حسين بن محمد المروزي وابو محمد الجويني والد امام الحرمين.

ينسب الى سنج وهي احدى قرى مرو التي ولد بها ونشأ في مرو وعاش بها الى أن وافاه الأجل عام ٤٢٧ هـ (١٠٣٦ م) وقيل نيف وثلاثين وأربعمائة (ابن خلكان) بعد أن ترك ثروة علميه وذكرا طيبا بين الناس.

ومن فقهاء مرو **عبد الرحمن بن محمد بن فوران المشهور بالفوراني**.

مقدم الشافعية في مرو في عصره ولد في مرو سنة ٣٨٨ هـ (٩٩٨ م) وبها نشأ واشتهر.. ألف كثيراً من الكتب في الفقه والأصول والجدل

والملل والنحل من كتبه (الابانة) في مذهب الشافعي وكتاب (تتمة الابانة). وكانت وفاته بمرو سنة ٤٦١ هـ (١٠٦٩ م)..

أبو محمد عبد الله بن محمد بن عيسى المروزي ولد سنة ٢٢٠ هـ (٨٣٥ م) ودفن سنة ٢٩٣ هـ (٩٠٦ م) مولده ووفاته بمرو. حافظ للحديث.. عالم مرو ومفتيها وزاهدها.. رحل الى مصر وأقام بها وتفقه بالفقه الشافعي ثم عاد الى مرو فكان أول من أظهر مذهب الشافعي في خراسان.

له عدة مصنفات منها (المعرفة) في مئة جزء وهو دائرة معارف (والموطأ) وهو غير موطأ الإمام مالك.

قطب الدين ابو منصور المظفر بن ابي الحسن العبادي المروزي المعروف بالأمير:

كان من أهل مرو وله اليد الطولى في الوعظ والتذكير وحسن العبارة.. مارس هذا الفن من صغره الى كبره حتى صار ممن يضرب به المثل في الوعظ.. وصار عين ذلك العصر وشهد له الكل بالفضل.. ثم قدم بغداد وأقام فيها ثلاث سنين يعقد لها فيها مجالس الوعظ وحاز من الخلق قبولاً تاماً..

وكانت وفاته بخوزستان سنة ٥٤٧ هـ (١١٥٢ م) وحمل تابوته الى بغداد حيث دفن في الشونيزيه في حظيرة الشيخ الجنيد.

ولد سنة ٤٩١ هـ (١١٩٧ م) وسمع الحديث من أساتذته في نيسابور.. والعبادي نسبة الى سبخ عباد احدى قرى مرو.

أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الخراساني المروزي:

أصله من بلخ ولد في مرو ثم انتقل الى البصرة وبغداد.. وكانت وفاته بالبصرة سنة ١٥٠ هـ (٧٦٧ م.)

كان مشهوراً بتفسير كتاب الله العزيز.. وله التفسير المشهور. أخذ الحديث عن مجاهد بن جبير وعطاء بن ابي رباح والضحاك بن مزاحم ومحمد بن مسلم الزهري وروى عنه بقية بن الوليد وعبد الرزاق الصنعاني وعلي بن الجعد وغيرهم..

وكان يعد من العلماء الأجلاّء حتى قال عنه الإمام الشافعي: الناس كلهم عيال على ثلاثة: على مقاتل بن سليمان في التفسير وعلى زهير بن ابي سلمى في الشعر وعلى أبي حنيفة في الكلام..

وروي أن أبا جعفر المنصور كان جالساً فسقط عليه الذباب فطيره فعاد اليه والح عليه وجعل يقع على وجهه حتى أضجره فاذا بمقاتل بن سليمان على الباب فأدخله المنصور وسأله هل تعلم لماذا خلق الله الذباب؟ فأجاب: ليذل الله به الجبابرة فسكت المنصور.

واختلف علماء الحديث في درجة صحة رواية مقاتل فمنهم من وثقه ومنهم شعبة بن الحجاج ومنهم من ضعفه ووهنه بل منهم من رماه بالوضع، ومنهم وكيع وأبو داود سليمان بن الأشعث قال عنه متروك الحديث وقال عنه الإمام البخاري: مقاتل بن سليمان سكتوا عنه وقال يحيى بن معين: ليس حديثه بشيء، وقال الإمام أحمد ما يعجبني أن أروي عنه شيئاً...

أبو زيد محمد بن أحمد المروزي الفاشاني الشافعي:

كان من الأئمة الاجلاء حسن المنظر مشهوراً بالزهد وحافظاً للمذهب.. وله فيه وجوه غريبة أخذ الفقه عن أبي اسحاق المروزي.. وأخذ عنه ابو بكر القفال المروزي ودخل بغداد وحدث بها وسمع منه الحافظ الدارقطني ثم خرج الى مكة فجاور بها سبع سنين... وحدث هناك بصحيح البخاري عن محمد بن يوسف الفربري أشهر تلاميذ البخاري واكثرهم رواية عنه.

اشتهر بالزهد والعلم والتقى.. كان فقيراً في شبابه وكهولته وأقبلت عليه الدنيا في آخر عمره وقد أسنَّ وتساقطت أسنانه فكان يقول للدنيا: لا بارك الله فيك أقبلت حين لا ناب ولا صاب. وتوفي بمرو سنة ٣٧١ هـ..(٩٨١ م).

أبو عبدالله محمد بن أحمد الخضري المروزي الشافعي:

إمام مرو ومقدم فقهاء الشافعية في عصره. صحب ابا بكر الفارسي وكان من أعيان تلامذة أبي بكر القفال الشاشي.. وأقام بمرو ناشرا فقه الشافعي.. وكان يضرب به المثل في قوة الحفظ.. وله في المذهب وجوه غريبة نقلها الخراسانيون عنه.

وروي عن الشافعي رضي الله عنه أنه صحح دلالة الصبي على القبلة توفي سنة ٣٨٠ هـ (٩٩٠ م)..

أبو اسحاق ابراهيم بن أحمد المروزي:

الفقيه الشافعي امام عصره في الفتيوى والتدريس. أخذ الفتوى عن ابن سريج وبرع فيها... ولد في مرو (الشاهجان) ونشأ بها وتتلمذ على يد شيوخها ثم رحل الى بغداد وأقام بها ولازم ابن سريج فلما مات ابن سريج انتهت اليه رياسة الشافعية في العراق.. وأقام ببغداد دهرا طويلاً يدرس ويفتي.. وأنجب من تلاميذه خلقا كثيرا وإليه ينسب درب المروزي ببغداد. ثم ارتحل في اواخر عمره الى مصر وبها كانت وفاته سنة ٣٤٠ هـ (٩٥١ م) ودفن بالقرب من تربة الامام الشافعي.. له تصانيف كثيرة في الفقه منها شرح مختصر المزني.

مما تقدم يتضح للقارىء الكريم كم ساهمت مرو في انجاب علماء الاسلام من فقهاء وأدباء ومحدثين وأطباء وفلكيين..

ومرو اليوم قابعة في زاوية من زوايا النسيان تجتر همومها وهي

واقعة تحت براثن الدب الروسي في جمهورية تركمنستان..

فهل سمع اليوم عن أحد نبغ من أهل مرو؟ بل قل هل سمع اليوم أحد بمرو ولا يكاد يعرفها من المسلمين الا القليل.

وكم من المدن والقرى الرازحة اليوم تحت الاستعمار الروسي والمنسية حتى من أهلها كانت في الماضي ذات شأو بعيد في الحضارة والعلم..

فهل سمع اليوم أحد ببغ (بغشور)؟ انها قرية مجهولة من قرى خراسان بين مرو الروذ وهراة في افغانستان.. وتقع اليوم بين جمهورية تركمنستان السوفيتية وجمهورية افغانستان التي تحتلها القوات الروسية

وقد خرج منها الامام البغوي وهو الحسين بن مسعود بن محمد الفراء الملقب بمحيي السنة:

الفقيه المحدث المفسر المشهور صاحب التفسير المشهور (معالم التنزيل).. وله في الحديث مؤلفات عدة منها (مصابيح السنة) و(الجمع بين الصحيحين).. وله في الفقه الشافعي كتاب (التهذيب) ولد في بغا سنة ٤٣٦ هـ (١٠٤٤ م) وتوفي بمرو الروذ سنة ٥١٠ هـ (١١١٧ م).

كان بحرا في العلوم تفقه على يد الحسين بن محمد المروروذي الفقيه الشافعي ودفن عند شيخه الحسين بن محمد.

ومنهم المحدث الحافظ **الثقة عبد الله بن محمد بن عبد العزيز المرزبان البغوي** المولود سنة ٢١٣ هـ (٨٢٨ م).. كان محدث العراق في زمنه.. وله عدة مؤلفات منها (معجم الصحابة) و(الجعديات) وهي في الحديث وله تفسير للقرآن الكريم.. وكانت وفاته ببغداد سنة ٣١٧ هـ (٩٢٩ م).. بعد أن عمر طويلاً (مائة وأربع سنوات).

ومنهم شيخ الحرم علي بن عبد العزيز البغوي المحدث الثقة الحافظ..

انتقل من قريته بغشور واستقر به المقام في مكة وبها ظهر صيته
وعلا شأنه وبها كانت وفاته سنة ٢٨٦ هـ (٨٩٩ م).. وله (مسند).

وكم في خراسان من علماء وأفذاذ.. ونحن قد ركزنا الحديث فقط
علـى خراسان الواقعـة اليوم تحت الاستعمار الروسي فـيما يسمـى
تركمنستان..

ولم نتحدث عن خراسان الواقعة في أفغانستان ولا عن خراسان
الواقعة في ايران لأن ذلك خارج عن مقصدنا وهو ذكر أعلام الاسلام
فيما يسمى اليوم الاتحاد السوفيتي.. ولو تحدثنا عن علماء خراسان لما
كفت المجلدات.

ومن مدن التركمنستان (خراسان السوفيتية) التي سنتحدث عنها
مدينة **نسا** وهي قرية من قرى خراسان واقعة اليوم في جمهورية
تركمنستان وقد ظهر منها مجموعة من العلماء أشهرهم الإمام النسائي
صاحب السنن الكبرى وأحد كتب الحديث الستة المعتمدة عند أهل
السنة... ومنها **ابو العباس الحسن بن سفيان الشيباني النسوي** الحافظ
المحدث الفقيه ومنها **حميد بن زنجويه الأسدي النسوي** المحدث الحافظ
الذي روى عنه الأئمة البخاري ومسلم وابو داود والنسائي وابو زرعة
وعبد الله بن الامام أحمد بن حنبل وغيرهم.

ومن مدن خراسان السوفيتية المسماة تركمنستان **سرخس** التي ظهر
منهـا شمس الأئمة محمـد بن أحمد بن سهـل السرخسي صـاحـب كتـاب
(المبسوط) وهو أحـد مراجـع الفقـه الحنفي المعتمـدة. ومنهـا ظهر
عبد الرحمن بن أحمد بن محمد الزاز السرخسي الفقيه الشافعي المشهور.
ومنها شيخ خراسان في عصره أبو علي زاهر بن محمد بن عيسى السرخسي
الفقيه المحدث ومنها ابن الطيب السرخسي الفيلسوف المؤرخ الأديب
تلميذ الكندي واستاذ الخليفة المعتضد صاحب التصانيف الكثيرة

المتنوعة في الفلك وعلم الهيئة والسياسة والموسيقى والتاريخ والجغرافيا والرياضيات والجبر والهندسة والأدب والشعر والأغاني والملل والنحل...

فهل يعود يا ترى مجد الاسلام ويشرق مرة أخرى على تركمنستان واوزبكستان وقرغيزيا وطادجكستان وقازاقستان (وهي المعروفة بالتركستان الغربية تمييزاً لها عن التركستان الشرقية الواقعة - تحت الاستعمار الصيني، والمعروفة اليوم باسم سينكيانج). وأذربيجان والقوقاس والقريم وقازان؟ هل يا ترى نرى ذلك اليوم الذي يعود فيه مجد الاسلام فيضيء تلك الظلمات والغياهب التي أطبقت على هذه البلاد؟.

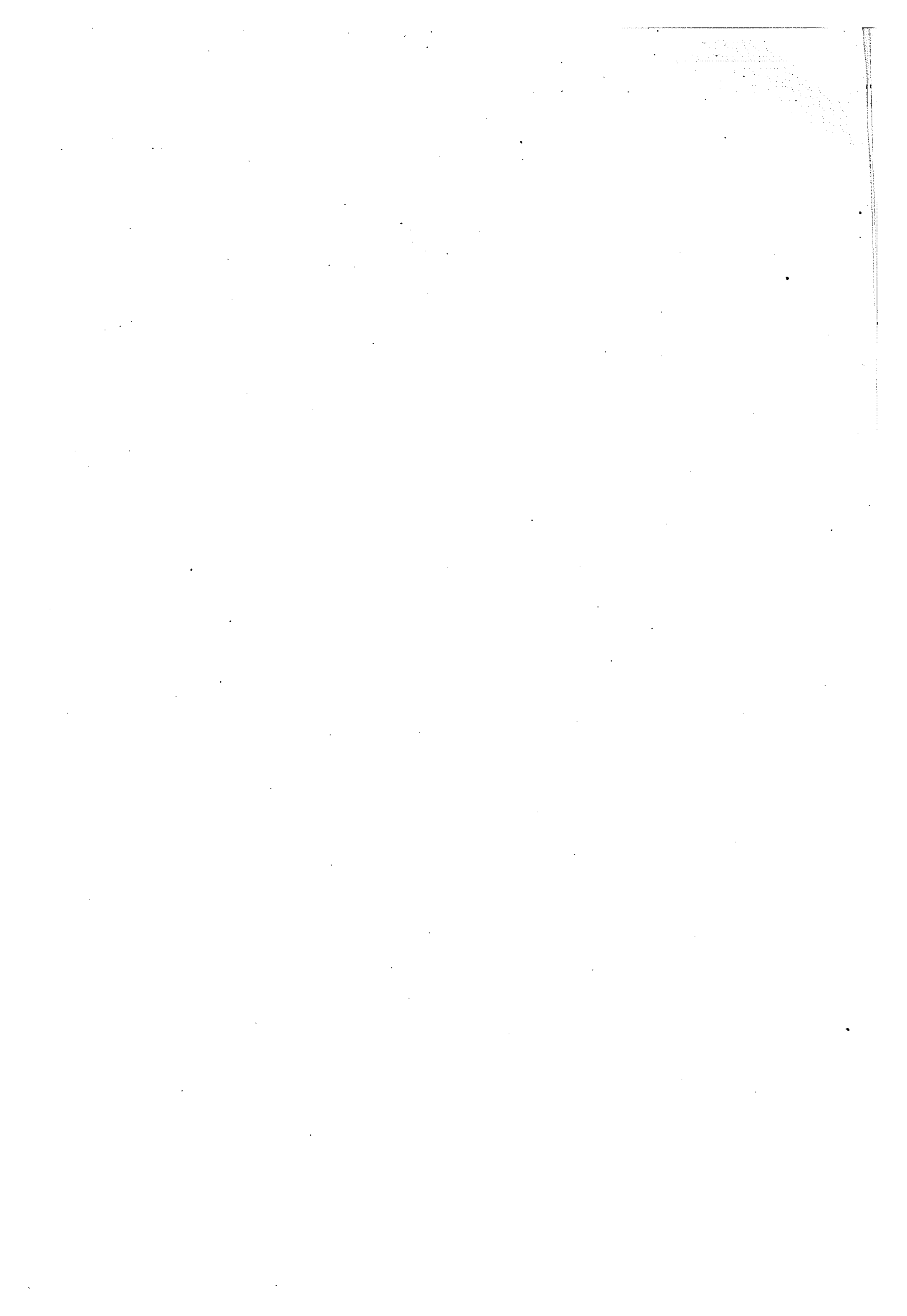
يبدو ذلك بعيدا في الوقت الحاضر ولكن بشائر العودة الى الاسلام بدأت تغزو هذه المجتمعات التي يسيطر عليها الشيوعيون سيطرة تامة...

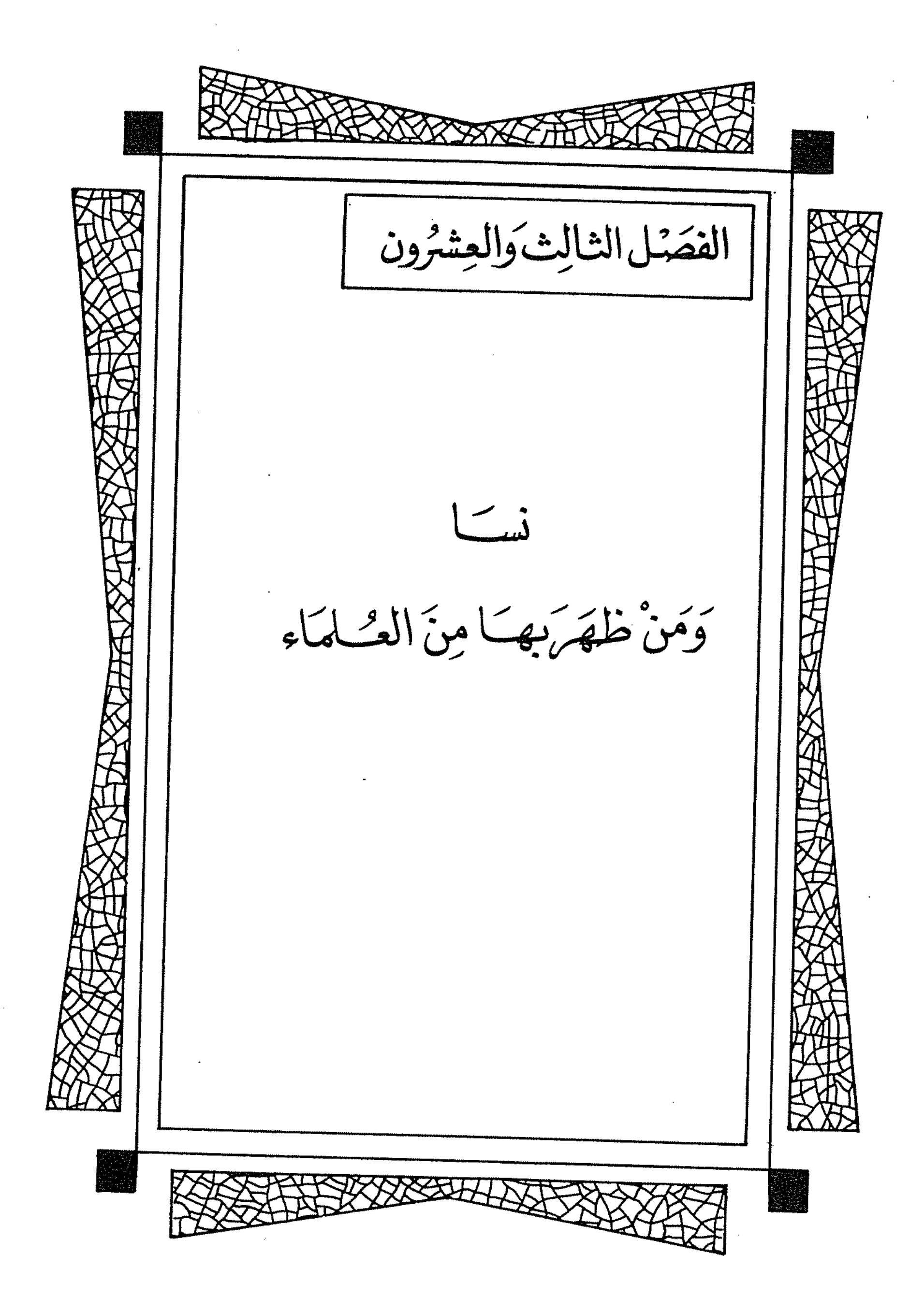
وبدأ الشباب يمارس شيئاً من العبادات الاسلامية سراً ويلتقون في اجتماعات محاطة بالكتمان لتدارس القرآن الكريم...

وأعظم هدية وأجلها في نفوس أهل تلك البلاد أن يهديهم المرء نسخة من القرآن الكريم وذلك لقلة نسخ القرآن الكريم هناك...

ولا شك أن جهداً صادقاً ينبغي أن يبذل لإعادة نور الاسلام الى تلك الاصقاع فان ظلمات الكفر والشيوعية والالحاد قد رانت عليها قرابة ثلاث أرباع القرن من الزمان... وهي مدة كافية مع البطش الشديد والتنكيل على إخفات كل صوت يدعو الى دين الله.

ومع هذا فاننا لا نيأس أبداً بل أن تباشير الفجر قد بدأت تمزق استار هذا الظلم والظلام... والله غالب على أمره ومتم دينه ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون...





الفصل الثالث والعشرون

نسا
ومن ظهر بها من العلماء

تضبط (نسا) بفتح النون والسين، وقد سميت بهذا الإسم، كما يرويه (ياقوت) في (معجم البلدان) لأن المسلمين عندما وصلوا إليها فر من وجههم الرجال، ولم يبق فيها سوى النساء والأطفال فقالوا: هؤلاء نساء، والنساء لا يقاتلن، فننسى أمرها الآن (فسميت بذلك (نسا) والنسبة إليها (نسائي) ونسوي وقد نسب اليها أفذاذ من العلماء[1].

و(نسا) مدينة (بخراسان) كما وصفها (ياقوت) بينها وبين (سرخس) يومان (وبينها وبين (مرو) خمسة أيام تقع (اليوم) مع (مرو) في جمهورية (تركمنستان) في الاتحاد السوفيتي، وهي الان خرائب على بعد خمسة أميال من عشق آباد.

وقد ذكر (ياقوت) انها مدينة وبئة، يكثر بها خروج العرق المديني، وهو نوع من الديدان كان يكثر في المدينة، ولذا نسب إليها، ويعرف علميا باسم (دراكانكولا ميدنيسيس) كما يعرف أيضاً - بدودة غينيا، وهو يكثر في المناطق، التي تعتمد في شربها على مياه الآبار (حيث

---

(١) فتح نسا: عقد عمر بن الخطاب رضي الله عنه لواء لساريه بن زعيم الكناني لفتح نسا ودار بجرد سنة ٢٣ هـ فسار اليهم وحاصرهم ثم انهم استمدوا الأمداد فجاءت اليهم أكراد فارس وفرسان الفرس من كل مكان.. وكان سارية في صحراء إن اقاموا بها أحاط بهم العدو وإن مالوا الى الجبل لم يستطع العدو الا أن يأتيهم من أمامهم.. وكان عمر يخطب على المنبر في المدينة فصاح فجأة ثلاثاً يا سارية الجبل الجبل واستغرب الناس ذلك من عمر حتى تكلم قوم في عقله. فدخل عليه عبد الرحمن بن عوف فقال لعمر إنك لتجعل لهم على نفسك مقالا بيناً أنت تخطب تصيح يا سارية الجبل اي شيء هذا؟ قال عمر: اني والله ما ملكت ذلك. رأيتهم يقاتلون عند جبل يؤتون من بين أيديهم ومن خلفهم فلم أملك ان قلت يا سارية الجبل ليلحقوا بالجبل.. فجاء رسول سارية بكتابه بعد شهر وذكر أنهم سمعوا صوت عمر يصيح يا سارية الجبل الجبل فمالوا الى الجبل وانتصر المسلمون... وهذه القصة إحدى كرامات عمر المشهورة رضي الله عنه وقد رواها كثير من ائمة الحديث بأسانيد صحيحة مثل البيهقي وابو نعيم وابن مردويه وغيرهم كما يذكر ذلك كتاب الفتوحات الاسلامية للسيد احمد زيني دحلان.

تدخل هذه الدودة في نوع من الفطر يشربه الانسان مع الماء، وتخرج الدودة المتحوصلة في المعدة، وتخترق الجدار، وتذهب الأنثى، بعد تلقيحها الى أوردة الساق والقدم، حيث تخرج عند اقتراب الانسان من الماء، وتفرز الدودة بيضها الى الماء ويقوم الأهالي - عادة بربطها بعود، ولفها عليه برفق حتى تستخرج، لأنها اذا انقطعت سببت صدمة، نتيجة افزاز السموم قد يموت بسببها المريض، وهي تعالج - الآن - بالعقاقير الطبية.

وكثيرا ما نرى هذه الدودة، وقد تكلست (أي امتلأت بالكلسيوم وهو الجير) وتظهر - عادة في الساقين، وأحياناً في الحوض، أو الصدر، أو البطن.

ولا تزال هذه الدودة منتشرة في مناطق اليمن وحضرموت، والشام، والجزيرة العربية وبخاصة في جيزان، وهي منتشرة - أيضاً - في غينيا، وفي مناطق كثيرة من العالم.

ويسميها الأهالي (العروق) وهو نفس الاسم الذي كان يستخدمه القدماء، كما ذكره (ياقوت) وأول ذكر لها، بين أيدينا، هو في التوراة (العهد القديم) حيث أصيب بها بنو اسرائيل أثناء التيه في (سيناء).

وقد ظهر من (نسا) جماعة من أعيان العلماء: منهم:

أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي النسائي القاضي الحافظ:

صاحب كتاب (السنن) كان امام عصره في علم الحديث، ولد سنة ٢١٥ هـ (٨٣٠ م)، في نسا ثم انتقل منها في طلب علم الحديث، حتى صار علما من أعلامه، وسكن مصر، وبها انتشر ذكره وعلا صيته، وتوافد عليه العلماء، ليأخذوا، ويستمعوا له، وانتقل من مصر الى فلسطين وسكن في الرملة بعد أن ضايقه الحساد في مصر، ومن فلسطين خرج للحج، فمات بمكة سنة ٣٠٣ هـ (٩١٥ م)، بعد أن ترك ثروة

ضخمة من المؤلفات في علم الحديث ورجاله، وهو مدفون بين الصفا والمروة.

روى الحديث عن: قتيبة بن سعيد، واسحاق بن ابراهيم بن حبيب، واسحاق بن شاهين وابراهيم بن سعيد الجوهري، وعيسى بن حماد، وغيرهم من مشايخ هذا العلم، وسمع في دمشق من: هشام بن عمار، ودحيم، وجماعة كثيرة، وروى عنه خلق كثير، منهم أبو جعفر الطحاوي وأبو البشر الدولابي، وأبو علي الحسين بن علي الطبراني الحافظ، وغيرهم كثير.

وأشهر مؤلفات الامام النسائي (السنن الكبرى) وهو أحد الكتب الستة المعتمدة في الحديث وهي: صحيحا البخاري ومسلم، وسنن الترمذي، والنسائي وأبي داود، وابن ماجه.

وله - أيضاً - كتاب (المجتبي) ويسمى (السنن الصغرى) وهو - أيضاً - في الحديث، وله كتاب (الضعفاء والمتروكون) في رجال الحديث، وله (خصائص علي) و(مسند علي) و(خصائص فاطمة) و(مسند مالك) وغيرها كثير.

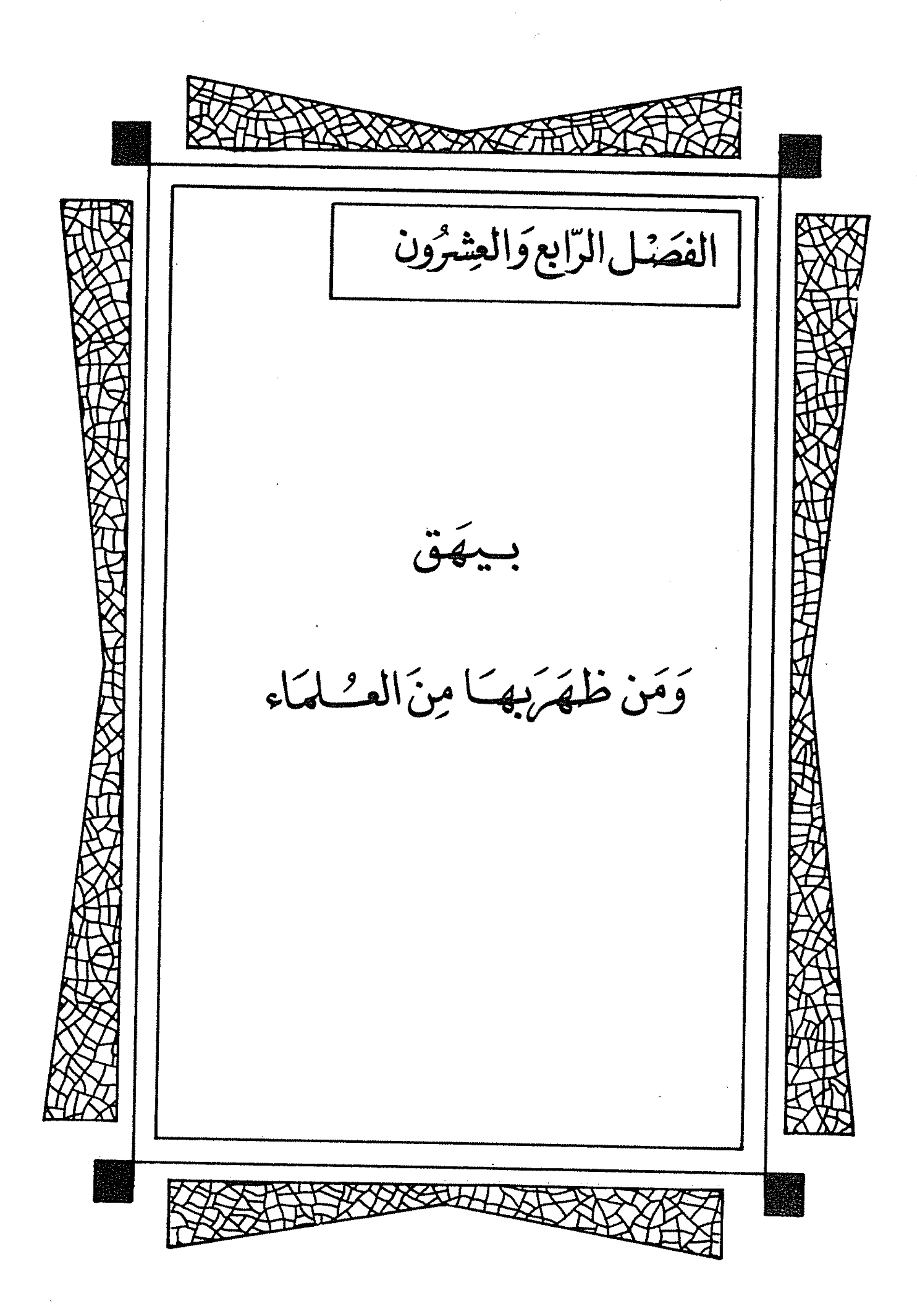
ومن ينسب الى (نسا) الحافظ ابو العباس الحسن بن سفيان الشيباني النسوي:

كان محدث (خراسان) في عصره، مقدما في الفقه والادب، وتوفي بقرية بالقرب من (نسا) تدعى (بالوز) وذلك ٣٠٣ هـ (٩١٦ م)، وهي نفس السنة التي توفي فيها الامام أحمد بن شعيب بن علي النسائي المتقدم ذكره.. ومولده في نسا سنة ٢١٣ هـ (٨٢٨ م)..

ومنهم: أبو أحمد حميد بن زنجويه الأزدي النسوي:

وهو صاحب (كتاب الترغيب) و(كتاب الأموال).

قال عنه (ياقوت): كان عالما فاضلا، سمع بدمشق هشام بن عمار، وبمصر عبد الله بن صالح وسعيد بن عفير، وبالعراق يزيد بن هارون والنضر بن شميل، وسمع من مشايخ (قيسارية بفلسطين) وحمص، وحج وسمع بمكة، وروي عنه أئمة الحديث: منهم: الامام البخاري، والإمام مسلم، وأبو داود، والنسائي، وأبو زرعة، وأبو حاتم الرازيان، وعبد الله بن الامام أحمد بن حنبل، وغيرهم من أئمة علم الحديث...



الفصل الرّابع والعِشرُون

بيهق

وَمَن ظهر بها مِنَ العُلماء

تقع بيهق على المجرى الاسفل لنهر هاري (هاري رد) وكان يسمى نهر الروذ لأن مرو الروذ تقع عليه. الذي ينبع من جبال أفغانستان والذي يشكل الحدود الشمالية بين أفغانستان وايران ثم بعد ذلك يجري في تركمنستان مشكلا الحدود بين ايران وتركمنستان. فاذا دخل نهر هاري تركمنستان تغير اسمه الى تادزهن وهنا يجد رافداً من مشهد في ايران (وهي مدينة طوس القديمة وسميت مشهد لأن بها مشهد الإمام علي الرضا).

وتقع بيهق في الجزء الواقع في تركمنستان السوفيتية حيث تزول مياه النهر الا عند اشتداد الامطار وفيضان النهر[1].

وهي غير موجودة اليوم فقد اندثرت تلك المدينة التي وصفها (ياقوت الحموي) في معجم البلدان بقوله:

بيهق اصلها بالفارسية بيهة ومعناها (الأجود) وهي ناحية كبيرة وكورة واسعة كثيرة البلدان والعمارة من نواحي نيسابور تشمل على

---

(١) وقد فتحت بيهق عندما ثارت خراسان في أول عهد عثمان رضي الله عنه وقد أرسل عثمان عبد الله بن عامر بن كريز واليه على البصرة ففتح خراسان مرة أخرى وأخضعها وقد وجه عبد الله بن عامر بن كريز أحد قواده وهو الاسود بن كلثوم العدوي الى بيهق فحاصرها ووجد ثلمة في حيطانها فدخل هو وبعض جنده من الثلمة فأحاط، به العدو واستشهد الاسود وكان الاسود يدعو الله أن يحشره في السباع والطير فتركه أخوه الأدهم بن كلثوم للسباع والطير ولم يواره.. وتولى ادهم بن كلثوم قيادة الجيش وفتح الله عليه بيهق..

وفتح عبد الله بن عامر نيسابور صلحا على الف الف درهم وولى نيسابور قيس بن الهيثم السلمي. وسيّر جيشا الى نسا وابيورد فأعادوا فتحها وتم فتحها صلحاً، وكذلك اعيد فتح سرخس بقيادة عبد الله بن خازم السلمي.

وأخضع عبد الله بن عامر هراة ومرو وطخارستان في مدة يسيرة وأعادها تحت الحكم الاسلامي.

٣٢١ قرية بين نيسابور وقومس وجوين بين أول حدودها ونيسابور ستون فرسخا وكانت قصبتها خسروجرد ثم صارت سابزوار.. وقد أخرجت هذه الكورة من لا يحصى من الفضلاء والعلماء والفقهاء والأدباء.. ومن أشهر أئمتهم:

(١) الإمام ابو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن عبد الله بن موسى البيهقي.

من أهل خسروجرد عاصمة بيهق، صاحب التصانيف المشهورة ولد سنة ٣٨٤ هـ - (٩٩٤ م) وهو الإمام الحافظ المحدث الفقيه الورع من أجل أصحاب أبي عبد الله الحاكم والمكثرين عنه - ثم فاقه في فنون من العلم تفرد بها.

رحل الى العراق وطوف في الافاق وألف من الكتب ما يبلغ قريبا من ألف جزء مما لم يسبق الى مثله. توفي في نيسابور سنة ٤٥٨ هـ - (١٠٦٦ م) ونقل جثمانه الى بيهق حيث دفن بها، صنف زهاء ألف مصنف ومن تصانيفه كتاب (المبسوط) وكتاب (السنن المشهور بسنن البيهقي) وكتاب (معرفة علوم الحديث) وكتاب (دلائل النبوة) وكتاب (مناقب الشافعي) وكتاب (البعث والنشور). وهو أول من جمع نصوص الشافعي في عشرة مجلدات. وكتاب الآداب وكتاب فضائل الصحابة وكتاب فضائل الأوقات وشعب الايمان وغيرها كثير لا يحصى. قال عنه امام الحرمين: ما من شافعي الا وللشافعي عليه منه الا البيهقي فإن له المنة والفضل على الشافعي لكثرة تصانيفه في نصرة مذهبه وبسط موجزه وتأييد آراءه. وقال عنه الذهبي: لو شاء البيهقي ان يعمل لنفسه مذهبا يجتهد فيه لكان قادرا على ذلك لسعة علومه ومعرفته بالاختلاف.

وممن نبغ من بيهق علي بن الحسين بن فطيمة البيهقي.

من أهل خسروجرد قصبة بيهق من تلاميذ الامام أبو بكر أحمد بن

حسين المتقدم ذكره وقد حرص على طلب العلم وحفظ الحديث رغم تقدم سنه فلما أصيبت يده في علة فقطعت اصابعه فكان يكتب بأصابع قدمه كتابة واضحة مقروءة. تولى القضاء في خسروجرد وبها كانت وفاته سنة ٥٣٦ هـ (١١٤١ م) - وكان مولده سنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م). وممن ينسب إليها: **اسماعيل بن الحسين بن عبد الله البيهقي**.

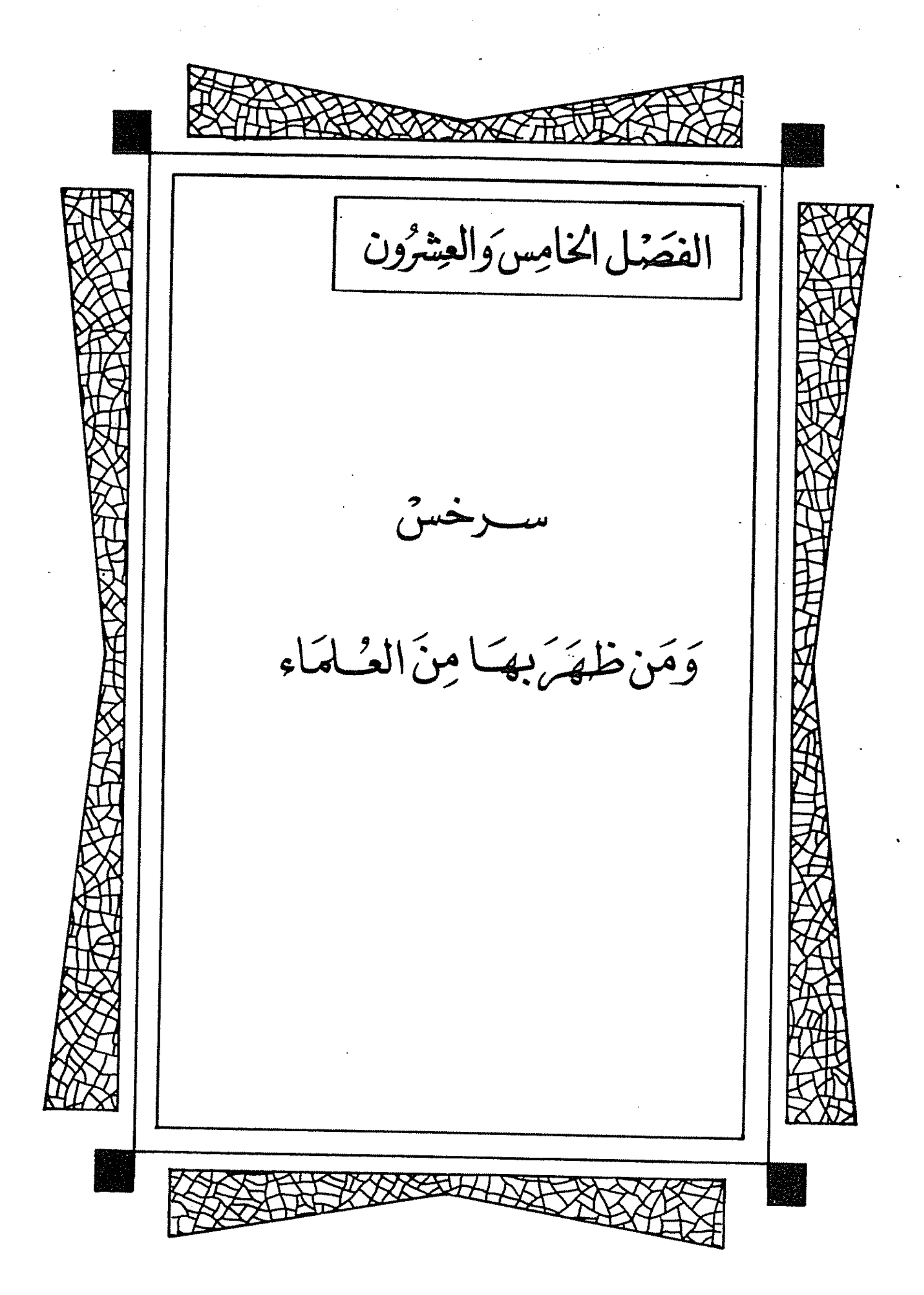
فقيه حنفي زاهد له عدة كتب في الفقه الحنفي توفي سنة ٤٠٢ هـ (١٠١١ م). له الشامل في فروع الحنفية والكفاية مختصر شرح القدوري.

وممن ينسب إليها: **أحمد بن علي بن محمد البيهقي (أبو جعفر)**.

لغوي عالم بالقراءات له (المحيط بلغات القرآن) و(تاج المصادر) توفي سنة ٥٣٣ هـ (١١٣٨ م).

ومنها **علي بن زيد بن محمد بن الحسين البيهقي** مؤرخ وفقيه وفلكي ورياضي وفيلسوف وباحث موسوعي صنف ٧٤ كتابا وتوفي سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٨ م).

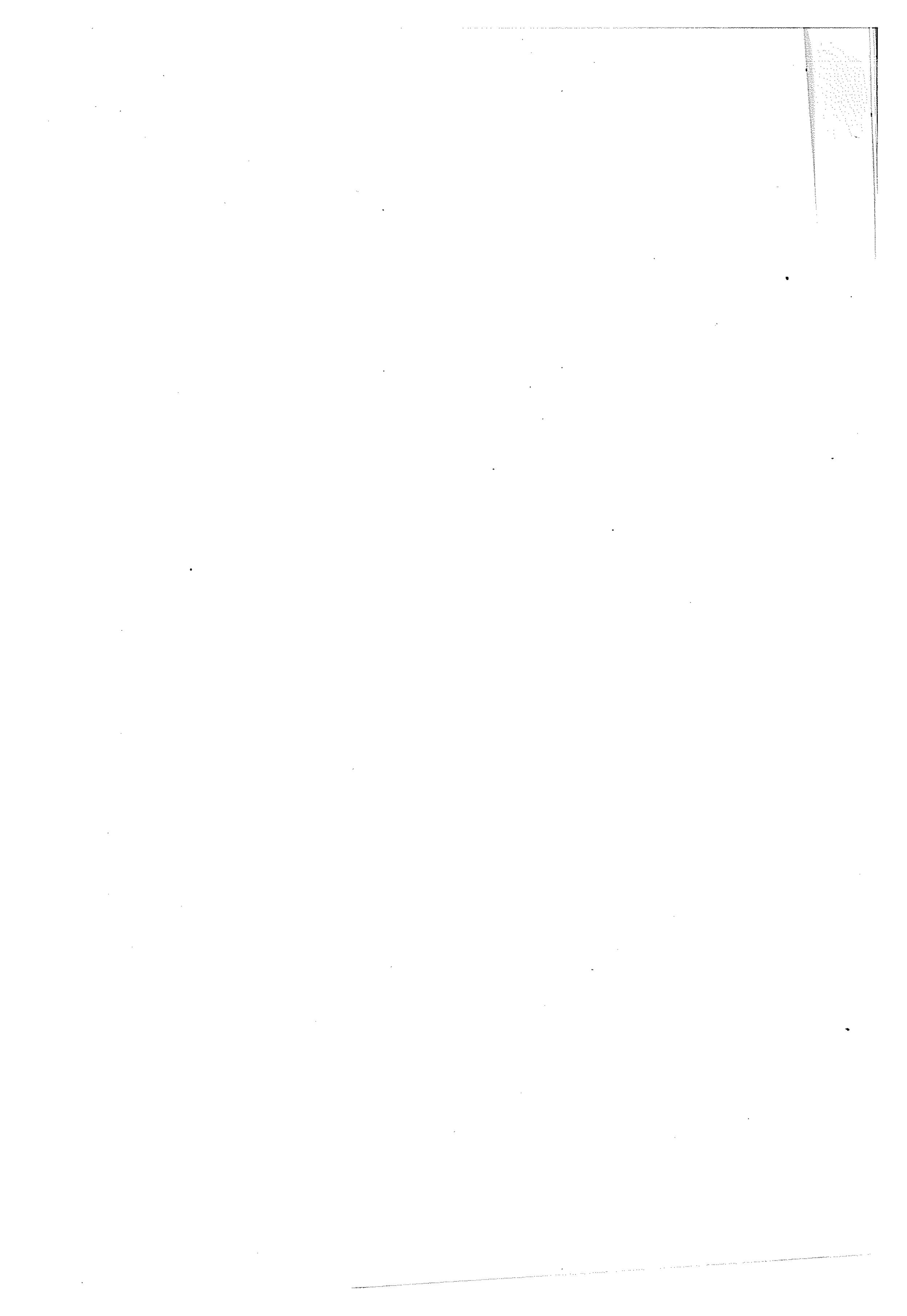
ومنها **محمد بن الحسين البيهقي (أبو الفضل)** كان كاتب الانشاء في عهد السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوي.. جميل الاسلوب له مؤلفات في التاريخ وكانت وفاته سنة ٤٧٠ هـ (١٠٧٧ م).



الفصل الخامس والعشرون

سرخس

ومن ظهر بها من العلماء



(سرخس) مدينة قديمة، من نواحي (خراسان) وهي بين نيسابور و(مرو) في وسط الطريق بينها وبين كل واحدة منهما ست مراحل، وهي تقع - الآن - في الحدود الشرقية لجمهورية (تركمنستان) في الاتحاد السوفيتي.

وصفها (ياقوت) بأنها مدينة معطشة ليس لها في الصيف الا ماء الآبار العذبة، وليس بها نهر جار، الا نهر يجري في بعض السنة، ولا يدوم ماؤه، وهو فضل مياه هراة (وهي اليوم في أفغانستان، وتكتب اليوم هرات) وهذا النهر هو نهر (هاري رد) الذي ينبع من أفغانستان ويشكل الحدود بينها وبين ايران ثم يتجه شمالا مشكلا الحدود بين ايران وتركمنستان السوفيتية (ويسمى تادزهن ويصل اليه رافد من مشهد (طوس) يسمى نهر مشهد. وينتهي عند مدينة سرخس).

والغالب، على نواحيها، المراعي، وبها زراعة قليلة.

وقد خرج منها كثير من الأئمة، ولأهلها يد باسطة في عمل المقانع، والعصائب المنقوشة المذهبة، وقد نسب إليها من لا يحصى من العلماء والفقهاء والفضلاء.

ومن انتسب إليها: **أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن محمد الزاز السرخسي**، الفقيه الشافعي، له كتاب في الفقه كبير.. أكبر من الشامل لإبن الضباغ، أجاد فيه جدا سماه (الاملاء) وقد توفي بمرو سنة ٤٩٤ هـ (١١٠٠ م).

ومنهم: **الإمام أبو علي زاهر بن أحمد بن محمد بن عيسى السرخسي**، الفقيه المحدث، شيخ عصره بخراسان، تفقه على أبي اسحاق المروزي، وقرأ القرآن على أبي بكر بن مجاهد والأدب على أبي بكر بن الأنباري،

وسمع الحديث من أبي لبيد محمد بن ادريس، وأقرانه، في (خراسان) وبالعراق، من أبي القاسم البغوي، وابن صاعد وغيرهما وتوفي سنة ٣٨٩ هـ (٩٩٩ م) عن ست وتسعين سنة.

ومنهم: أحمد بن محمد بن مروان بن الطيب السرخسي، المشهور باسم (ابن الطيب السرخسي).

فيلسوف غزير العلم بالتاريخ، والسياسة، والأدب، والفنون، ولد في (سرخس) ونشأ بها، وقرأ على الفيلسوف (الكندي) علوم الفلسفة، ونبغ بها.

وصار أستاذاً للخليفة العباسي (المعتضد) وكان يحبه كثيراً، ويقربه إليه، ويستشيره وولاه الحسبة ببغداد، ووشى به الحساد لدى (المعتضد) فغضب عليه، وقتله، وله تصانيف كثيرة، منها (كتاب السياسة)، و(المدخل الى صناعة النجوم)، و(كتاب الموسيقى الكبير) و(الموسيقى الصغير) و(المدخل الى علم الموسيقى)، وله كتاب (المسالك والممالك) و(رحلة المعتضد)، وصف فيهما البلدان وأحوالها.

وقد اعتمد على الكتاب الاخير (ياقوت الحموي) في كتابه (معجم البلدان) ونقل كثيراً من أسماء البلدان وأوصافها منه.

ولابن الطيب كتب في الرياضيات والجبر، منها: كتاب (الاثماطيقي) والجبر والمقابلة وله كتاب (فضائل بغداد وأخبارها) وكتاب (وصف مذاهب الصابئين) و(كتاب الشطرنج) و(كتاب النفس وكتاب القيان) وكتاب (الجلساء والمجالسة) في فنون الادب، وكتاب (اللهو والملاهي) في الأغاني والنوادر.

وقتل ابن الطيب سنة ٢٨٦ هـ/ (٨٩٩ م) بعد أن ترك ثروة علمية واسعة.

ومنهم: شمس الأئمة محمد بن أحمد بن سهل السرخسي، صاحب كتاب (المبسوط) وهو من أشهر كتب الفقه الحنفي، أملاه وهو سجين في (فرغانة) وكان طلبته يقفون تحت نافذة السجن، وهو يملي عليهم حتى أكمله، في ثلاثين جزءاً، وله أيضاً (شرح الجامع الكبير) وقد توفي سنة ٤٨٢ هـ (١٠٩٠ م).

ومن العلماء المنتسبين الى سرخس: **عبد الرحمن بن محمد السرخسي**، المتوفي سنة ٤٢٩/ ١٠٤٨.

اشتهر بالفقه الحنفي، وتولى القضاء بالبصرة، ومن كتبه (تكملة التجريد) في الفقه.

ومن علماء سرخس الذين نبغوا واشتهروا **عبيد الله بن سعيد السرخسي** من حفاظ الحديث توفي سنة ٢٤١ ه (٨٥٥ م).. وهو ممن روى عنهم الامام البخاري وقد روى عنه ١٣ حديثاً كما روى عنه الإمام مسلم ٤٨ حديثاً.. ويعتبر عبيد الله من أئمة الحديث في زمانه.

ومنهم: اسماعيل بن ابراهيم بن محمد السرخسي أحد أعلام الفقه والأدب شافعي المذهب وقد ألف كتابا في مناقب الامام الشافعي.. وكانت وفاته سنة ٤١٤ هـ (١٠٢٣ م).

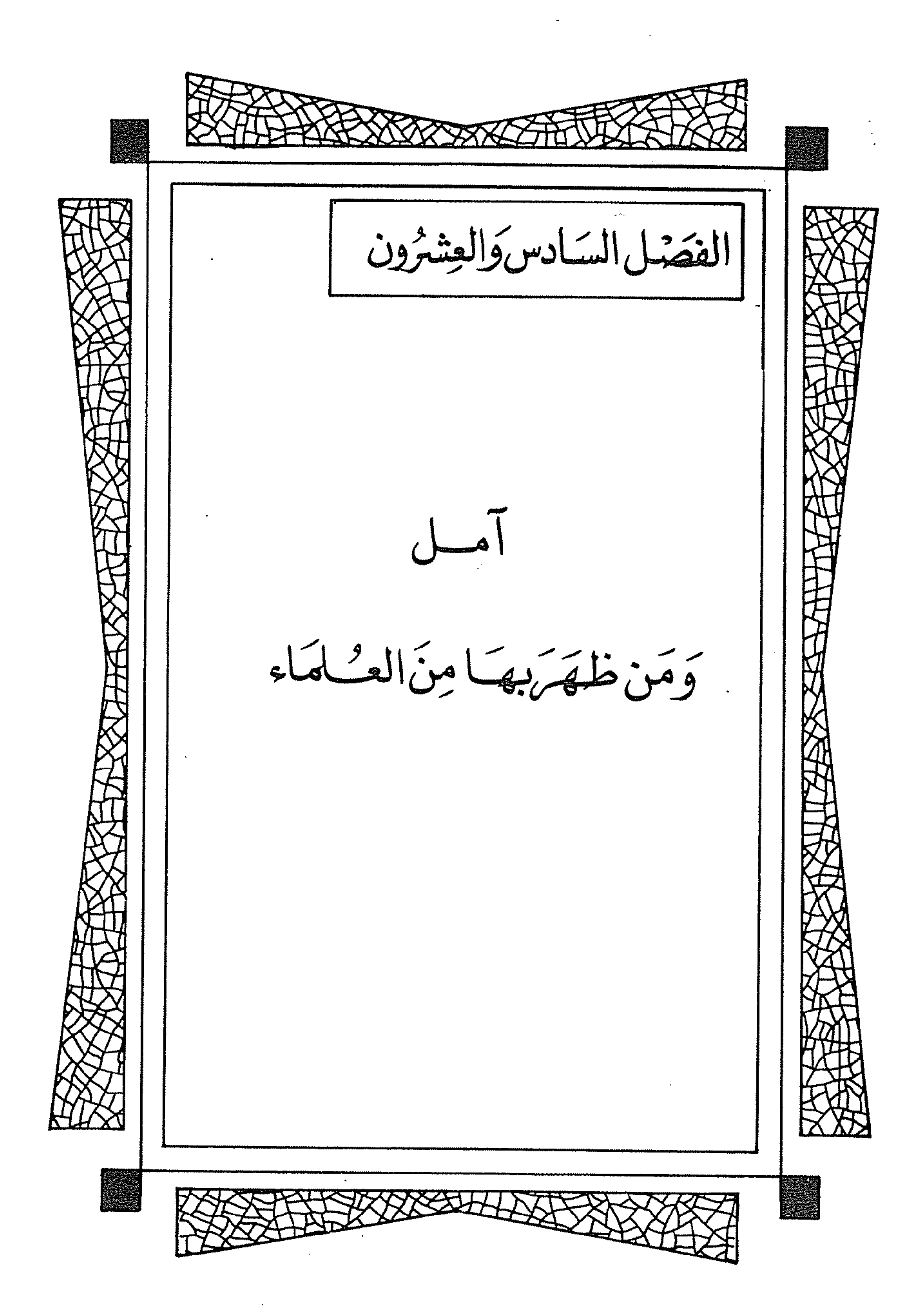
ومنهم: محمد بن محمد رضي الدين السرخسي أحد أعلام الفقه الحنفي وانتقل كما ينتقل العلماء في زمنه لطلب العلم وتعليمه وأقام مدة في حلب ثم انتقل الى دمشق وبها كانت وفاته ٥٤٤ هـ..(١١٤٩ م).

ومن قرى سرخس قرية تدعى جوين وهي غير جوين الموجودة في أفغانستان اليوم..

وينسب الى جوين سرخس أبو المعالي بن عبد الله الجويني السرخسي وقد قال عنه ياقوت (امام فاضل ورع).

ومن ينسب الى سرخس من أهل الفضل **الحسن بن سهل بن عبد الله السرخسي وأخوه الفضل بن سهل**... وكلاهما وزر للمأمون العباسي.. واشتهرا بالفضل والأدب والكرم.. وقد تزوج المأمون بوران بنت الحسن بن سهل هذا وكانت ذات جمال وأدب وكمال... ووزع في زواجها على المدعوين الاراضي وصرر الدنانير... وقد اشتهر الحسن بن سهل بالذكاء المفرط والادب والفصاحة وحسن التوقيعات.. وأصيب بالحالة السوداوية (المناخوليا) ثم شفي منها ومولد الحسن بن سهل سنة ١٦٦ هـ (٧٨٢ م) ووفاته سنة ٢٣٦ هـ (٨٥١ م) وذلك في بلدته سرخس.

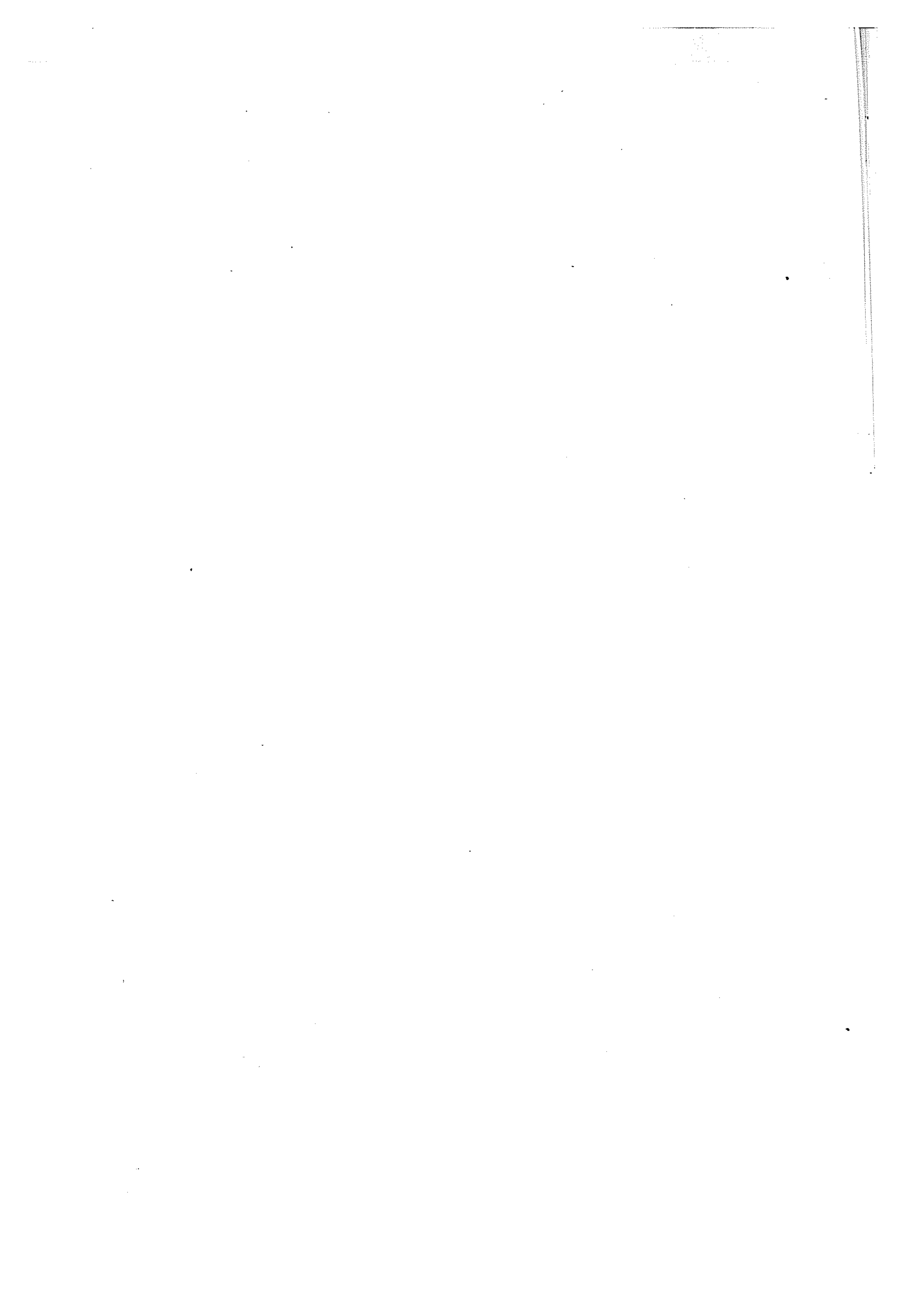
وكان الحسن وأخوه الفضل ابناء سهل من أهل بيت رياسة في المجوس وأسلما هما وأبوهما سهل في زمن الرشيد.. وبلغا أكبر المراتب لدى المأمون وقادا له الجيوش وتسنما منصب الوزارة الكبرى في عهده.



الفصل السادس والعشرون

آمل

ومن ظهر بها من العلماء



يطلق اسم آمل على مدينتين: إحدهما في طبرستان والثانية في جمهورية تركمنستان في الاتحاد السوفيتي اما الأولى فهي عاصمة طبرستان جنوب شرق بحر قزوين الذي يدعى أيضاً بحر طبرستان وبحر جرجان وبحر الديلم وبحر ابسكون لمجاورته هذه الاقاليم كما يدعى بحر الخزر لأن الخزر قوم اتبع أغلبهم اليهودية وسكنوا الشواطىء الشمالية الشرقية من بحر قزوين.. وأغلب يهود الاتحاد السوفيتي وأوروبا الشرقية منهم.. ومنهم أكثر زعماء اسرائيل مثل جولدا مائير ومناحيم بيجين.

وتقوم آمل هذه على الضفة الغربية لنهر هرهاز على بعد ١٢ ميلا جنوب بحر قزوين ويقال ان آمل هذه شيدتها آمله ابنة زغيم الديلم وزوجة الملك فيروز البلخي وقد كان لها دور عظيم في التاريخ الاسلامي وأصبحت قصبة اقليم طبرستان.. ومركزا تجاريا وصناعيا هاما.. يسكنها العديد من العلماء والتجار والصناع وتنتج مزارعها الحبوب ومختلف أنواع الفاكهة.. وقد زارها ابن حوقل الذي أرسله الخليفة العباسي المقتدر الى البلغار المسلمين وذكرها في رحلته التاريخية المشهورة وقال عنها أنها مدينة كبيرة زاهرة وأنها أكبر من قزوين ويكفي آمل فخراً أنها أخرجت لنا المفسر المؤرخ المشهور الإمام ابن جرير الطبري.. وإليها ينسب أحمد بن هارون الآملي وأبو اسحاق ابراهيم بن بشار الآملي وهما من أهل الحديث.. واسماعيل بن أبي القاسم بن أحمد السني وهو من أهل الحديث.

وقد خرّبت آمل هذه على يد مسعود بن محمود الغزنوي سنة ٤٢٦ هـ (١٠٣٤ م) ثم عادت لتتبوأ مكانها مرة أخرى ليخربها تيمورلنك في أثناء اندفاعه شرقاً وشمالا لتكوين امبراطوريته الضخمة وذلك سنة ٧٧٦ هـ

(١٣٧٤ م). ورغم أن آمل قد واجهت العديد من الزلازل والفيضانات الا أنها لا تزال مدينة عامرة الا أن آمل الحديثة تبعد عن آمل القديمة التي خربت ببضعة كيلومترات. وكانت آمل وجميع طبرستان تابعة لسلطان خوارزم وتحمل اموالها إليه ويدعى له في خطبة الجمعة الى أن هرب من التتار عندما اجتاحوا خوارزم.

وسنرجىء الحديث عن آمل هذه ومن بها من علماء طبرستان لأن أغلب من ظهر منها ينسبون الى طبرستان باسم الطبري أو الطبرسي. وطبرستان هي إقليم مازندران في شمال ايران على بحر قزوين.

والآن سنتحدث عن آمل الثانية الموجودة في جمهورية تركمنستان في الاتحاد السوفيتي وهي الواقعة على نهر جيحون والمشهورة باسم آمل جيحون..

تقع آمل جيحون على بعد ميل غرب نهر جيحون (أموداريا) في جمهورية تركمنستان السوفيتية وهي الآن خرائب وتقوم بالقرب من أطلالها وخرائبها مدينة (جارجوي) على بعد ثلاثة أميال من جيحون أي الجداول الاربعة لأنها تقوم على أربعة جداول من نهر جيحون تكون مخاضة هامة أعلى نهر جيحون بالقرب من البلدة.. وقد كانت آمل على طريق مرو بخارى ويقابلها في شرق جيحون مدينة فربر التي ينسب إليها الفربري راوي كتاب البخاري.

وتربط آمل الجديدة المسماة جارجوي سكة حديد تربطها بمرو وكراسنوفورسك الواقعة على بحر قزوين في الغرب.. وبخارى وسمرقند وطشقند في الشرق.. وتعبر السكة الحديدية نهر جيحون على جسر طويل يمتد الى الشمال الشرقي من البلدة.

وقد كانت آمل جيحون هذه تتبع ولاية خراسان بل هي جزء منها وكما أسلفنا القول فإن جزءاً كبيراً من خراسان يقع اليوم في جمهورية

تركمنستان التي تضم مرو العاصمة السابقة لاقليم خراسان كما تضم نسا وشهرستان وهي الآن خرائب وبالقرب من انقاضها تقوم العاصمة الجديدة عشق آباد، كما تضم سرخس، وآمل.. التي خربت وقام بدلا عنها مدينة جارجوي.

وكانت آمل مدينة تجارية زاهرة عامرة على الرغم من احاطة الصحراء بها من جميع الجهات وكانت ملتقى الطرق التي تصل خراسان بما وراء النهر (أي نهر جيحون) وخيوة (خوارزم) وقد أنزل اسماعيل الساماني هزيمة منكرة بمحمد بن بشير العلوي وجيشه بالقرب من آمل.. وقد ذكرت آمل كثيراً اثناء هجوم التتار الذين دمروها.. كما أنها دمرت مرة أخرى في عهد تيمورلنك..

وقد سكن آمل وما حولها قبائل الماردوي.. وتسمى آمل هذه آمل جيحون أو آمل الشط أو آمل زم أو آمل المفازة (لأنها محاطة بالصحراء) تمييزاً لها عن آمل طبرستان.. وتسمى أيضاً آموية وهي لفظة محلية ومنها أخذ نهر جيحون اسمه أموداريا.

وأما اسم جارجوي فيبدو أنه قد ظهر أيام تيمورلنك وأحفاده. فقد ذكر بابر في كتابه بابر نامة أن قلعة جارجو قد اضطرت للتسليم للاوزبك سنة ٩٠٣ هـ (١٤٩٧ م).

وكانت جارجوي تشكل معبراً هاماً لنهر جيحون في القرون الوسطى وفي عهد الاوزبك (القرن العاشر والحادي عشر الهجري) وفي العصور الحديثة.. وكانت الجسور تقام على هذا النهر لتعبر عليها الجيوش الكبيرة كما فعل نادر شاه وهو أحد مشاهير رجالات الدولة الصفوية في ايران.

وقد خضعت مرو للسيطرة الروسية سنة ١٣٠٢ هـ (١٨٨٤ م) وخضعت بالتالي آمل لنفوذهم، حل خط حديدي محل القوافل سنة

١٣٠٤ هـ (١٨٨٦ م).. وكانت لا تزال خاضعة لخان بخارى رغم النفوذ الروسي.. وأقيم سنة ١٣١٩ هـ (١٩٠١ م) جسر للسكة الحديد على نهر جيحون عند آمل هذه (جارجوي) فازدادت أهميتها وأقام بها قائد عسكري روسي باذن من خان بخارى.. ثم اجتيحت واحتلت احتلالا كاملا بسقوط بخارى عام ١٣٤١ هـ (١٩٢٢ م) ومنذ عام ١٣٤٣ هـ (١٩٢٤ م) أصبحت مركزاً صناعياً وادارياً هاماً في ظل النظام الروسي البلشفي وفي سنة ١٣٧٥ هـ (١٩٥٥ م) أصبحت جارجوي ثاني مدينة في تركمنستان وعاصمة لاقليم أوبلاست.. وزاد عدد سكانها الى ما يقرب من ربع مليون نسمة أغلبهم روس صقالبة أما السكان الاصليون فقد طردوا منها.. وهكذا جعل الروس أهل البلدة التركمان أقلية في وطنهم.

وأصبحت جارجوي الجديدة مدينة روسية في مظهرها وتقاليدها وسكانها أما جارجوي القديمة فتدعى الآن كاكا نوفيتشك وهي على بعد خمسة أميال من جارجوي الحديثة..

وسكانها بضعة الآف فقط وهم من التركمان والاوزبك.. والمساحة الكلية لناحية جارجوي هي ٣٦ ألف ميل مربع تقع في تركمنستان الشرقية وتمتد بين نهر جيحون (أموداريا) وصحراء قرة قوم.. وهي منطقة زراعية خصيبة تشتهر بتربية دود القز لصناعة الحرير وفلاحة البساتين ومزارع القطن والكروم.. وتربية الماشية.

وقد **أخرجت آمل جيحون** الموجودة أطلالها في تركمنستان جماعة من أهل العلم.. وقد نبه العلماء الى أنهم من **آمل جيحون** حتى يفرقوا بينهم وبين من ينسبون الى آمل طبرستان المتقدم ذكرها.. **ومنهم عبد الله بن حماد بن ايوب بن موسى الآملي** أخذ الحديث عن جماعة من أهل الحديث منهم يحيى بن معين أحد شيوخ علم الحديث.. وروى عنه

جمع غفير منهم الهيثم بن كليب الشاشي و محمد بن المنذر بن سعيد الهروي وكانت وفاته سنة ٢٦٩ هـ (٩٠٨ م).. ومنهم **عبد الله بن علي الآملي** من رجال علم الحديث أيضاً ومنهم **خلف بن محمد الخيام الآملي. وأحمد بن عبد الله الآملي**، وموسى بن الحسن الآملي، والفضل بن سهل الآملي. وأبو سعيد محمد بن أحمد بن علوية الآملي. واسحاق بن يعقوب بن اسحاق الآملي، وأبو العباس الفضل بن أحمد الآملي وجميعهم من رواة الاحاديث وحفاظها...

الفَصْل السَّابع وَالعِشْرُون

شهرسْتَان

وَمَن ظهر بها مِنَ العُلماء

ذكر ياقوت في معجم البلدان ان اسم شهرستان قد أطلق على ثلاث مدن.. واللفظة فارسية وشهر تعني المدينة وستان تعني الناحية ومعناها ناحية المدينة.

وهذه المدن التي اشتهرت باسم شهرستان هي:

الأولى: **شهرستان قصبة (عاصمة) اقليم سابور في فارس** وذكر ياقوت انها مدينة عامرة آهلة طيبة كثيرة الخيرات وبها بساتين كثيرة وعيون غزيرة ومساجد محفوظة ولها أربعة أبواب والنهر دائر على المدينة كلها.. وفي طرفه المدينة القلعة التي تعرف باسم دنبلا وقد لاحظ ياقوت أن أطرافها بدأ يدب إليها الخراب.

الثانية: **شهرستان في اصبهان (وهي مدينة جي)**.. وكلاهما الان في ايران.

أما الثالثة: **فهي شهرستان الموجودة اليوم في جمهورية تركمنستان** في الاتحاد السوفيتي وهي من خراسان الواقعة تحت الاستعمار الروسي.. وقد دخلها الروس عام ١٢٩٩ هـ (١٨٨١ م) ومنذ ذلك الحين وهي ترزح تحت حكم القياصرة في موسكو سواء كانوا بيضا أم حمرا.

وهذه الثالثة وصفها ياقوت وقال: انها بلد بالقرب من نسا وبينهما ثلاث أميال في اقليم خراسان بين نيسابور وخوارزم..

واذا بحثت في الخرائط والكتب فلن تجد هذين الاسمين أبداً. فقد خربتا منذ دخول الروس تخريبا كاملا.. ولا يوجد من هاتين المدينتين اللتين انجبتا العديد من العلماء والفحول [مثل الإمام أحمد بن شعيب

والنسائي صاحب السنن الكبرى والحافظ أبي العباس الحسن بن سفيان الشيباني النسوي محدث خراسان في عصره وحميد بن زنجوية الاسدي النسوي صاحب كتاب الترغيب وكتاب الأموال ومحمد بن أحمد النسوي المؤرخ ومن علماء شهرستان الذين طبقت شهرتهم الافاق **محمد بن عبد الكريم بن أحمد الشهرستاني** المتكلم الفقيه الفيلسوف صاحب الكتاب المشهور الملل والنحل] لا يوجد من هاتين المدينتين سوى الخرائب والاطلال.

والى جانبها قامت مدينة **عشق آباد** (تكتب أحياناً أشخباذ وهي عاصمة جمهورية تركمنستان في الاتحاد السوفيتي.. ولربما لو سألت اهل المدينة عن نسا وشهرستان الواقعتان بجوارها بما عرفوها.. ذلك لأن الروس حريصون على طمس المعالم الاسلامية في تلك الجمهورية وفي جميع الجمهوريات الواقعة تحت براثينهم..

وقد وصف **ياقوت شهرستان** أثناء فراره من الزحف المغولي فقال: (رأيتها سنة ٦١٧ هـ وقت هربي من خوارزم من التتر الذين وردوا وخربوا البلاد فوجدتها مدينة ليس بقربها بستان ومزارعها بعيدة والرمال متصلة بها وقد شرع الخراب فيها وقد جلا أكثر أهلها من خوف التتر) ولكن شهرستان عادت الى الوجود بعد هجوم التتار القدامى ولكنها اختفت من الوجود بعد هجوم التتار المحدثين أعني الروس الذين أبادوا الأخضر واليابس وأجهزوا على الحضارة الاسلامية ومنعوا كل ذكر للاسلام وأهله.

وقد كانت شهرستان ونسا وما **حواليها** خاضعة لسلطان أمراء خوارزم منذ القرن الخامس الهجري الى القرن العاشر الهجري عندما ظهرت دولة الاوزبك القوية فسيطرت على هذه المنطقة طوال القرنين

العاشر والحادي عشر الهجري (السادس والسابع عشر الميلادي) وكانت تعرف باسم طاغ بيو أي جانب الجبل تمييزا لها عن خوارزم التي كانت تعرف باسم صوبيو أي جانب الماء لأن خوارزم وهي كركانج أو الجرجانية كانت تقع على نهر جيحون (أموداريا).. واشتهرت هذه المنطقة في القرن الماضي (التاسع عشر الميلادي) باسم آخال تكة على اسم القبيلة التركية التي أقامت بها.

ومنذ عام ١٢٩٩ هـ (١٨٨١ م) الى اليوم وهي خاضعة لحكم الروس.. وقد دب إليها الخراب منذ ذلك الحين.. وقامت محلها مدن جديدة مرتبطة بالنفوذ الروسي هي عشق آباد وهي عاصمة تركمنستان اليوم.. وقزيل عروت..

واختفت كثير من المدن الاسلامية الهامة بدخول الروس حتى مرو ذات المجد الباذخ والتاريخ المجيد توارت وقبعت في زاوية تجتر همومها منذ أن ابتليت بالاستعمار الروسي.

وأشهر من ظهر من علماء شهرستان هو **محمد بن عبد الكريم بن أحمد الشهرستاني** المتكلم الفيلسوف الفقيه. ولد هذا العالم في شهرستان سنة ٤٦٩ هـ (١٠٧٦ م)ودرس العلوم المنتشرة في زمنه ورحل الى نيسابور ليأخذ الفقه على يد أحمد الخوافي وأبي النصر القشيري وقرأ الأصول على أبي القاسم الانصاري وسمع الحديث على ابن الحسن علي بن أحمد بن محمد المدائني.

ودخل خوارزم واتخذ بها دارا واشتهر بها حيث كان يلقي دروسه في مدارسها وجوامعها المختلفة.. ثم انتقل الى خراسان والتقى بمحمود الخوارزمي مؤلف كتاب تاريخ خوارزم الذي أعجب به وبعلمه وقال عنه أنه أهل للإمامة لولا انتصاره لمذهب الفلاسفة وتعصبه لآرائهم ودارت بينه وبين محمود الخوارزمي هذا محاورات ومناظرات بديعة.. وأنكر عليه مذهبه الفلسفي وخروجه في ذلك على أهل السنة والجماعة

ومع ذلك ذكر فضله وعلمه وشهد له بسعة علمه وطيب معشره وحسن محاضرته ولطيف محاورته[1].

وعاد الى خوارزم مرة أخرى ثم خرج منها للحج سنة ٥١٠ هـ (١١١٦ م) ثم أقام في بغداد ودرس في المدرسة النظامية أشهر جامعات القرون الوسطى على الاطلاق، وله تصانيف عديدة أشهرها كتاب (الملل والنحل) وهو مطبوع مع كتاب ابن حزم (الفصل في الملل والاهواء والنحل) وله كتاب (غاية المرام في علم الكلام) (ونهاية الاقدام) وهو أيضاً في علم الكلام وله (تلخيص الاقسام لمذاهب الانام) (ودقائق الاوهام) وكتاب (الارشاد الى عقائد العباد) وكتاب (المبدأ والمعاد) وكتاب (الاقطار في علم الاصول) وكتاب (شرح سورة يوسف).

ومن كتبه يبدو تخصصه في دراسة انواع الملل والنحل التي عرفت بين بني البشر وهو واسع الاطلاع عميق الفهم لطيف العبارة.. وكانت، وفاته بشهرستان سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م).

---

(١) انظر معجم البلدان لياقوت الحموي مادة شهرستان...

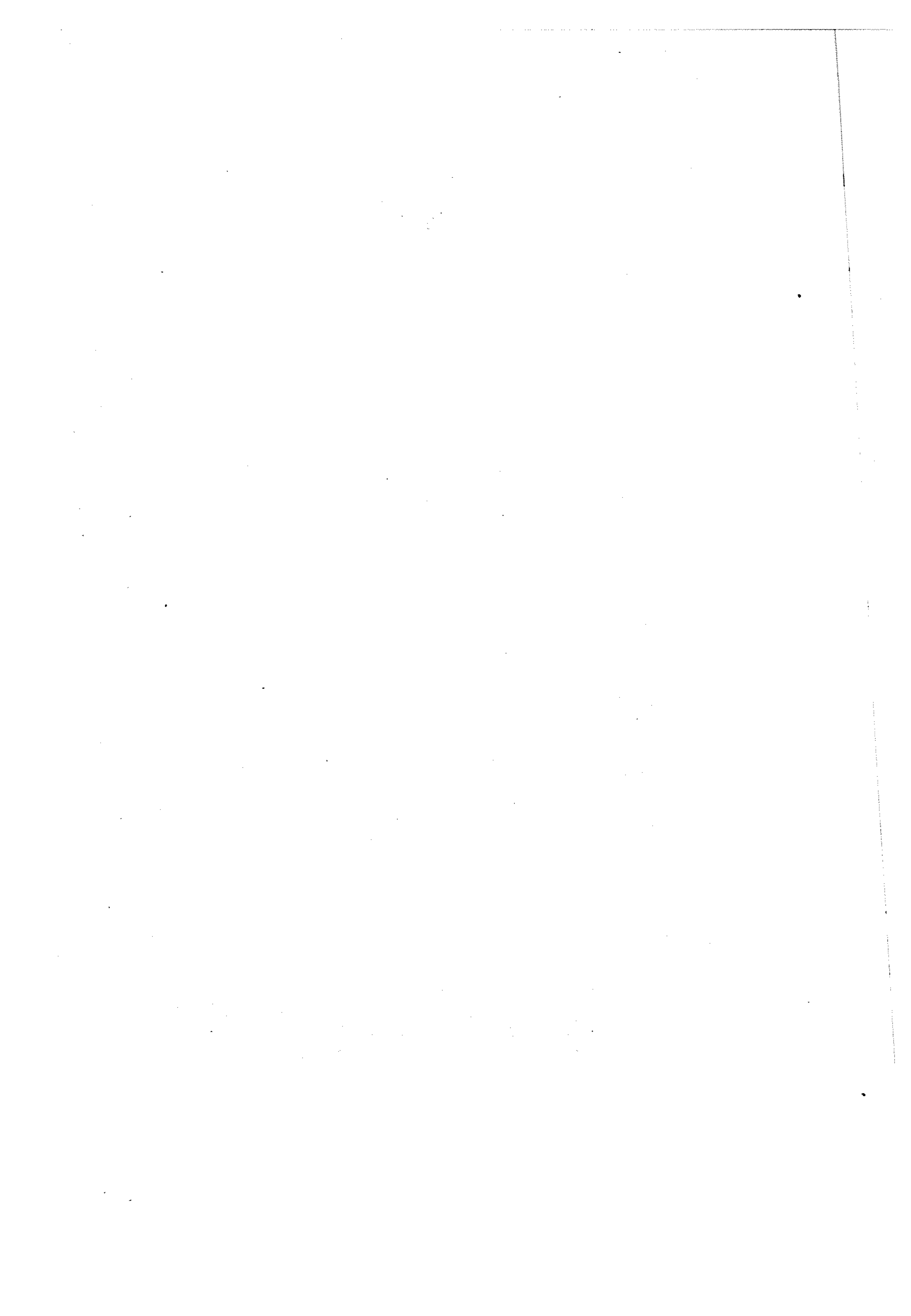


مراجع الكتاب

أولاً : المراجع العربيّة

ثانيًا : المجلاّت

ثالثًا : المراجع الأجنبيّة



أولاً: المراجع العربية

الرقم	اسم المؤلف	اسم الكتاب	الناشر
١	ابن خلكان (أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان)	وفيات الأعيان وأنباء ابناء الزمان	مكتبة النهضة المصرية
٢	ابن أبي أصيبعة (أحمد بن القاسم السعدي الخزرجي)	عيون الأنباء في طبقات الاطباء	دار مكتبة الحياة (بيروت)
٣	ابن بطوطة (محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي)	رحلة ابن بطوطة	دار التراث (بيروت)
٤	ابن سيناء (ابو علي الحسين بن علي بن سيناء)	القانون في الطب	دار صادر (بيروت)
٥	أحمد بن زين الحبشي	شرح العينية نظم الإمام عبد الله الحداد	المطبعة العصرية حلب
٦	أحمد بن زيني دحلان	الفتوحات الإسلامية	المكتبة التجارية الكبرى
٧	أحمد طلعت	المسلمون في روسيا	
٨	أحمد شاكر	مقدمة الجامع الصحيح للإمام الترمذي	دار النشر للجامعيين
٩	د. أحمد محمود الساداتي	تاريخ الدول الاسلامية بآسيا وحضارتها	دار الثقافة/ القاهرة

الرقم	اسم المؤلف	اسم الكتاب	الناشر
١٠	البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر)	فتوح البلدان	دار الكتب العلمية (بيروت)
١١	بارتولد (فاسيلي فلادمير) ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم	التركستان من الفتح العربي الى الغزو المغولي	المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب /الكويت
١٢	بارتولد (فاسيلي فلادمير) ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم	محاضرات في تاريخ آسيا الوسطى	
١٣	بارتولد ومجموعة من المستشرقين	دائرة المعارف الاسلامية	كتاب الشعب القاهرة
١٤	بسام العسلي	قتيبة بن مسلم	دار النفائس
١٥	د. حسن أحمد محمود	الاسلام في آسيا الوسطى	الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٦	خير الدين الزركلي	الاعلام (الطبعة الثالثة)	بيروت (المؤلف)
١٧	عيسى ~~اليالتكين~~ أليب تيكين	قضية تركستان الشرقية	مؤسسة مكة للطباعة
١٨	د. فؤاد عبد المعطى الصياد	المغول في التاريخ	دار النهضة العربية

الرقم	اسم المؤلف	اسم الكتاب	الناشر
١٩	عبد الرحمن حسني حنبكة الميداني	الكيد الأحمر	دار القلم (بيروت)
٢٠	د. علي المنتصر الكتاني	المسلمون في المعسكر الشيوعي	رابطة العالم الاسلامي (مكة)
٢١	لوثروب باضافات شكيب أرسلان	حاضر العالم الاسلامي	دار الفكر (بيروت)
٢٢	فامبري (أرمانيوس) ترجمة أحمد محمد الساداتي وتقديم يحيى الخشاب	تاريخ بخارى	وزارة الثقافة والارشاد القومي القاهرة - المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر
٢٣	محمد الغزالي	الاسلام في وجه الزحف الأحمر	المختار الاسلامي (القاهرة)
٢٤	محمد صفوت السقا	المسلمون في الاتحاد السوفيتي	رابطة العالم الاسلامي (مكة)

الرقم	اسم المؤلف	اسم الكتاب	الناشر
٢٥	محمد أسد، شهاب	كفاح تركستان ضد الاستعمار الروسي	مؤسسة دار الصادق للنشر (بيروت)
٢٦	محمد فريد بك المحامي	تاريخ الدولة العلية العثمانية.	دار الجيل (بيروت)
٢٧	محمود شاكر	تركستان	دار الارشاد (بيروت)
٢٨	محمود شاكر	المسلمون تحت السيطرة الشيوعية	منشورات المكتب الاسلامي (بيروت)
٢٩	محمود شاكر ومجموعة من المؤلفين	الجغرافية الاقليمية للعالم الاسلامي	وزارة المعارف السعودية
٣٠	محب الدين الخطيب	تعريف بالإمام البخاري كتاب الأدب المفرد للإمام البخاري	
٣١	النرشخي (محمد بن جعفر)	تاريخ بخارى	دار المعارف (مصر - القاهرة)
٣٢	ياقوت الحموي	معجم البلدان	دار بيروت للطباعة والنشر

الرقم	اسم المؤلف	اسم الكتاب	الناشر
٣٣	د. ياسين أحمد ابراهيم درادكه	تحقيق كتاب حلية العلماء للامام ابي بكر محمد بن أحمد الشاشي القفال	مؤسسة الرسالة دار الارقم – عمان
٣٤	مذكرة المجلس الاسلامي الاوربي الى مؤتمر الأمن والتعاون الاوربي بمدريد في ١١/ ١١ / ١٩٨٠ (صورة من رابطة العالم الاسلامي) مكة المكرمة	المسلمون في الاتحاد السوفيتي:	
٣٥	آثار الاسلام التاريخية في الاتحاد السوفيتي	صادر عن الادارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وكازاخستان – طشقند	
٣٦	د. عادل طه	المسلمون في العالم (أضواء على مشاكلهم وتوزيعهم)	دار البحوث العلمية (الكويت)
٣٧	د. سعد مصلوح	المسلمون بين المطرقة والسندان	دار البحوث العلمية (الكويت)
٣٨	مصطفى مؤمن	قسمات العالم الاسلامي المعاصر	دار الفتح (بيروت)

الرقم	اسم المؤلف	اسم الكتاب	الناشر
٣٩	لويس معلوف	المنجد في اللغة والأدب والعلوم (الطبعة التاسعة عشرة)	المطبعة الكاثوليكية (بيروت)
٤٠	تقي الدين الندوي المظاهري	الامام البخاري	دار القلم (الطبعة الثانية)
٤١	أحمد السعيد سليمان	تاريخ الدول الاسلامية ومعجم الاسر الحاكمة	دار المعارف بمصر

ثانيًا: المجلات

المجلات	العدد
١ - مجلة الشئون السوفيتية. اصدار معهد دراسة الشئون السوفيتية (ميونيخ) الشعوب الاسلامية في الاتحاد السوفيتي و «الاسلام في الاتحاد السوفيتي»	١٩٦٠/٤ و٢٧ و٢٨ سنة ١٩٧٠
٢ - مجلة الاسبوع العربي (ترجمة المسلمون المنسيون في الاتحاد السوفيتي للمؤلفين بنجينسن ولومرسييه)	١١٦٥ الى ١١٩٤
٣ - جريدة المدينة من هو ابن فضلان عبد القدوس الانصاري	٥٤٨١
جريدة المدينة المسلمون في الجمهوريات السوفيتية	٥٢٩٧
جريدة المدينة المسلمون السوفيت	٥٤١٦
جريدة المدينة نظرة على المسلمين في الاتحاد السوفيتي	٥٢٤٧
جريدة المدينة الاسلام الرسمي وغير الرسمي في الاتحاد السوفيتي	٥٣٤٨
٤ - مجلة الأمة المسلمون في الاتحاد السوفيتي أحمد عناني	صفر سنة ١٤٠٢هـ(فبراير ١٩٨٢)
مجلة الأمة الامام شامل بقلم عبد الكريم مشهداني	شعبان سنة ١٤٠١هـ

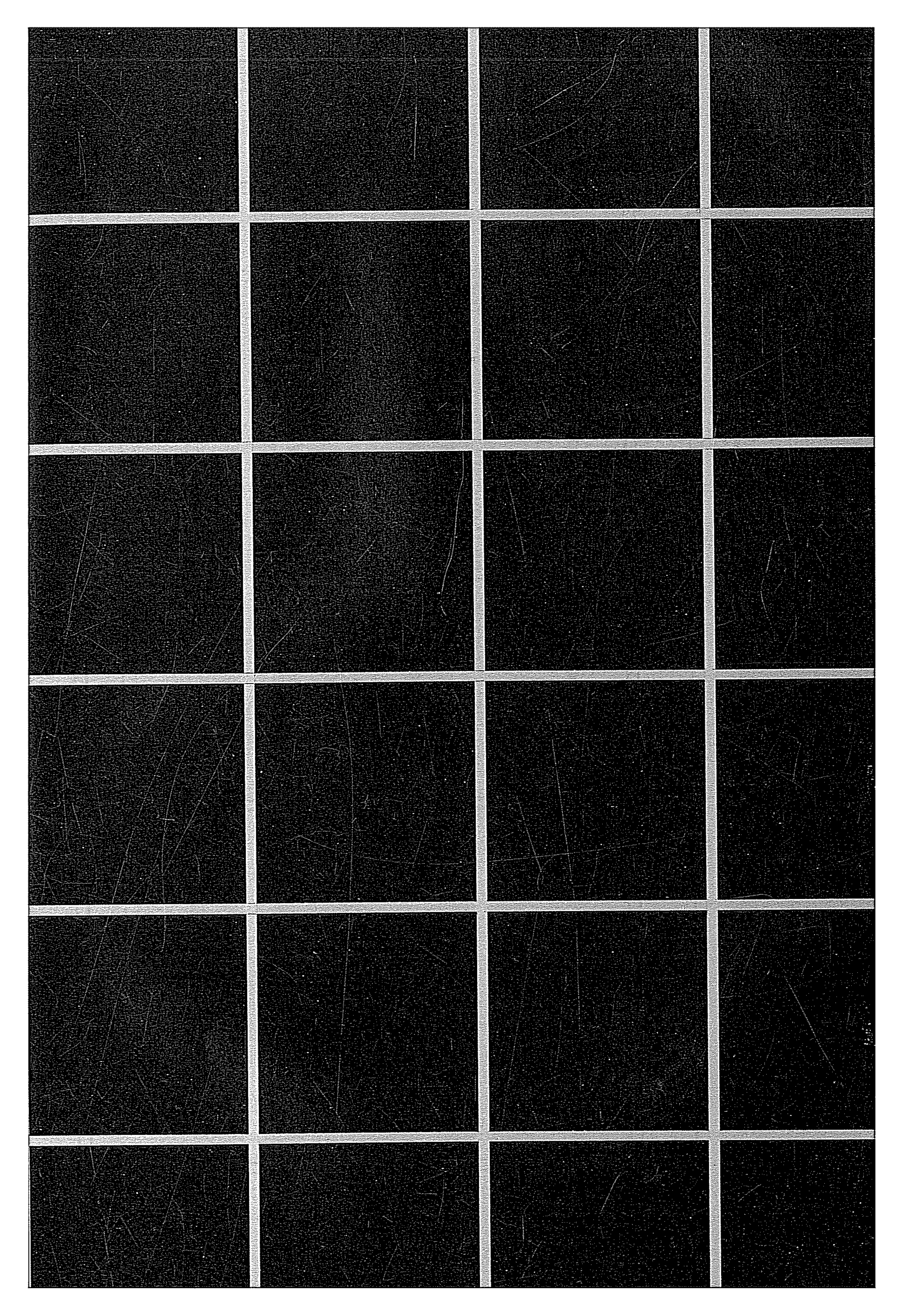
المجلات	العدد
٥ - مجلة العربي نزهة الأفئدة والنفوس في معرفة احوال الروس. بقلم حسين أحمد أمين.	٢٧٧ ديسمبر عام ١٩٨١م.
٦ - المجلة العربية فتوح ارمينية بقلم اللواء محمود شيث خطاب.	
٧ - مجلة رابطة العالم الاسلامي: التركستان فتحي الجندي	شوال سنة ١٤٠١هـ.

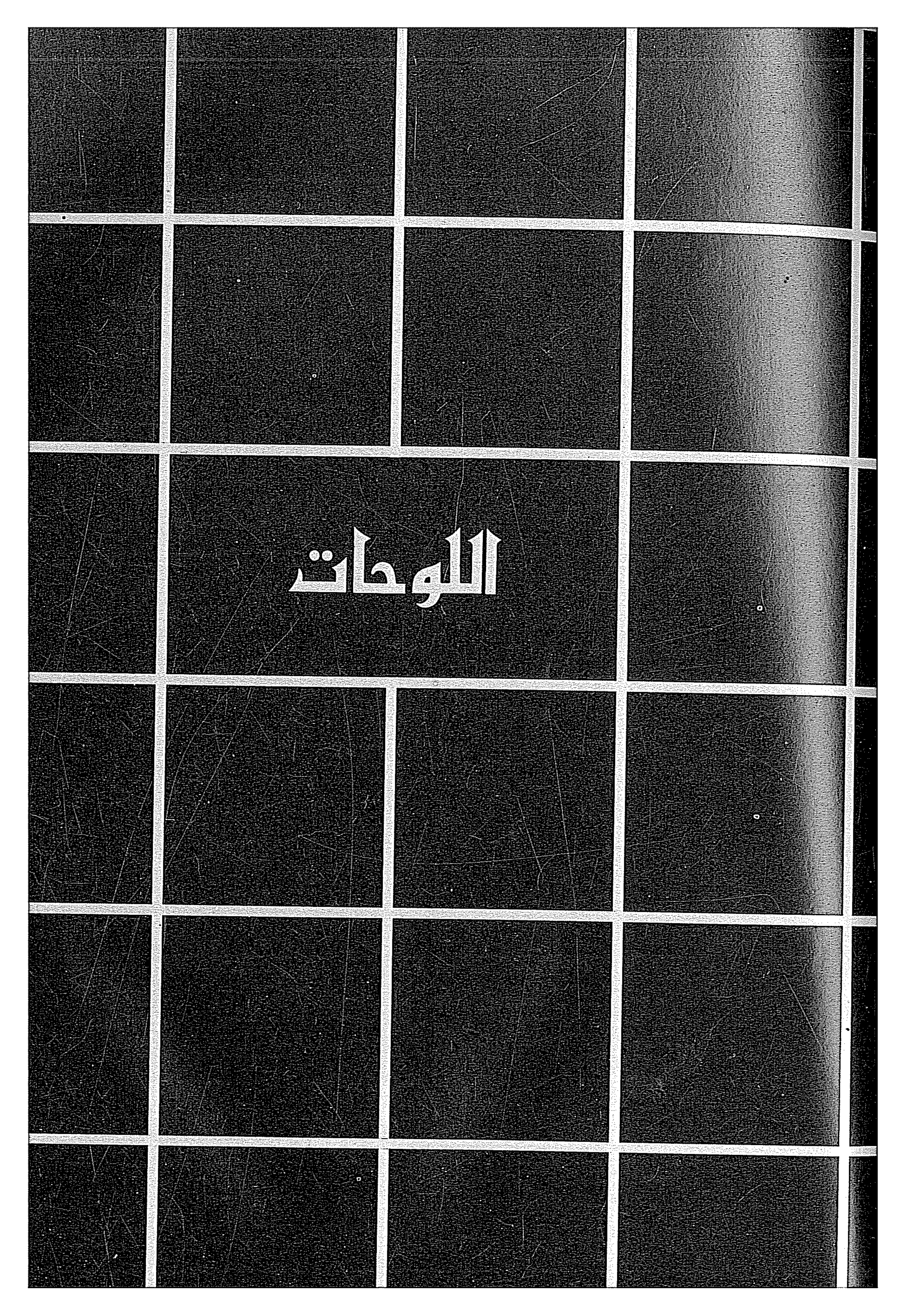
ثالثاً : المراجع الأجنبيّة

1– Arabia the Islamic World Review, Feb. 1982– «The Russia File»., December 1982 (p 14 – 15)

2– Ivar Spector The Souviet Union and the Moslem World (1917–1958), Published by University Washington Press, Seattle.
From 337 to 340.

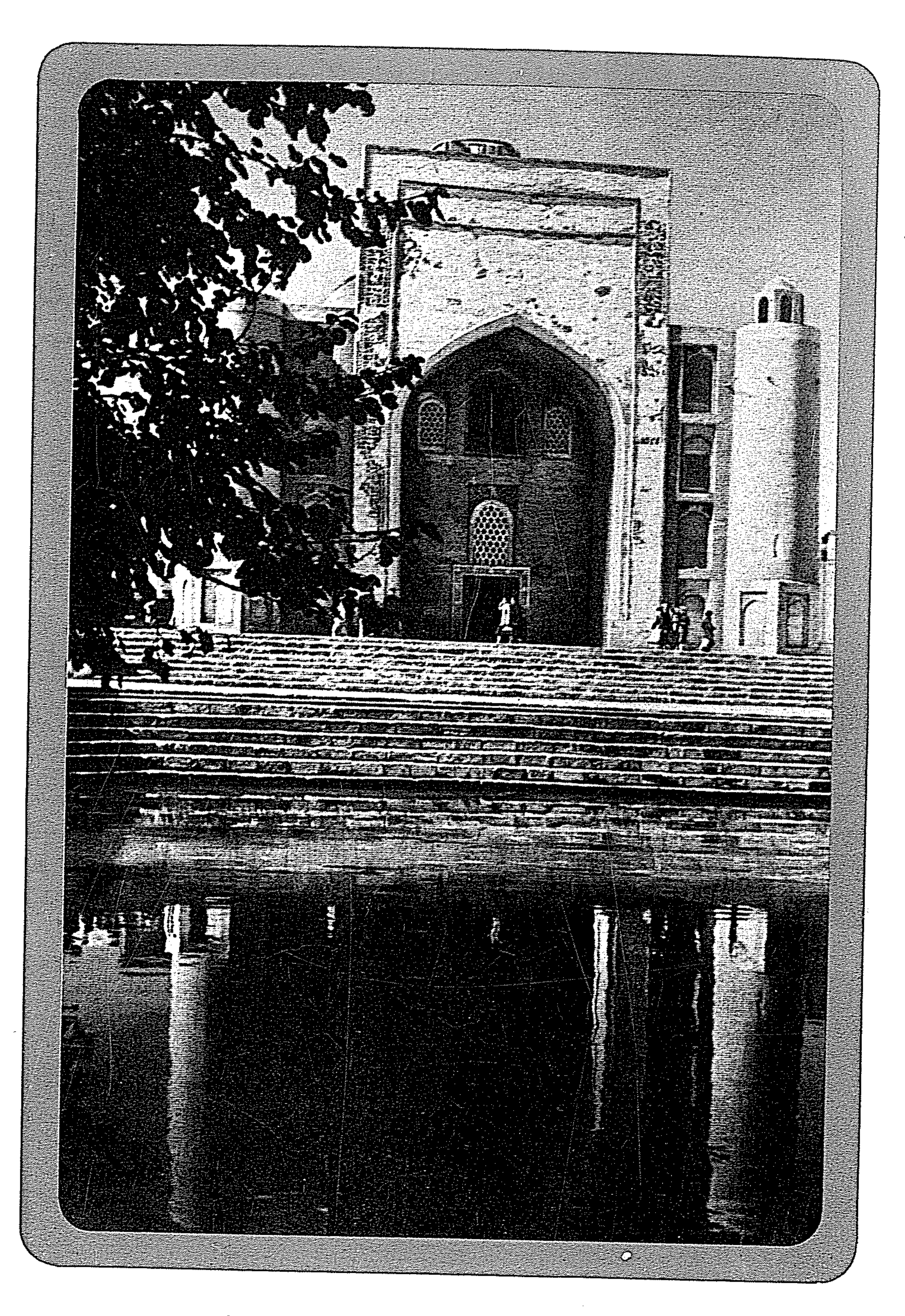
3 – Barry Hoberman the Battle of talas.
Aramco world Magazine Vol 33, No 4. July Aug 1982.



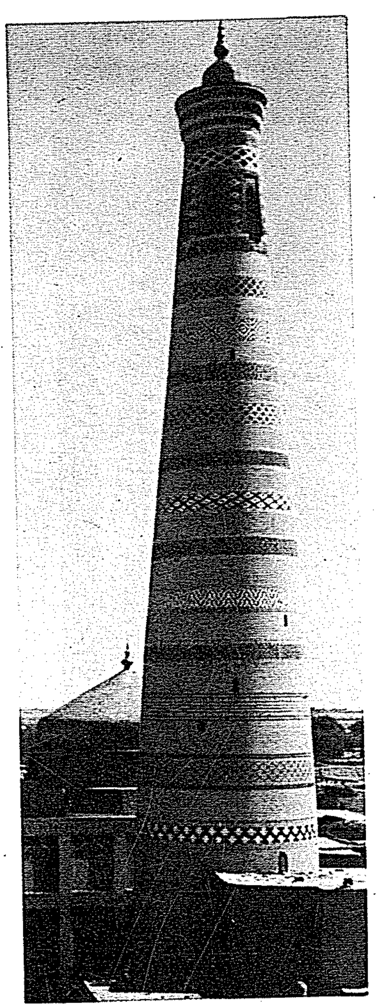


اللوحات



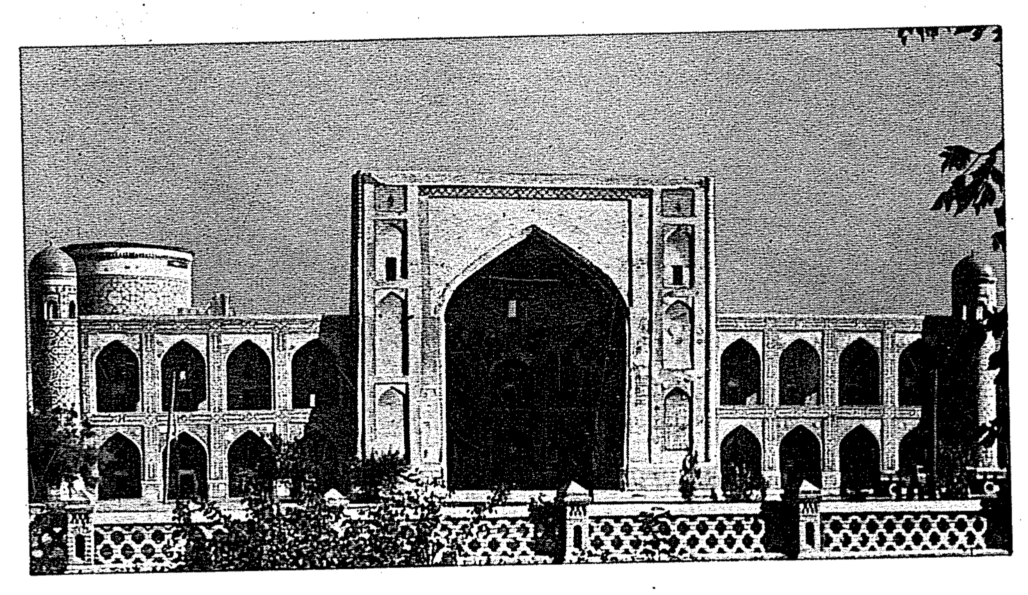


بخارى: مسجد ومدرسة ديوان بيكي الشهير والذي كان ينافس الأزهر والقيروان لقد بنيت هذه الجامعة الاسلامية سنة ١٠٣٠ هـ (١٦٢٠م) وقام الروس البلاشفة بتحويلها الى متحف وذلك منذ دخولهم بخارى سنة ١٣٤١ هـ (١٩٢٢م).



خوارزم وخيوه: منارة جامع خواجة إسلام في خيوه في خوارزم (خانية خيوه) قبل أن تهاجمها قوات لينين وتحتلها سنة ١٣٤٢ هـ (١٩٢٤ م). وهذا المسجد من آخر ما بني في تلك المناطق حيث تم بناؤه سنة ١٣٢٨ هـ (١٩١٠ م) أي قبل دخول البلاشفة الروس اليها بأربعة عشر عاماً فقط. ومن هذه المنارة تتضح المحافظة على الطراز القديم في البناء وان لم تبلغ روعته ودقته..
ومنذ أن دخل البلاشفة لم ين أي مسجد جديد بل على العكس من ذلك حطم الروس البلاشفة في التركستان وحدها اكثر من ستة آلاف مسجد وأكثر من سبعة آلاف مدرسة اسلامية.

سمرقند: مدرسة طلاكاري من الواجهة الامامية. لقد انشئت هذه المدرسة في القرن السابع عشر الميلادي أي ما يعتبر عصر انحطاط نسبي فكيف ترى كان الحال ايام الازدهار والرقي.. أما الآن فقد تحولت هذه المدرسة مثلما تحول الآلاف غيرها الى متاحف ونوادي وصالات للشيوعيين يلعبون فيها ويمرحون..

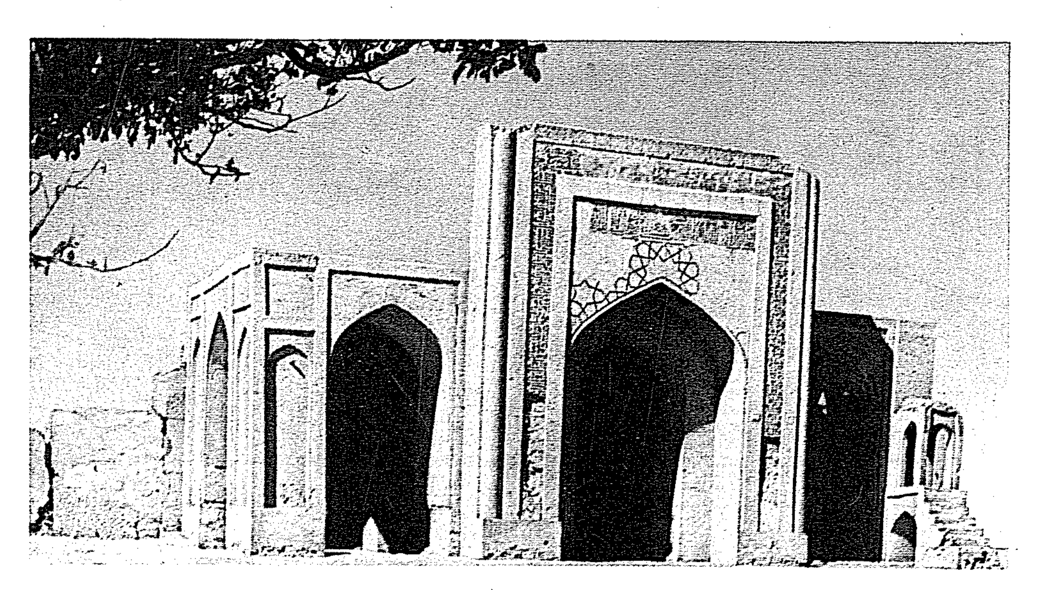




منارة مسجد بيكند في جمهورية اوزبكستان بني هذا المسجد سنة ٥٩٣ - ٥٩٤هـ (١١٩٦ - ١١٩٧م).

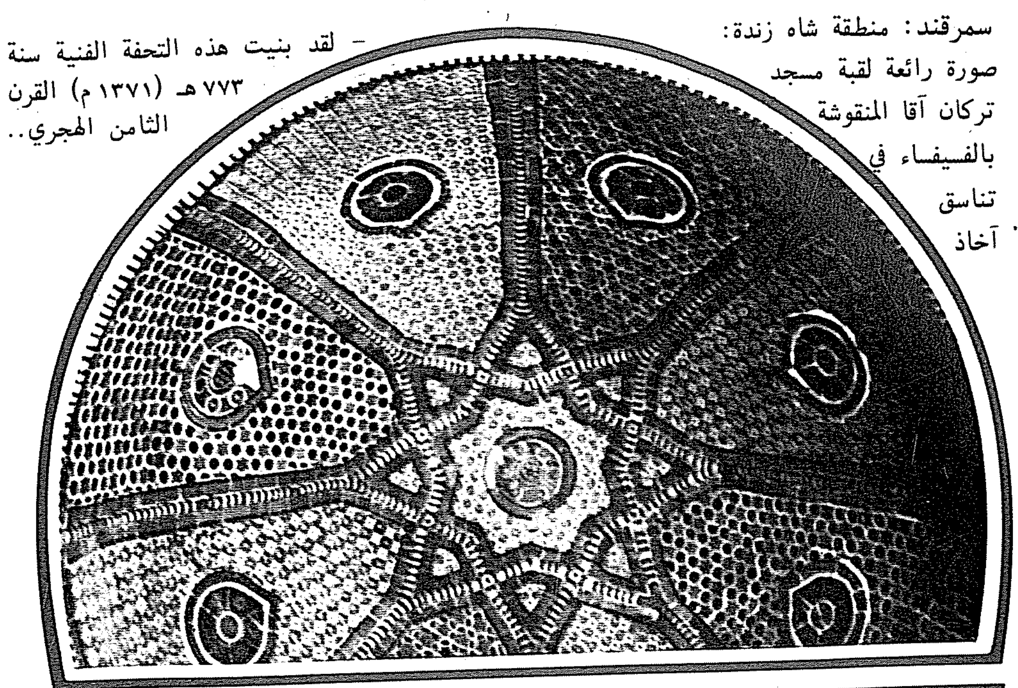
تظهر روعة الفن المعماري في هذه المنارة التي تنافس اجمل المنائر في العالم الاسلامي جمالا وهندسة ونقوشا وزخرفة. وللأسف لم يعد يسمع الآذان من هذه المنارة منذ أن دخلتها قوات لينين..

بخارى: لقد قام الروس عند دخولهم بخارى بتحطيم هذا المسجد الأثري الهام الذي شيد في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) والمعروف باسم غازكاه.



سمرقند: منطقة شاه زندة: صورة رائعة لقبة مسجد تركان آقا المنقوشة بالفسيفساء في تناسق آخاذ

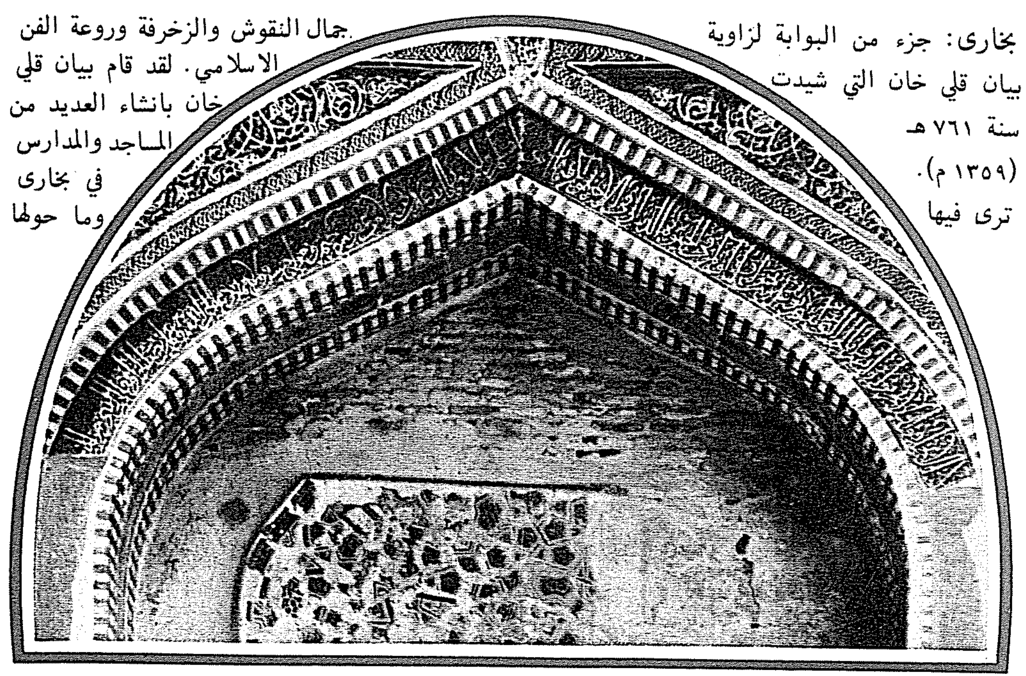
- لقد بنيت هذه التحفة الفنية سنة ٧٧٣ هـ (١٣٧١ م) القرن الثامن الهجري..

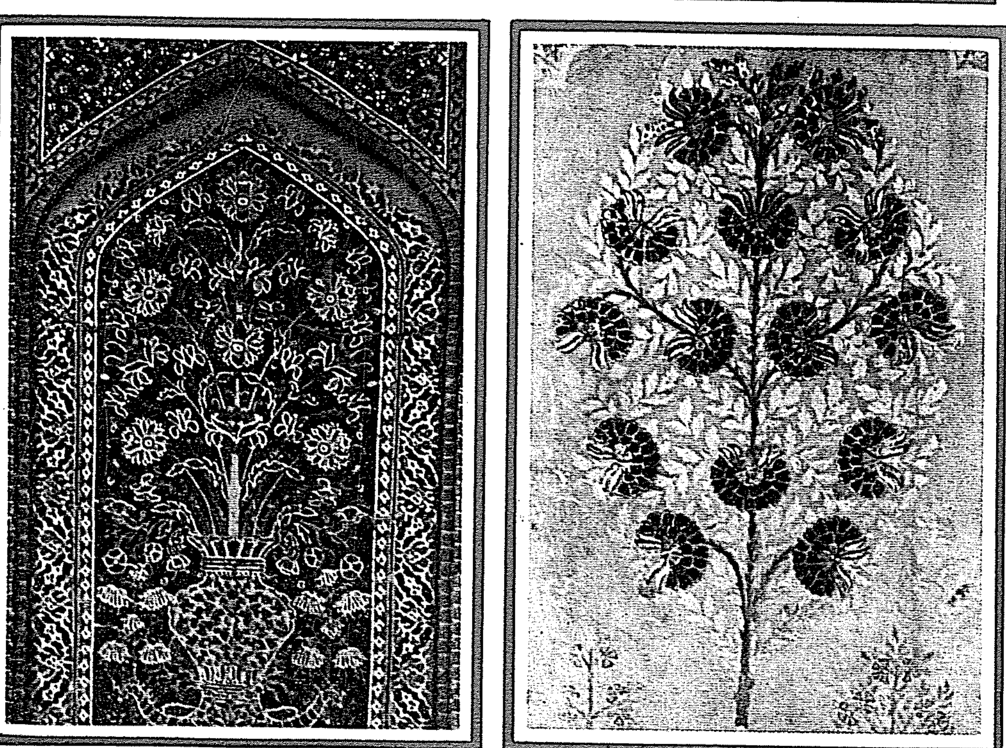




سمرقند: مسجد صيفي في سمرقند أقامه الخواجة عبدي في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) تبدو فيه رشاقة البناء وروعته وتناسق الأعمدة الرخامية مع نقوش المحراب الدقيقة..

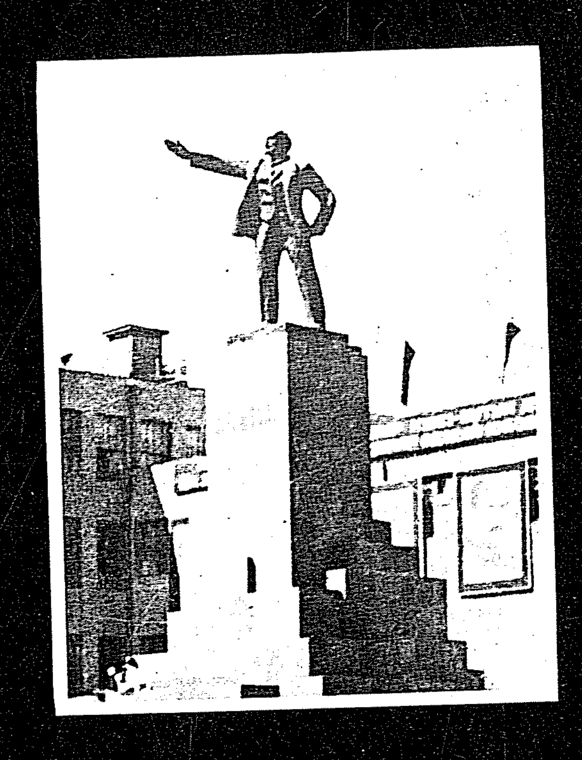
بخاري: جزء من البوابة لزاوية بيان قلي خان التي شيدت سنة ٧٦١ هـ (١٣٥٩ م). ترى فيها جمال النقوش والزخرفة وروعة الفن الاسلامي. لقد قام بيان قلي خان بانشاء العديد من المساجد والمدارس في بخارى وما حولها



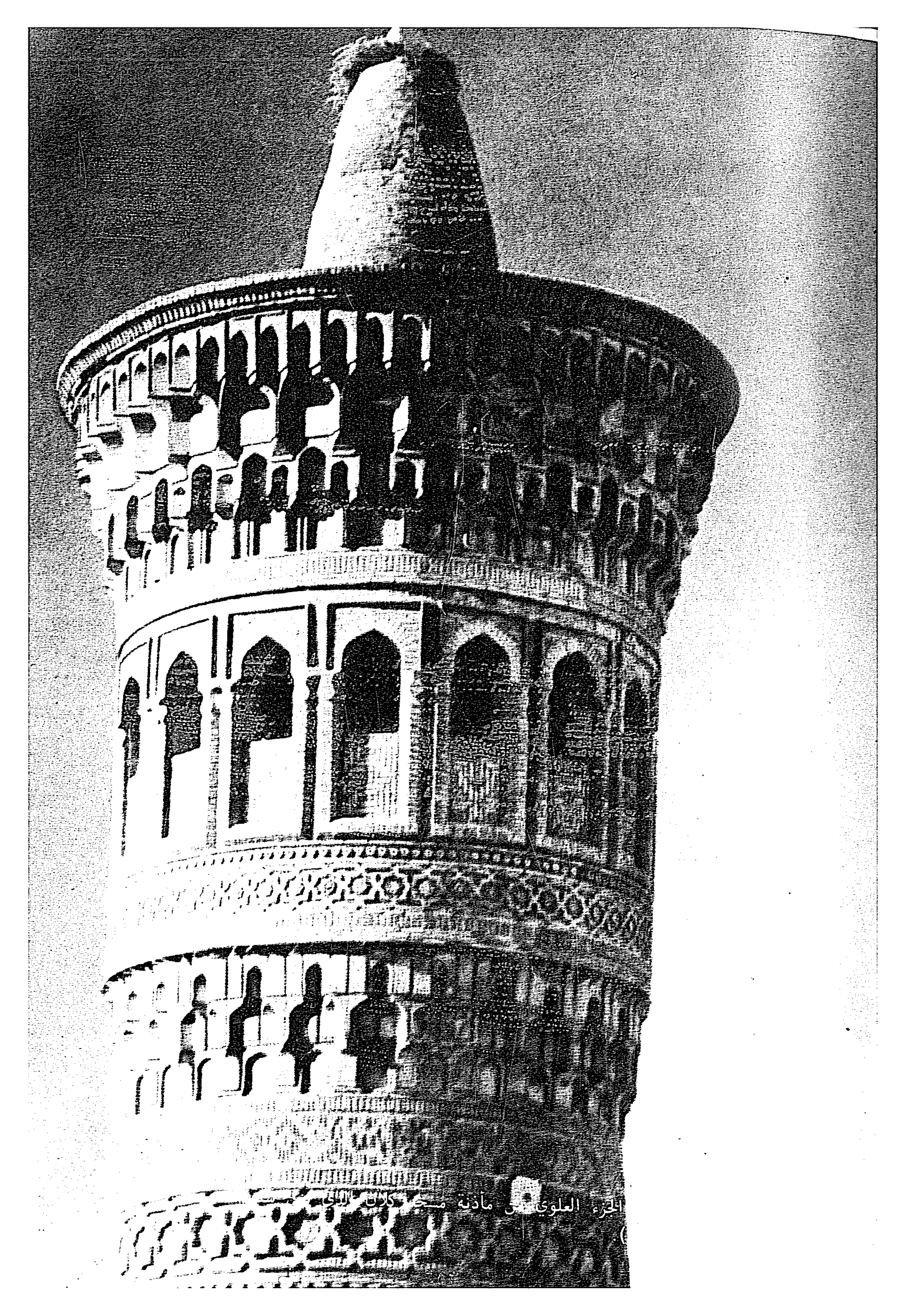


بخاري: زخرفة احدى الحجرات وقاعات الدرس في مدرسة عبدالعزيز خان..

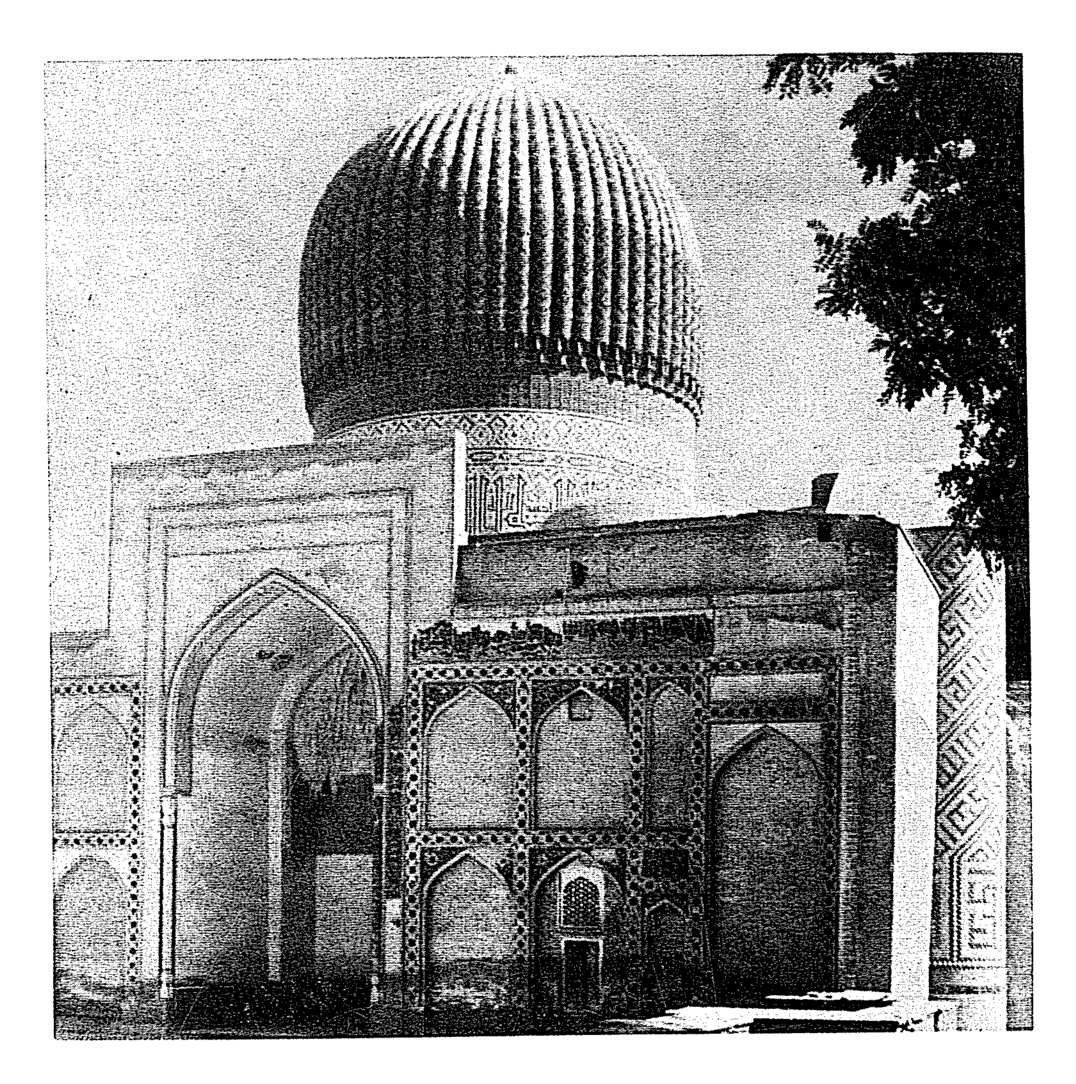
بخاري: مدرسة عبد العزيز خان ١٠٦٣هـ (١٦٥٢م) تكسيه الواجهة.



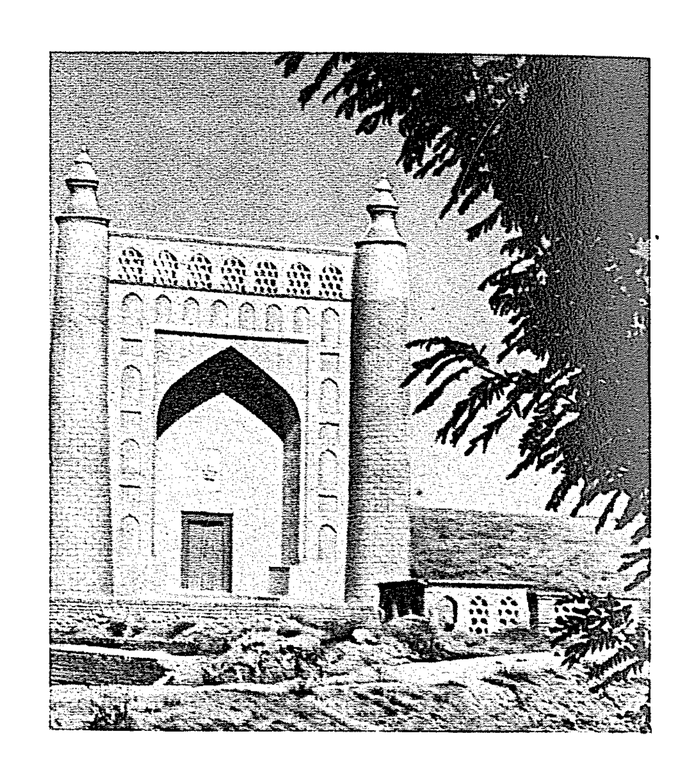
طشقند: ها هي طشقند اليوم يرتفع في اكبر ميادينها تمثال لينين.. ويا لها من مأساة مهولة تهدد كثيراً من أوطان الإسلام حيث تهدم المساجد والمدارس الإسلامية وتحول الى متاحف وصالات ويمنع تدريس الدين ويفرض الالحاد فرضاً.. ويجبر المسلمون على الانحناء لهذا الصنم اذا مروا امامه.. أي ذل وهوان أصاب المسلمين حتى يفرض عليهم أن ينحنوا لهذا الصنم الذي أصبح يعبد من دون الله..



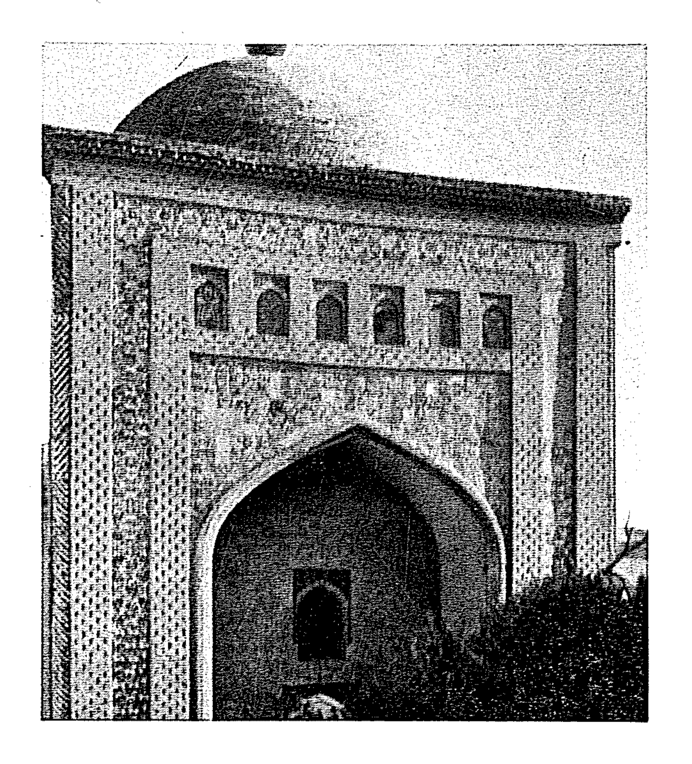
الجزء العلوي من مأذنة مسجد كلان



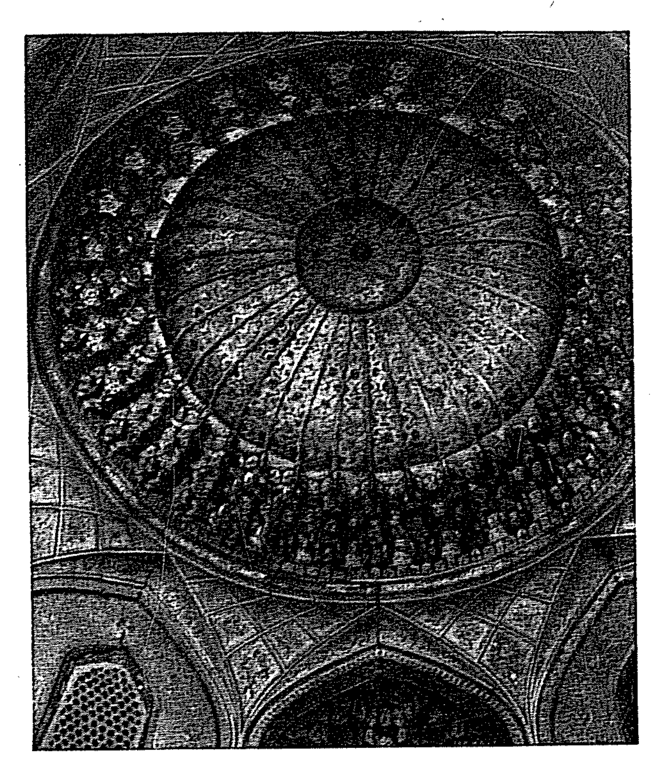
سمرقند: ها هنا يرقد تيمورلنك الذي اخضع موسكو وبولندا للحكم الاسلامي.. والذي حكم أعظم وأضخم امبراطورية في عهده.. ورغم ما اشتهر به تيمورلنك من شدة البطش باعدائه الا أنه كان حفيا بالعلوم والصناعات كثير القراءة للقرآن الكريم ولا يصلي الا في جماعة.. وقد اشتهرت امبراطورية المغول (وهم ليسوا من المغول) في الهند من ابنائه وأحفاده الذين ظهر منهم اورنك زيب الملك الصالح. والملك أكبر. لقد كانت سمرقند في عهد تيمورلنك عاصمة الدنيا وبهجتها وبلغت أرفع مكانة. (القرن الثامن الهجري - الرابع عشر الميلادي).



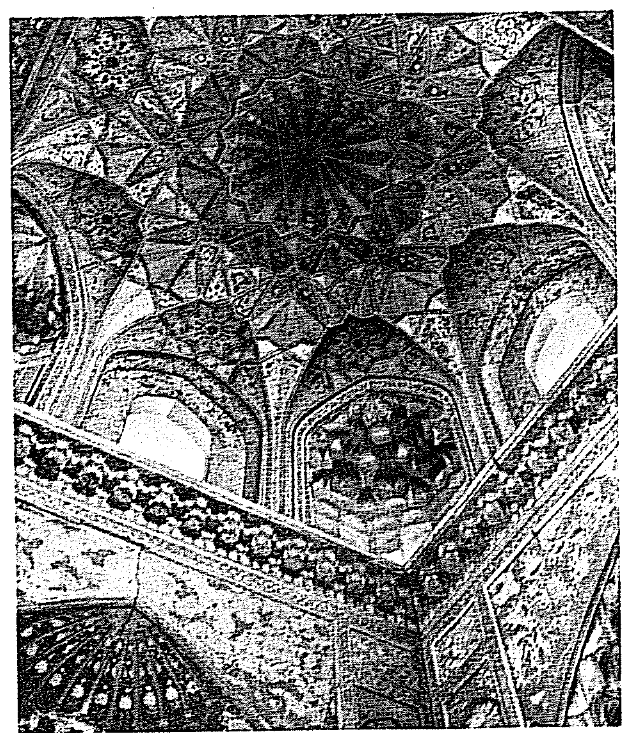
مدينة نمنكان (التركستان): زاوية مولوي صاحب الطريقة المولوية المشهورة ترى أمام الزاوية قناة فرهاد..



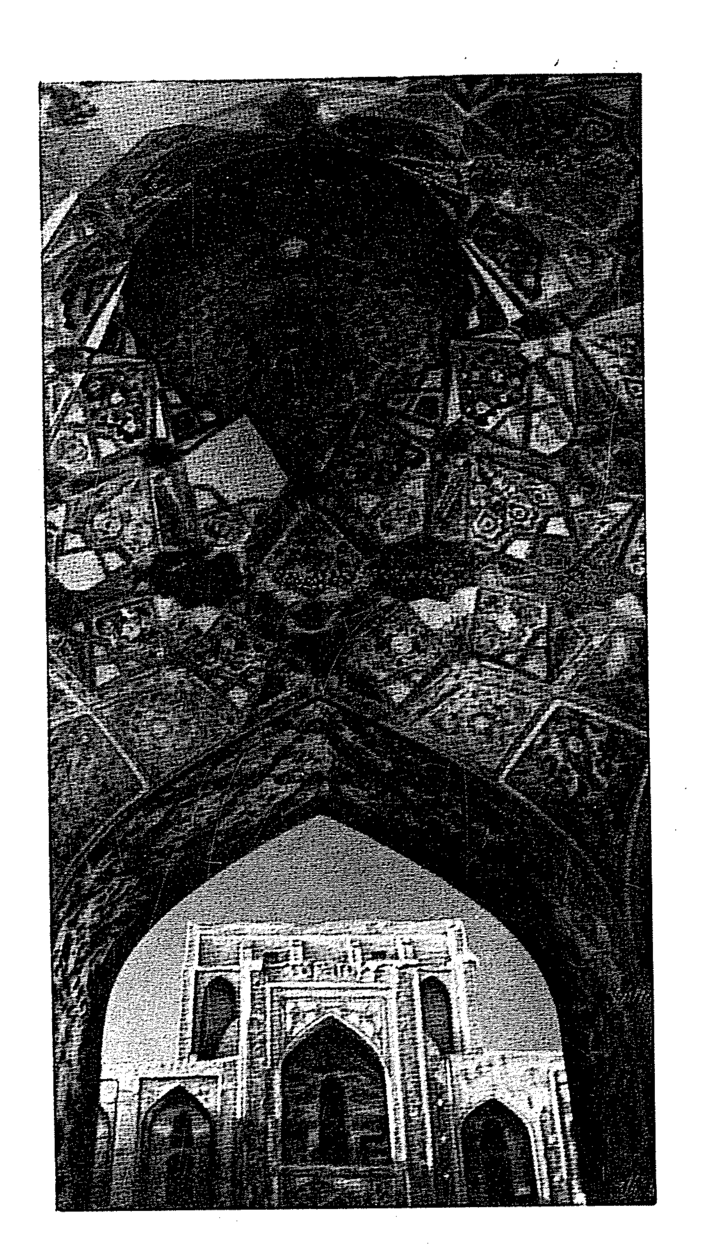
خيوه: لقد ورثت خانية خيوه بعض امجاد خوارزم وها هي مدرسة بهلوان محمود التي أقيمت في بداية القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي) تقوم شاهداً على ذلك ١٢٢٥ - ١٢٥٠ هـ (١٨١٠ - ١٨٣٤ م). واستمرت هذه المدرسة الإسلامية تؤدي دورها العظيم حتى أغلقتها السلطات الروسية الشيوعية بعد أن دخلتها عام ١٣٤٣ هـ (١٩٢٤ م).



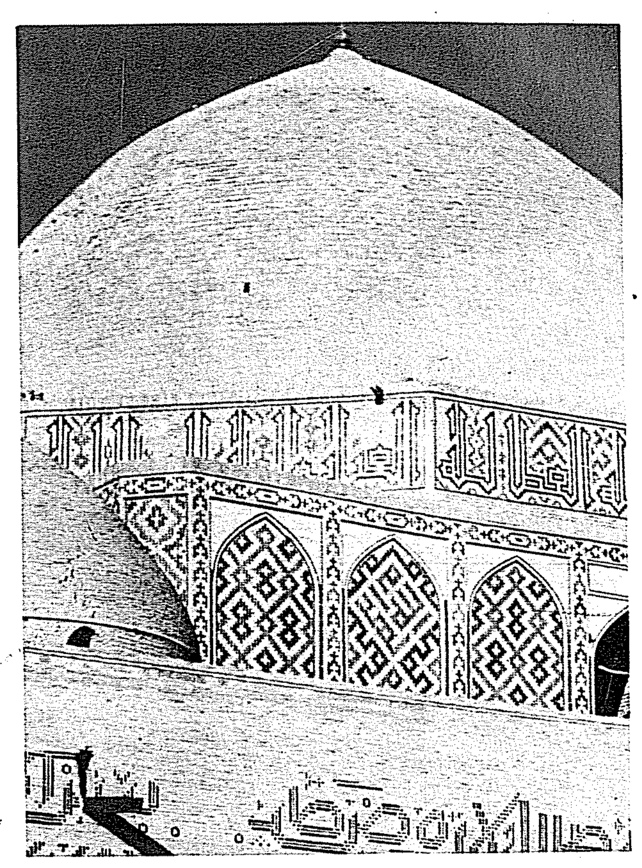
بخارى: صورة من الداخل لقبة مسجد خواجة زين الدين شيد هـذا المسجـد في القرن العـاشر الهجري (الـسادس عشر الميـلادي). وتبـدو في الصورة روعـة النقوش ودقـة الزخرفـة وتناسق الالوان وتناسق شكل القبة مع الأقواس بدرجة تبهر الناظرين..



بخـارى: قبـة المسجـد الشتوي لمدرسة عبد العزيز خان ١٠٦٣ هـ (١٦٥٢ م).



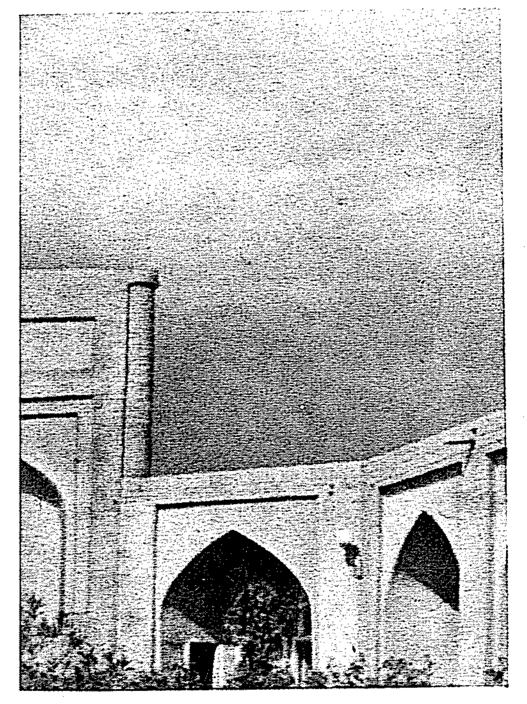
بخارى: زخرفة قبة المسجد
الصيفي لمدرسة عبد العزيز خان
وتظهر الصورة ايضا واجهة
المدرسة من خلال بوابة المسجد
لقد آثر السلطان عبدالعزيزبن
نظر خان الاشتراخاني حياة
العزلة وذهب الى المدينة المنورة
حيث مات ودفن في بقيعها.



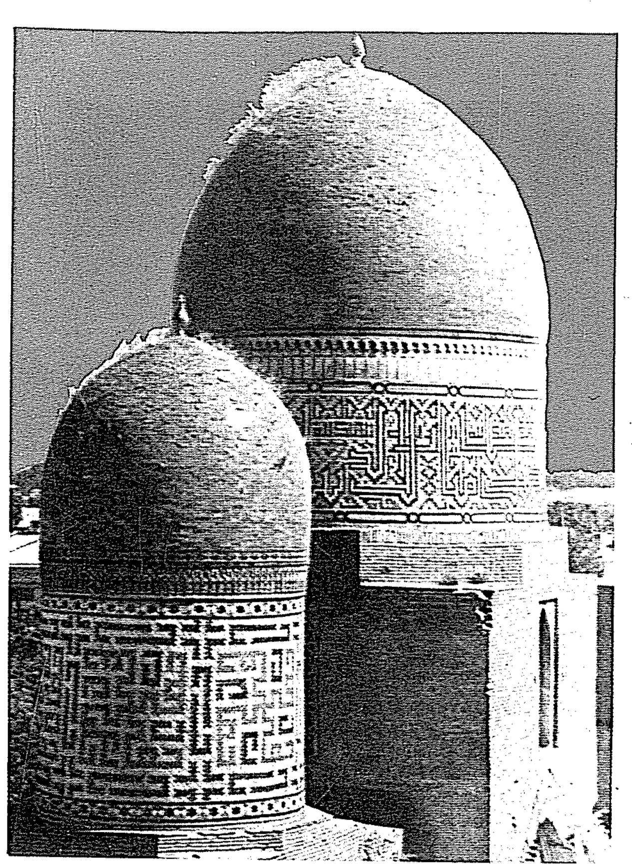
مدينة يسي أو التركستان

مسجد الامام الداعية الى الله أحمد اليسوي المتوفي سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٦ م). الذي اسلم على يديه الآلاف من المغول والذي امتد تأثير تلاميذه الى ملايين المغول في جميع أرجاء آسيا الوسطى وتتاريا هذا المسجد لا يزال باقيا منذ ذلك العهد رغم الحوادث المدمرة المريعة التي أصابت الكثير الكثير من الآثار الاسلامية..

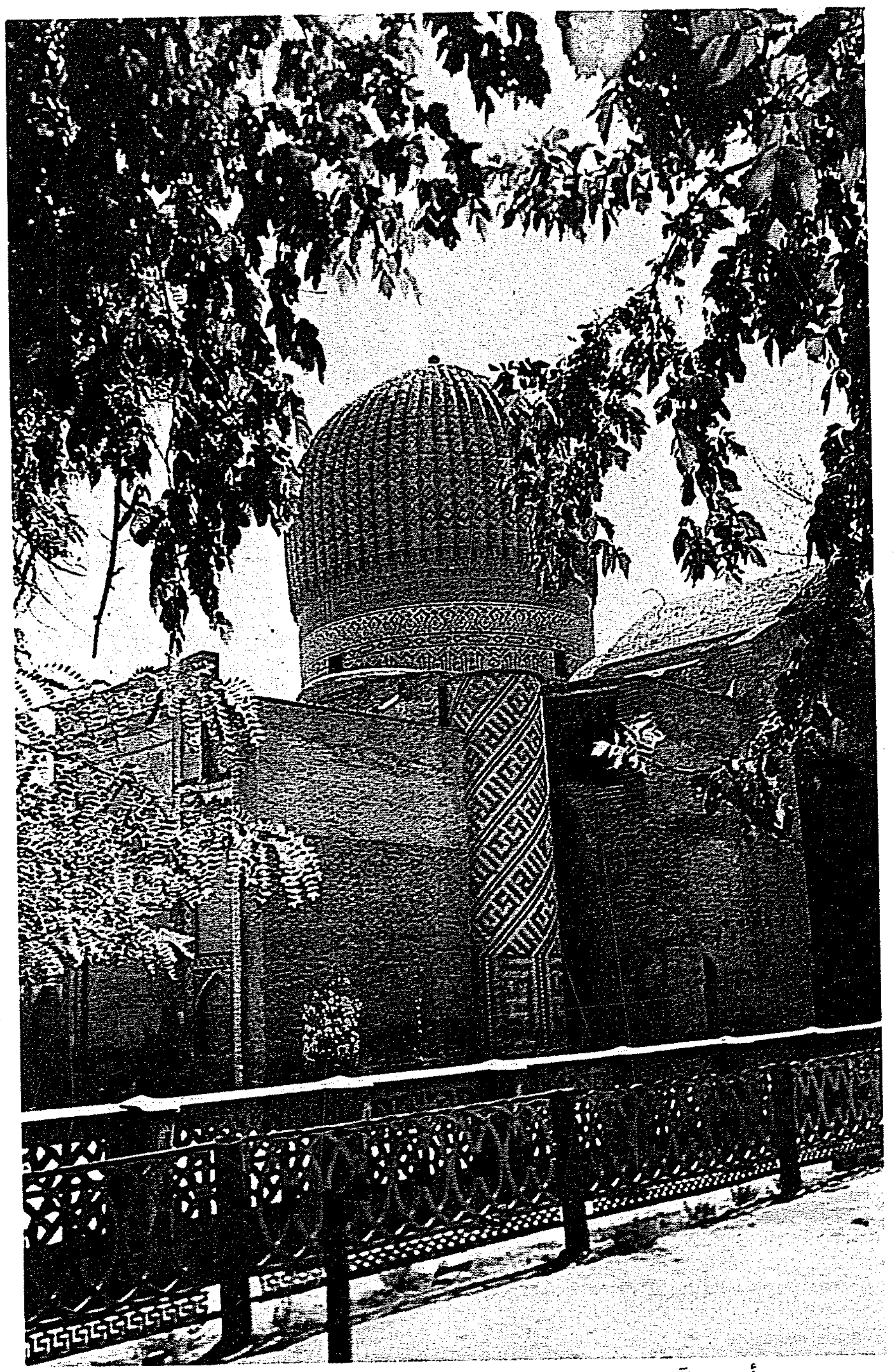
يقع هذا المسجد في مدينة تركستان (يسي) وهي تقع في منطقة تشيمقند في كازاخستان.



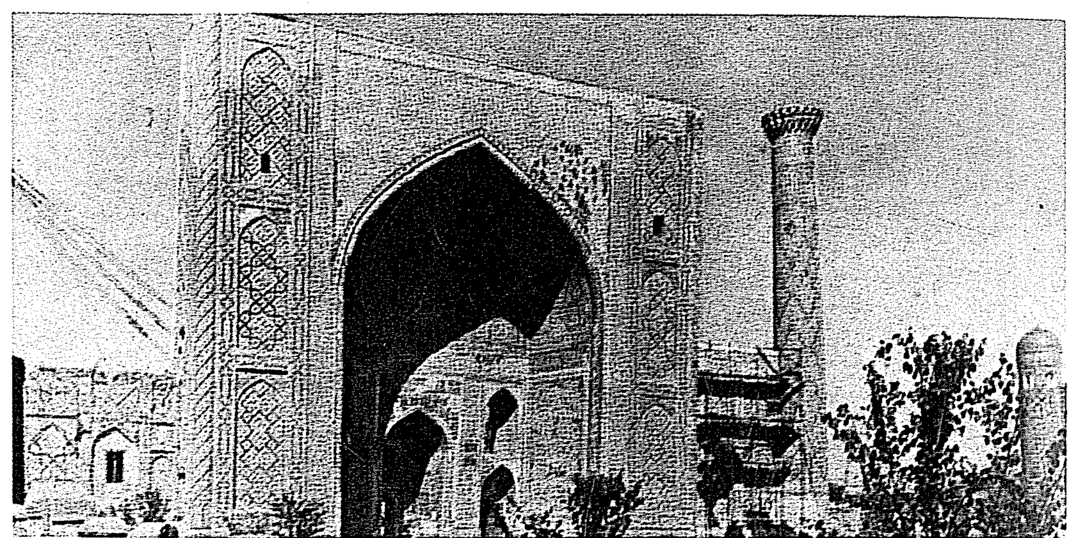
طشقند: هذه صورة لواجهة مدرسة براق خان في طشقند التي شيدت في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) فيما يعتبر بداية عصور الانحطاط فكيف يا ترى كانت عصور النهضة والرقي. أن طشقند (الشاش) التي أخرجت مئات العلماء أصبحت الآن مدينة نصف سكانها من الروس والاوكرانيين المتعمرين وطشقند هي عاصمة جمهورية اوزبكستان..



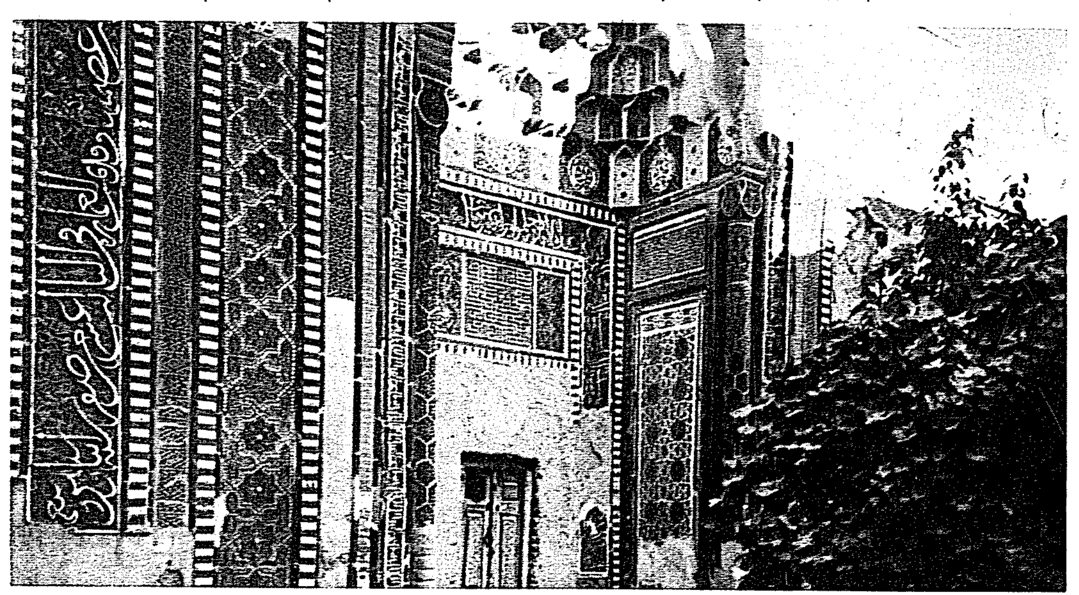
سمرقند: منطقة شاه زندة الغنية بالآثار الاسلامية ومئات المساجد والمدارس ومدافن الامراء والعلماء ويكفيها ان فيها استشهد قثم بن العباس رضي الله عنه اثناء فتحها سنة ٥٦ هـ (٦٧٥ م). ها هنا يرقد العلامة الشهير قاضي زاده الرومي. الذي نبغ في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي).



أحد المآثر الهامة في سمرقند حيث يرقد تيمورلنك الذي ملك الدنيا، في عاصمته سمرقند.



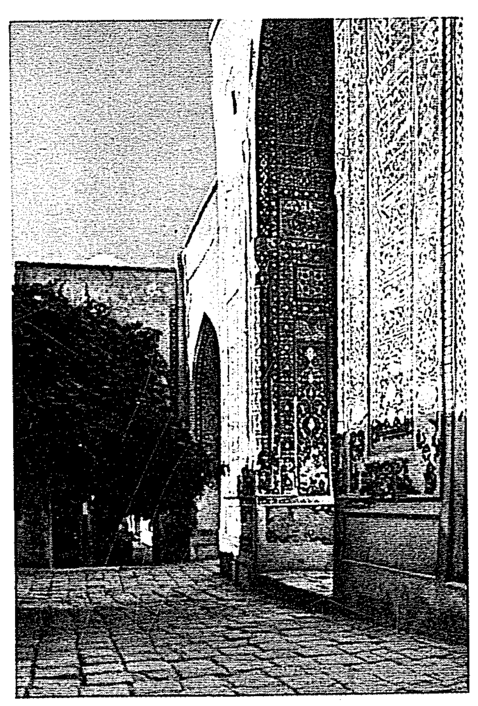
سمرقند: مدرسة أولوغ بك ٨٢٣هـ (١٤٢٠م) منظر من الواجهة الامامية. لقد اشتهر اولوغ بك التيموري بحبه للعلم والعلماء وتشييده للكثير من المدارس العلمية وانشائه لمرصد سمرقند.. الذي اجتمع فيه كثير من علماء الفلك في ذلك العصر وحددوا فيه خطوط الطول والعرض للكرة الأرضية كما وضعوا كثيرا من الخرائط الدقيقة للعالم القديم.. ولكثير من النجوم والكرات السماوية. لقد كان هذا الأمير التيموري محبا للعلماء مشاركا لهم في أبحاثهم ودروسهم حتى لقد اشتهر بأنه قضى معظم حياته معهم..



سمرقند: منطقة شاه زندة التي قبر فيها قثم بن العباس رضي الله عنه والتي أصبحت مجموعة فنية أثرية من المساجد والمدارس والخانقاة والأخرجة..

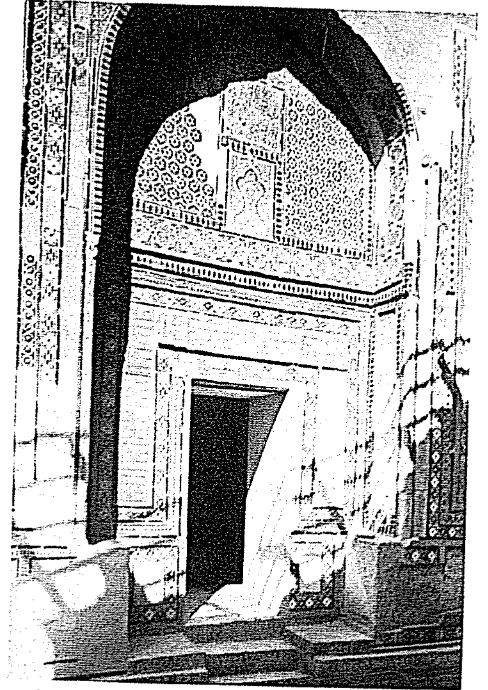
أين مسجد هذه المنارة الرائعة في جرقورغان في جمهورية اوزبكستان السوفيتية لقد قام الروس بتحطيم المسجد الرائع الذي لم يبق منه الا هذه المنارة تشكو الى الله ما حاق بأهل التركستان من طغيان الروس البلاشفة.

لقد بنيت هذه المنارة ومسجدها سنة ٥٠٢ - ٥٠٣هـ (١١٠٨ - ١١٠٩م)..

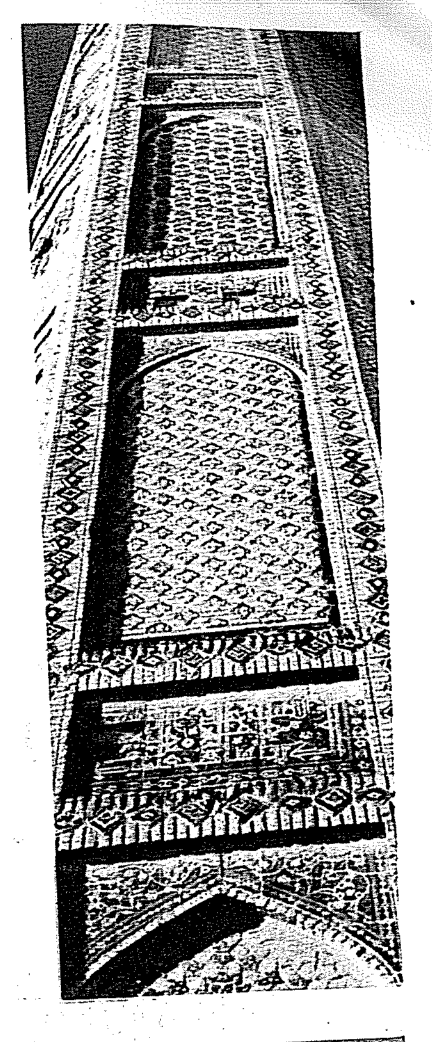


سمرقند: منطقة شاه زندة.. مخرج من باحة علوية الى درب علوي أي روعة في بناء هذه الباحات والدروب..

بخارى: لقد حول الشيوعيون عند هجومهم على بخارى سنة ١٣٤١ هـ (١٩٢٢ م) مسجد كلان ومدرسته الى متحف وبقيت منارة هذا المسجد شاهدة على مقدار ما بلغه أهل بخارى من حضارة لقد بني هذا المسجد سنة ٥٢٢ هـ (١١٢٧ م) ولا تزال منارته تطل على بخارى حتى بعد ان توقف منها الأذان...



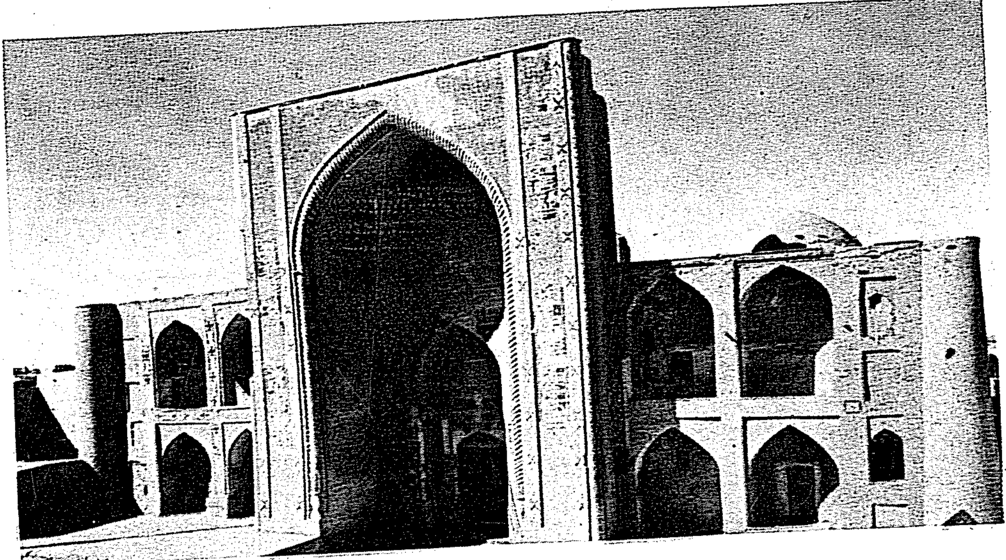
سمرقند: منطقة شاه زندة. مسجد أمير زادة الذي بناه سنة ٧٨٨ هـ (الثامن الهجري) (١٣٨٦ م) توضح الصورة جزءاً من البوابة الرئيسية المنقوشة بالفيفساء..

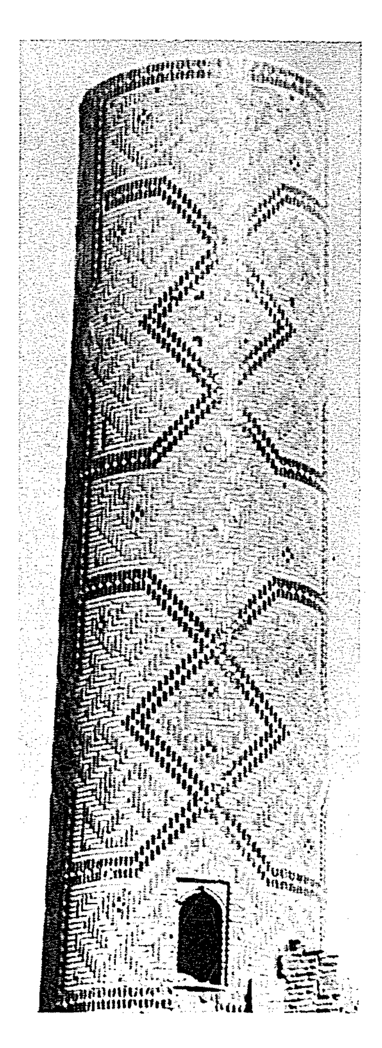


سمرقند: مسجد بي بي خانم ٨٠٢ - ٨٠٧هـ (١٣٩٩ - ١٤٠٤م) المئذنة (المنارة) الشمالية لمسجد بي بي خانم توضح دقة النقوش وروعتها وتناسقها وتناغم ألوانها.

هكذا كان الأمراء والأميرات يتسابقون الى فعل الخيرات واقامة المساجد والمدارس التي تبقى لهم على مدى الايام..

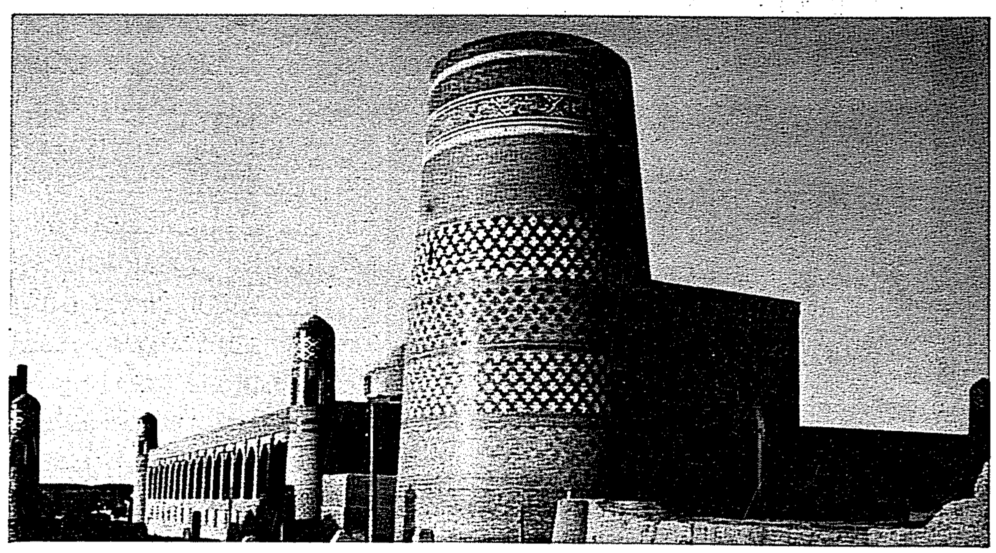
بخارى: مدرسة اولوغ بك منظر البوابة والواجهة الأمامية لقد كان اولوغ بك التيموري (من نسل تيمورلنك) أحد الحكام المحبين للعلوم والمؤسسين للكثير من المدارس.. وهو الذي أسس مرصد سمرقند الشهير وقضى هذا الأمير غالب حياته مجتمعا بالعلماء ومشاركاً لهم في دروسهم وعلومهم.. وقد حكم هذا الأمير مناطق التركستان في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي).



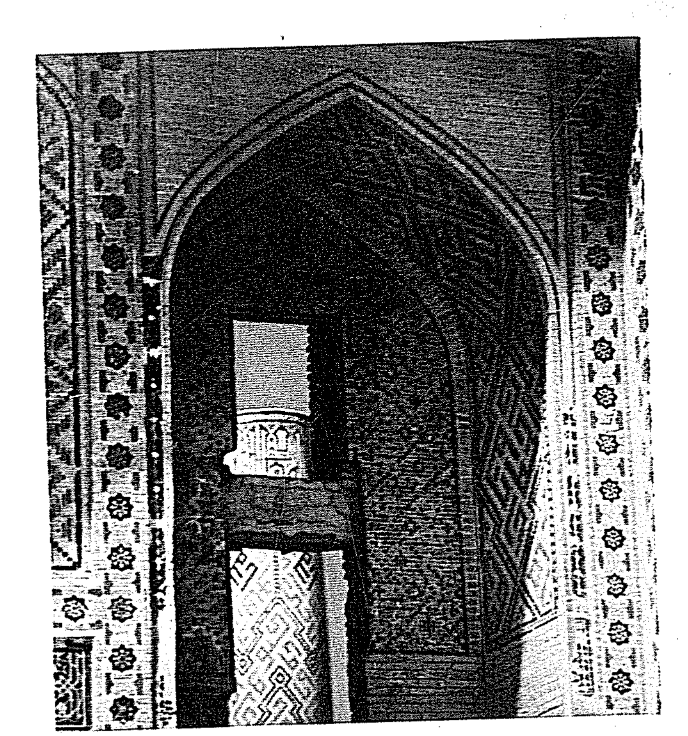


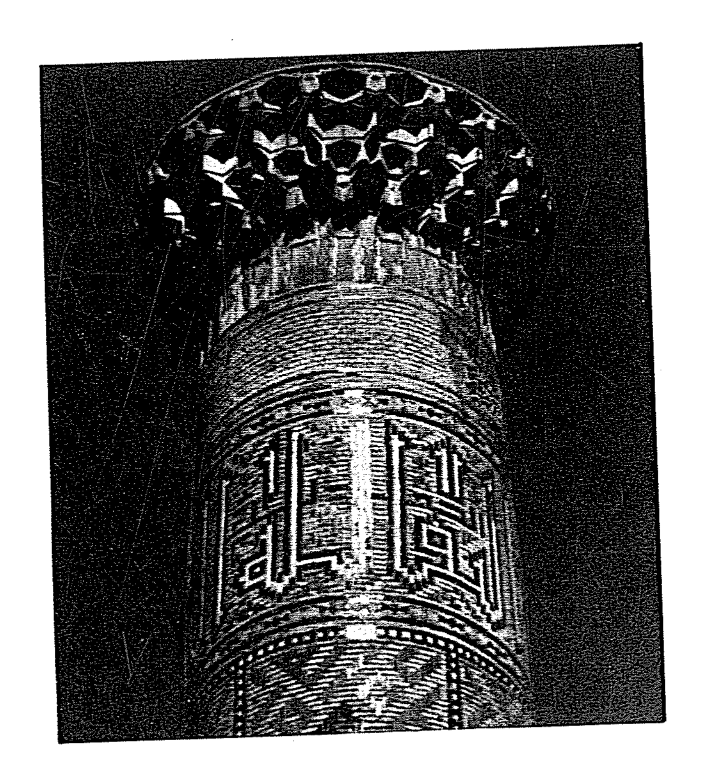
سمرقند: منارة مسجد بي بي خانم وهي تختلف في هندستها وزخرفتها عن المنارة الشمالية في الصورة السابقة لقد تهدم هذا المسجد الرائع ولم تبق منه الا المآذن التي لا يرتفع منها صوت الأذان من بعد ان احتلتها القوات البلشفية.

خيوه: مدرسة أمين خان التي شيدها سنة ١٢٧٠ هـ (١٨٥٢ م). لقد قام البلاشفة بأغلاقها كما أغلقوا او حولوا أكثر من سبعة الآف مدرسة اسلامية في التركستان.

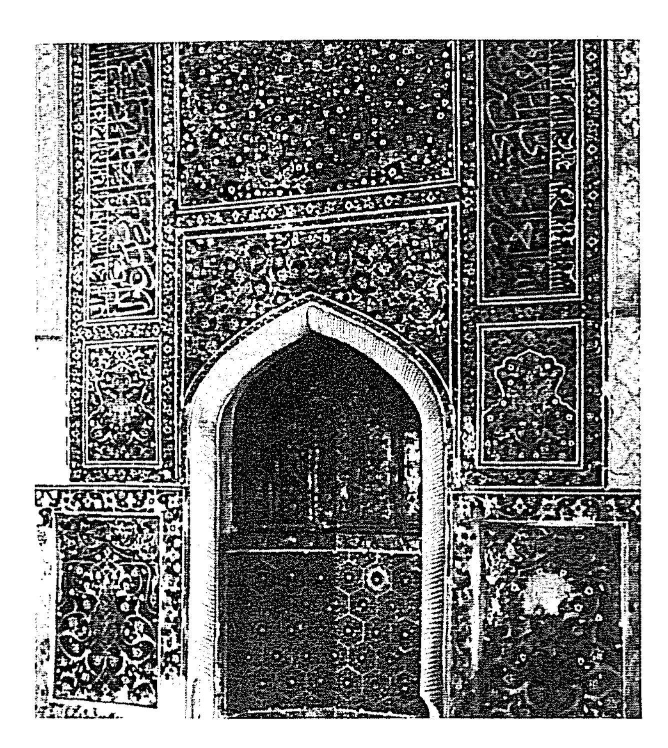


سمرقنـد: مـدرسة اولوغ بـ
صورة للمنارة الشمالية للمسـ
والمدرسة..

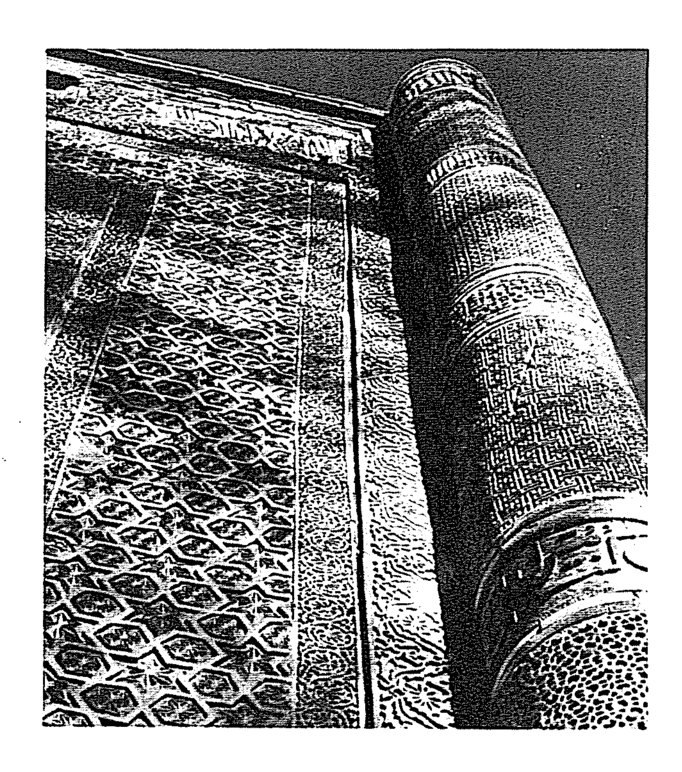




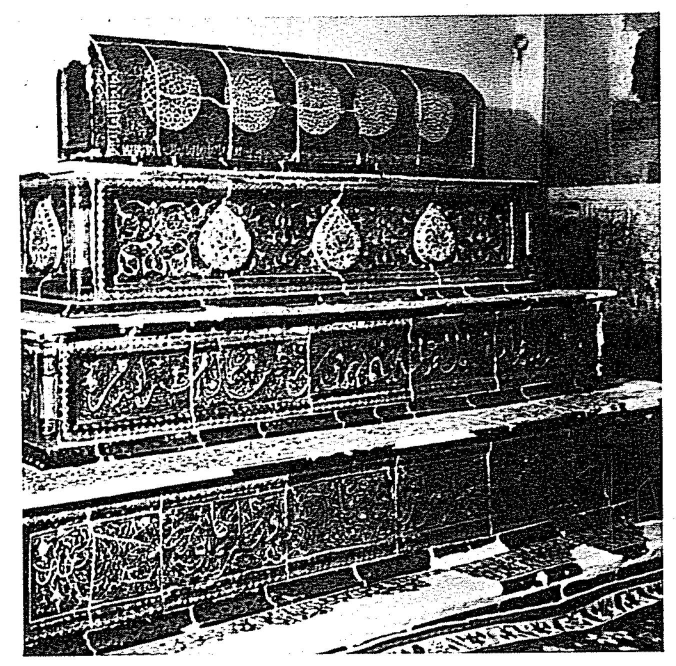
سمرقند: صورة أخرى لجزء من بوابـة هـذه المدرسة العظيمـة والتحفـة الفنيـة النـادرة الـتي أنشائها أولوغ بك سنة ٨٢٣ هـ (١٤٢٠ م). وقد اقام مثلها في بخارى وهكـذا كـان الأغنيـاء والامراء يتنـافسون ويـارعون الى اقـامـة المدارس والمساجد ويقفون لهـا الأموال العظيمـة ابتغـاء وجـه الله.. لقـد حول الروس البلاشفة هذه المدارس والمساجد جميعا الى متـاحـف وصالات وأماكن لتعلم الالحاد والشيوعية..



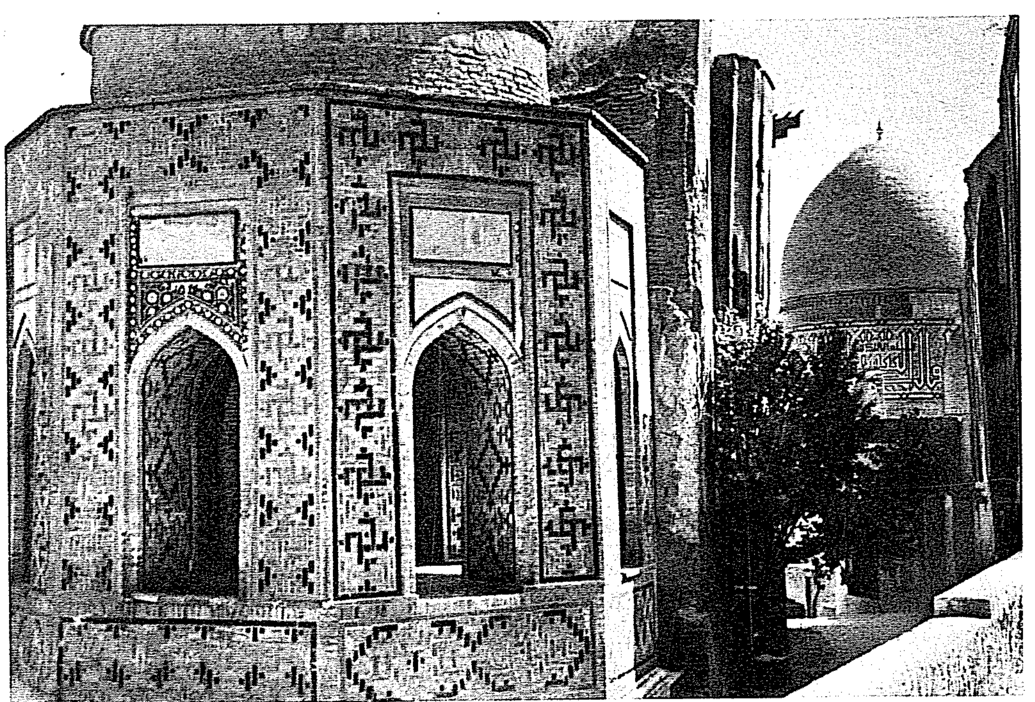
بخـاري: محراب مسـجـد بلنـد في بخـــــارى من القرن السادس عشر الميـلادي ترى فيـه دقـة النقوش وروعتها. لقد حول الروس البلاشفة هذا المسجد الى متحف مثلما فعلوا بـأكـثر من سـتـة آلاف مسجـد في التركستان (٦٦٨٢ مسجد).



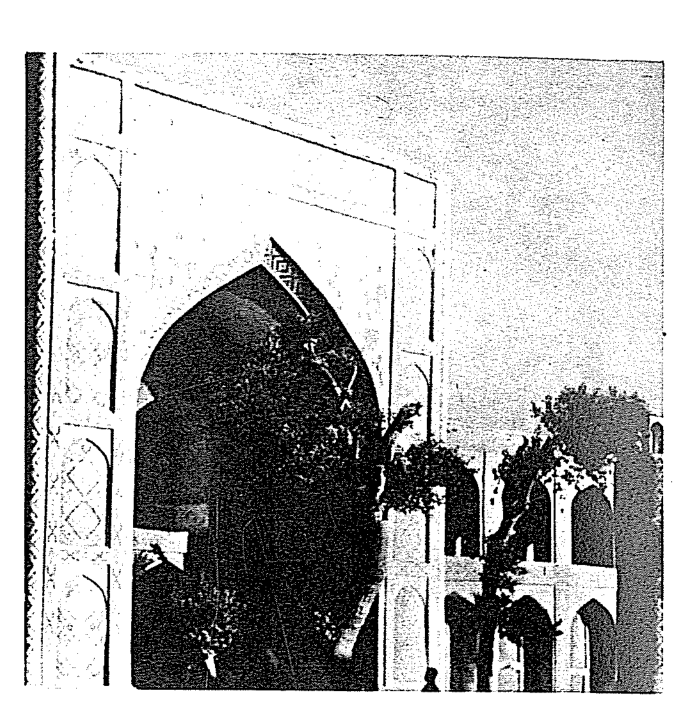
مدينة نمنكان (التركستان): زاوية خواجة أمين. جزء من النقوش على البوابة القرن الثاني عشر الهجري (الثـــامن عشر الميلادي).



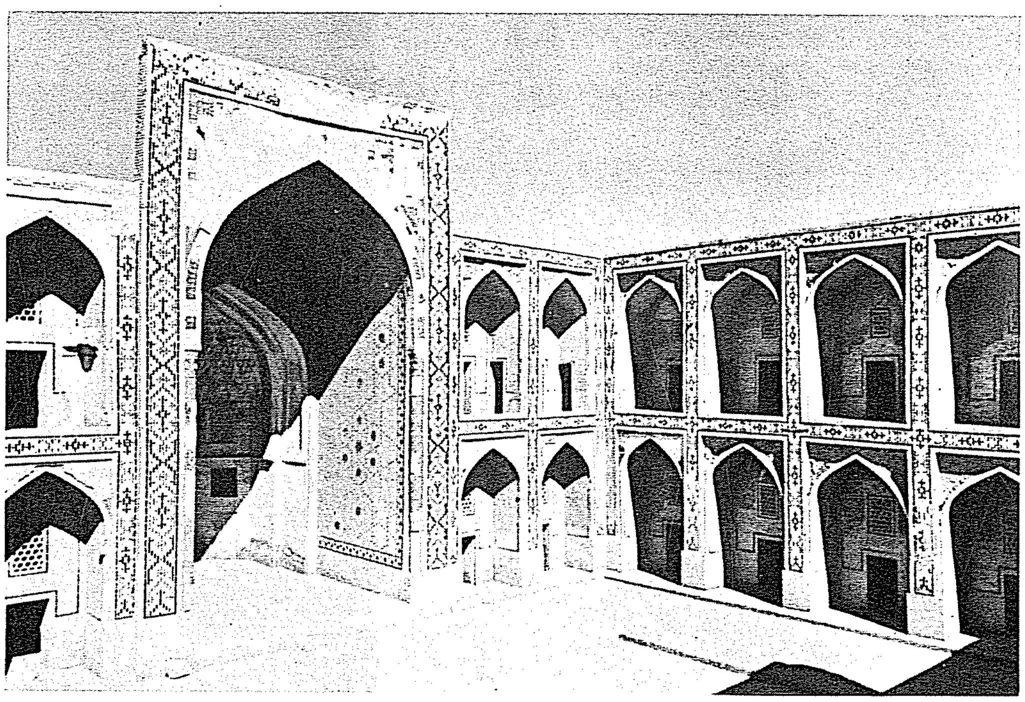
سمرقند: منطقة شاه زندة ضريح قثم بن العباس رضي الله عنه ابن عم رسول الله ﷺ الذي استشهد في فتح سمرقند سنة ٥٦ هـ (٦٧٥ م) وقد اشتهرت المنطقة التي قتل وقبر بها باسم مزار شاه زندة أي مزار السلطان الحي ذلك لأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون وكان قثم احد ثلاثة أو أربعة أشبهوا رسول الله ﷺ وهم الحسن بن علي بن أبي طالب وجعفر الطيار بن أبي طالب وابنه عبد الله وقثم ابن العباس..



سمرقند: منطقة شاه زندة (أي السلطان الحي) حيث يوجد فيها ضريح قثم بن العباس رضي الله عنه الذي استشهد في فتحها سنة ٥٦ هـ (٦٧٥ م).. وأصبحت هذه المنطقة خارج سمرقند.

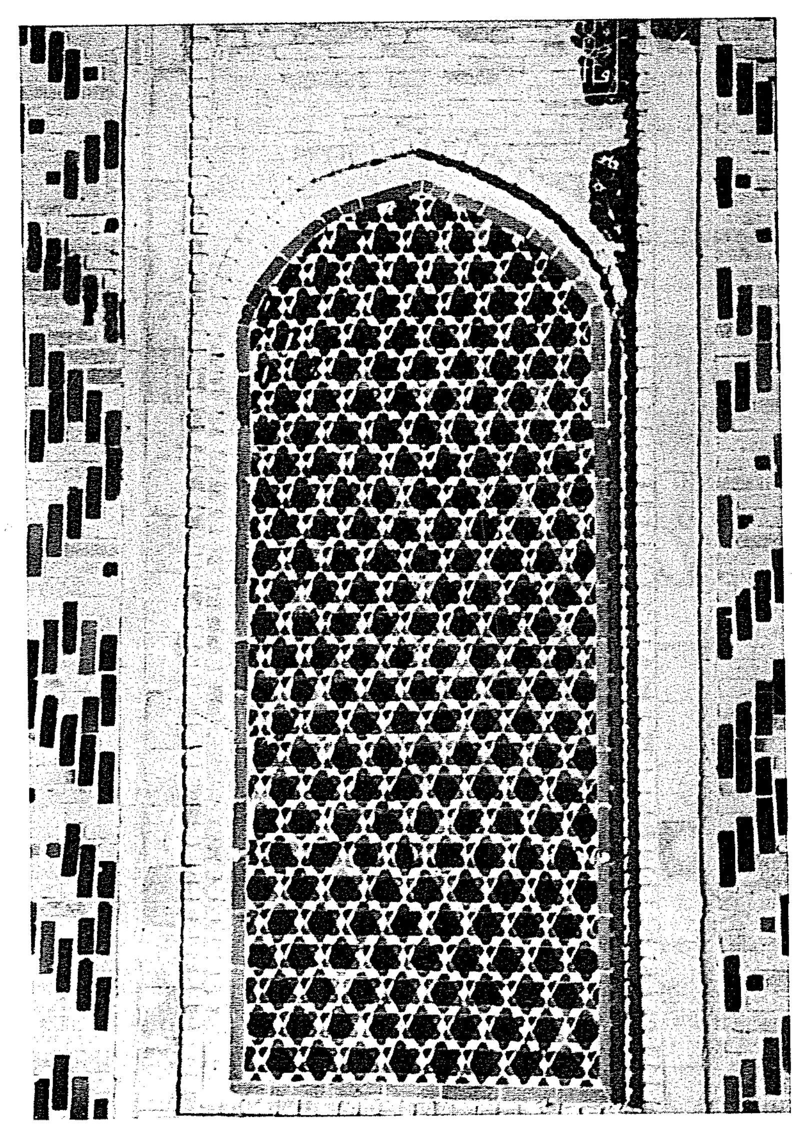


بخارى: مدرسة مادر عبد الله خان التي انشئتها سنة ٩٧٤ - ٩٧٥ هـ (١٥٦٦ - ١٥٦٧ م). وقد قام ابنها عبد الله خان بانشاء العديد من المدارس في بخاري وتسمى قوشي مدرسة. ومعناها مدرستان مدرسته ومدرسة أمه وهما متقابلتان في نفس الشارع وقد انتشرت هذه الطريقة في عهد الدولة الاوزبكية حيث تقع هذه البنايات الضخمة متقابلة في شارع واحد أو ساحة واحدة..

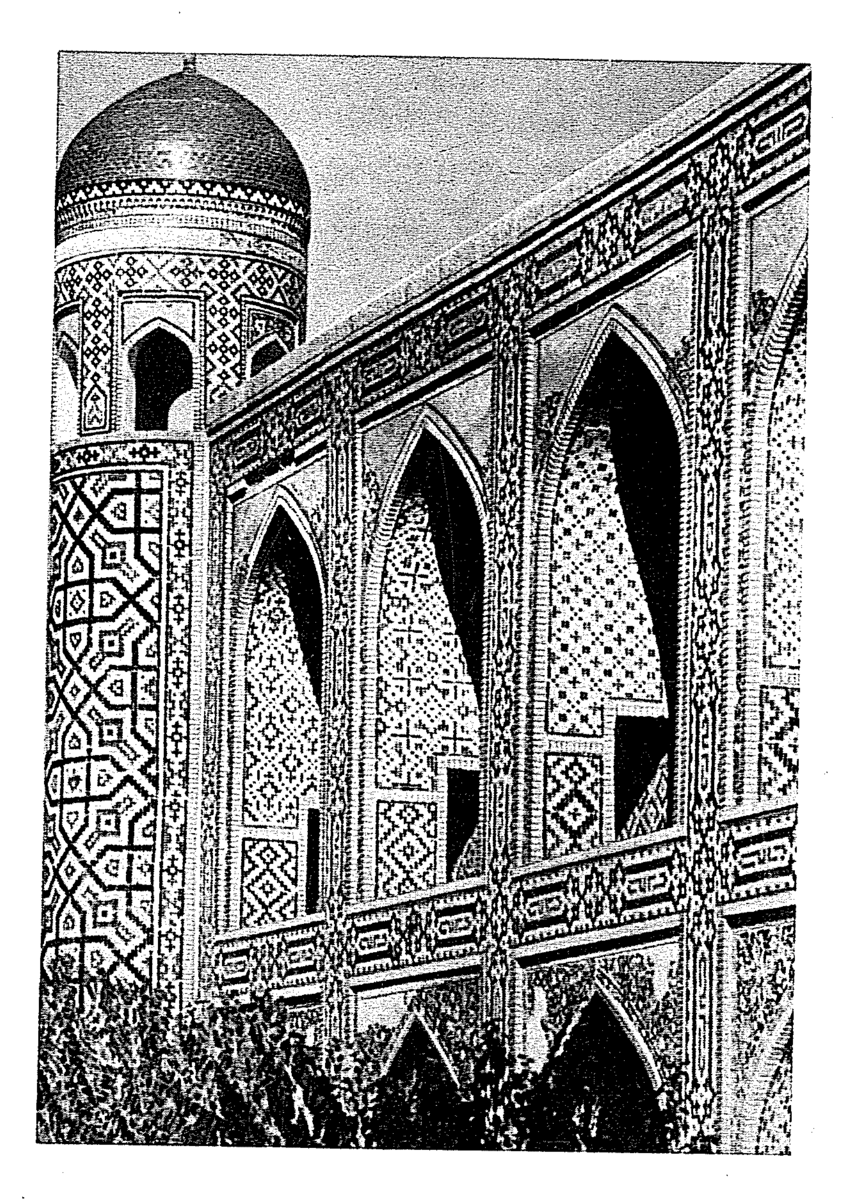


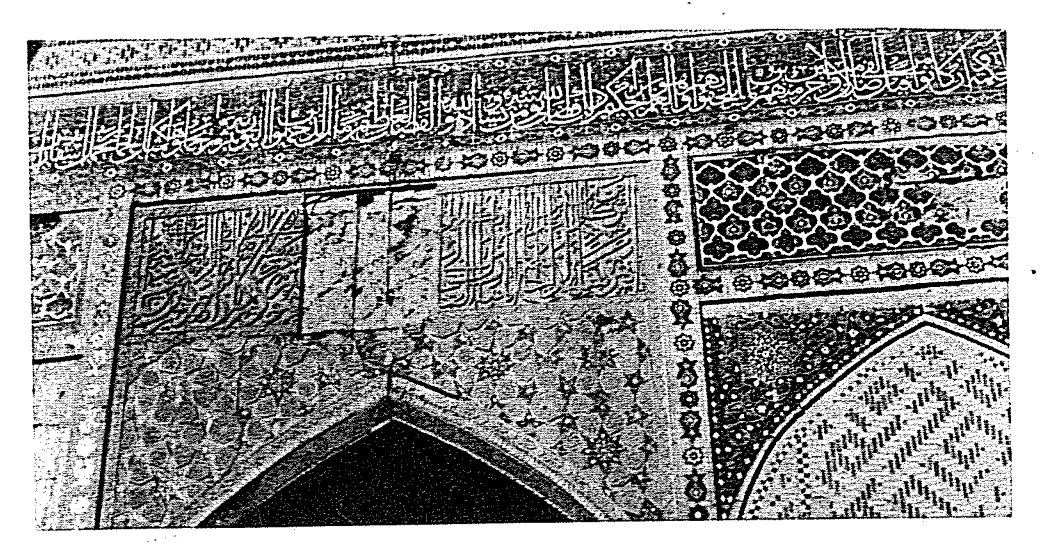
بخارى: مدرسة اولوغ بك. صورة للصحن الداخلي لهذه المدرسة العظيمة التي أقامها اولوغ بك سنة ٨١٩ هـ (١٤١٧ م) والتي بذل في سبيلها وسبيل مدرسته الشهيرة في سمرقند كل غال ونفيس.. لقد قام الروس البلاشفة باقفال هذه المدارس والمساجد وتحويلها الى متاحف وصالات ونوادي. كما قاموا بتحطيم بعضها. وقد بلغ عدد المدارس الاسلامية التي أقفلت او حطمت بواسطة الشيوعيين البلاشفة أكثر من سبعة آلاف مدرسة في التركستان وحدها. أما في الاتحاد السوفياتي باكمله فقد حطم الروس أو اقفلوا أكثر من ١٥,٠٠٠ مدرسة إسلامية.

يسي: جزء من شباك من حائط مسجد سيدي أحمد اليسوي صاحب الطريقة المشهورة في التركستان والذي كان لتلاميذه دور كبير في اسلام قبائل المغول. يعتبر مركز الطريقة اليساوية في قازاخستان ولها انصار ومريدون في جميع انحاء التركستان وخاصة في قرغيزيا..
ولقد كان لهم دور عظيم في محاربة الروس القياصرة كما كان لهم دور كبير في محاربة الشيوعية وقوات لينين وخاصة جماعة (الايشان) التي يتهم مريدوها بالتعصب الديني والنشاط المناهض للسوفيت منذ عام ١٣٣٩ هـ (١٩٢٠ م) كما يقول بنجيسن ولومرسييه في كتابهما (المسلمون المنسيون في الاتحاد السوفيتي).

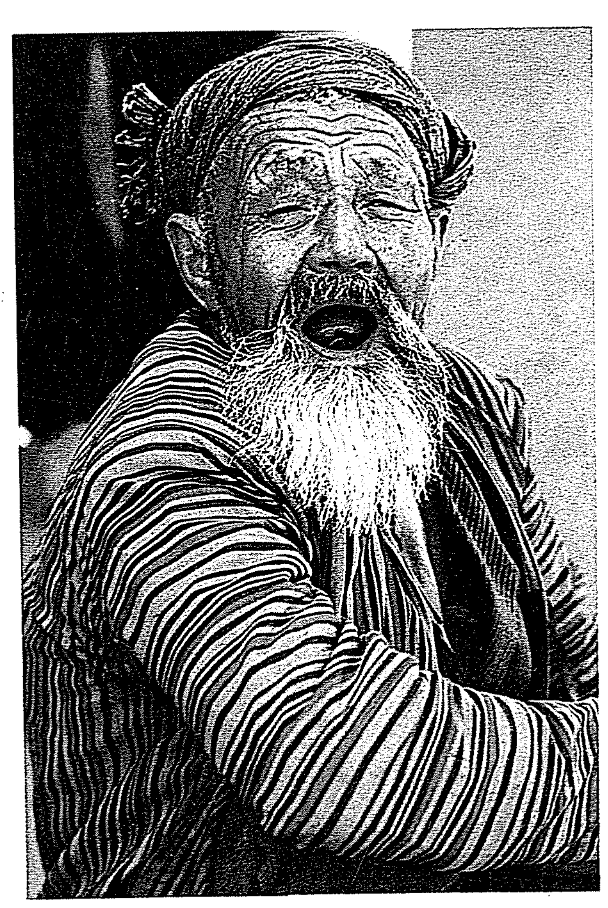


سمرقند: مدرسة طلاكاري التي أنشئت في القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي) توضح مدى الاهتمام بالمدارس الاسلامية حتى في عصور الانحطاط النسبي. استغرق تشييد هذه الجامعة الاسلامية ١٥ سنة من ١٠٥٦ الى ١٠٧١هـ (من ١٦٤٦ الى ١٦٦٠م). وللأسف أغلق الروس البلاشفة هذه المدرسة كما اغلقوا أكثر من سبعة الاف مدرسة مماثلة في جميع انحاء التركستان وحولوها الى متاحف أو الى مدارس لتعليم الشيوعية..

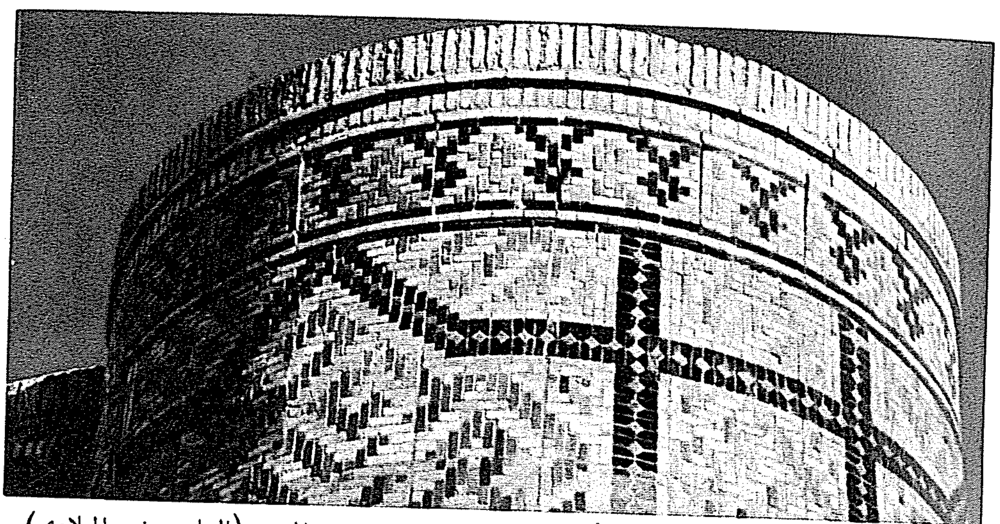




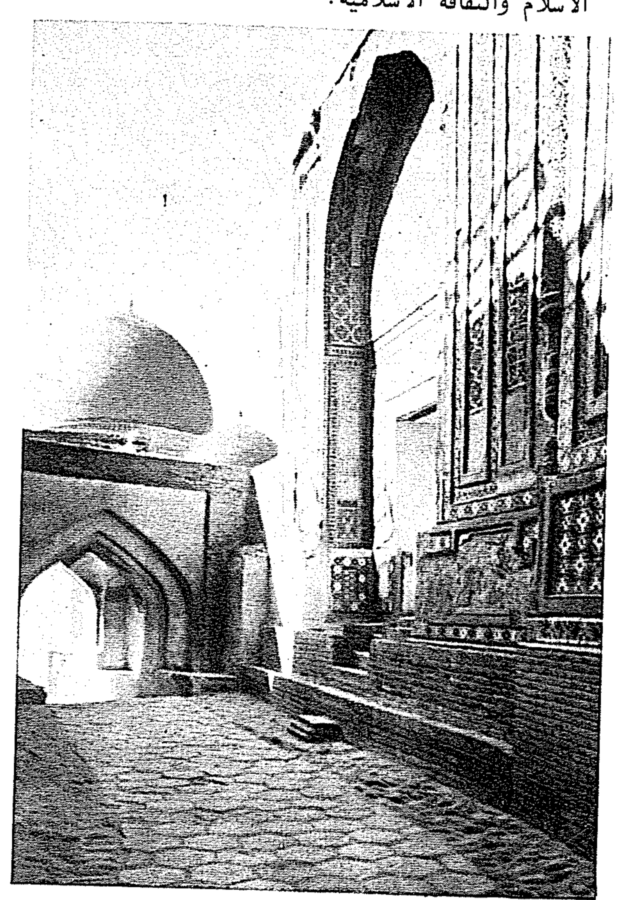
سمرقند: مسجد بي بي خانم الذي بني سنة ٨٠٢ - ٨٠٧هـ (١٣٩٩ - ١٤٠٤م) الصورة تظهر جزء من المدخل الرئيسي الى المسجد وتوضح مدى تقدم الفن المعماري الاسلامي في سمرقند في ذلك الوقت..



أي ظلم وحيف دفع هذا الشيخ الذي أنجبته أرض (البخارى وابن سينا وابو بكر القفال الشاشي وابو الليث السمرقندي) الى أن يصرخ هذه الصرخة في وجه المحتل الروسي الذي أباد مئات الالوف من إخوانه ومواطنيه واحبائه وشرد منهم الملايين منذ أن دخلت قوات لينين أرض بخارى سنة ١٣٤١هـ (١٩٢٢م).

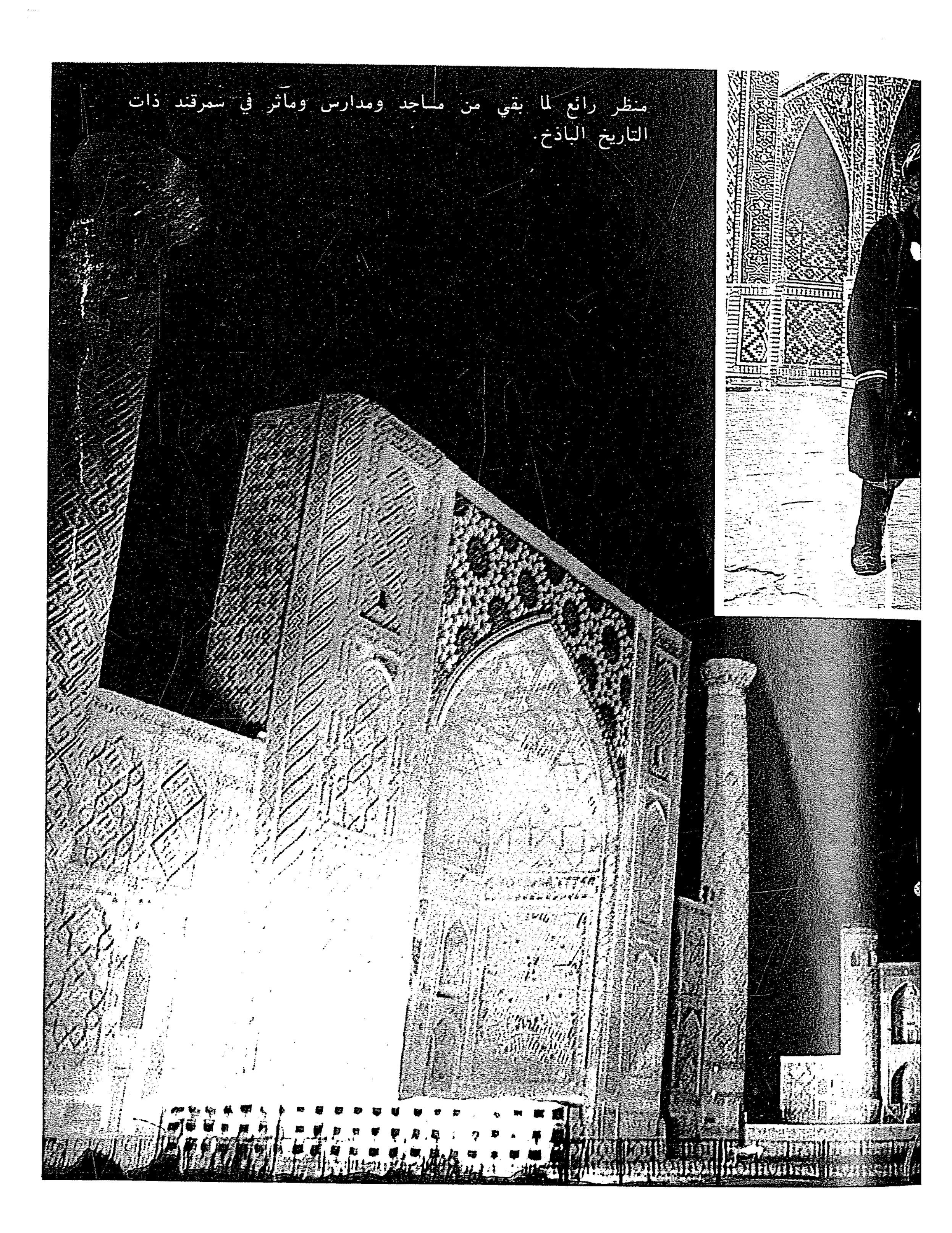


سمرقند: برج مدرسة شير علي التي أسسها في القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي) ١٠٢٩ - ١٠٤٦ هـ (١٦١٩ - ١٦٣٦ م) في عهد الاشتراخانيين.. لقد قام الشيوعيون الروس باقفال هذه المدرسة كما اقفلوا سبعة الاف مدرسة أخرى في جميع أرجاء التركستان ليحاربوا الاسلام والثقافة الاسلامية.



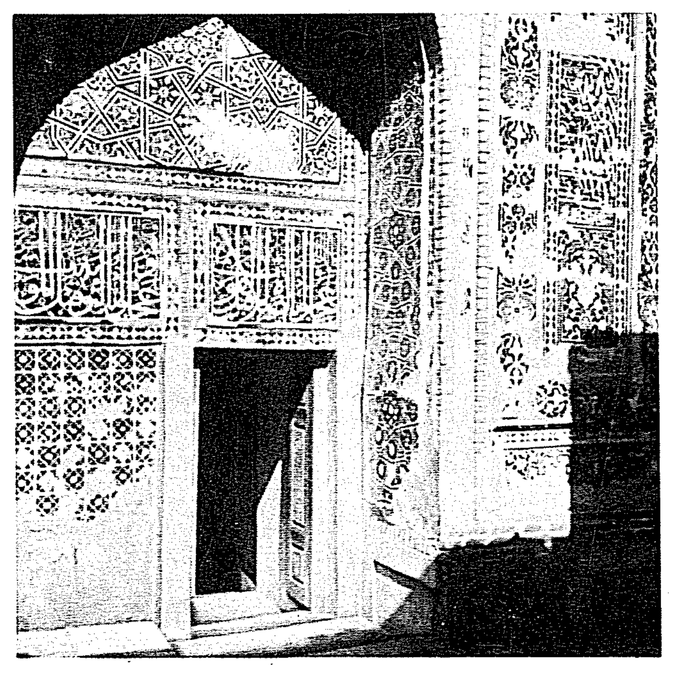
سمرقند: منطقة شاه زندة التي حرص الملوك والامراء على اقامة المدارس والمساجد فيها كما حرصوا على أن يدفنوا فيها. هذه مدرسة ومسجد أمير زادة والتي تعود الى القرن الثامن الهجري ٧٨٨ هـ (القرن الرابع عشر الميلادي (١٣٨٦ م).

ثلاثة من أهل سمرقند يمشون بجوار حائط مسجد ومدرسة شاه زنده في سمرقند ترى الفرق بين عظمة الماضي وبؤس الحاضر

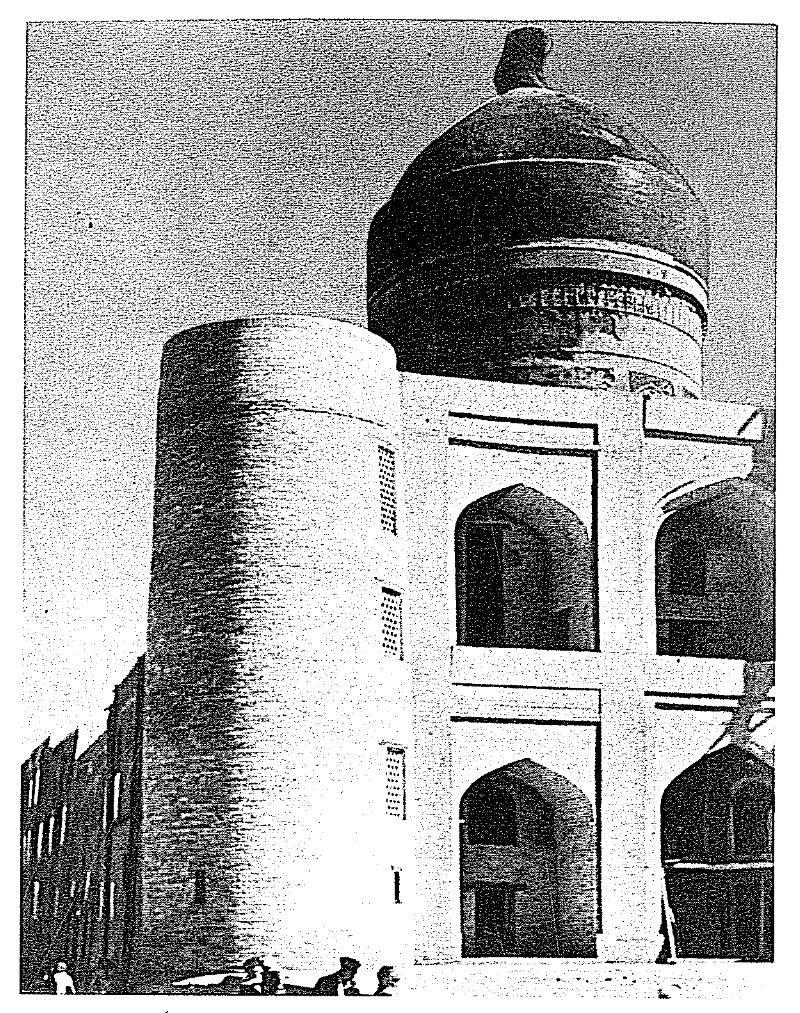


منظر رائع لما بقي من مساجد ومدارس ومآثر في سمرقند ذات التاريخ الباذخ.

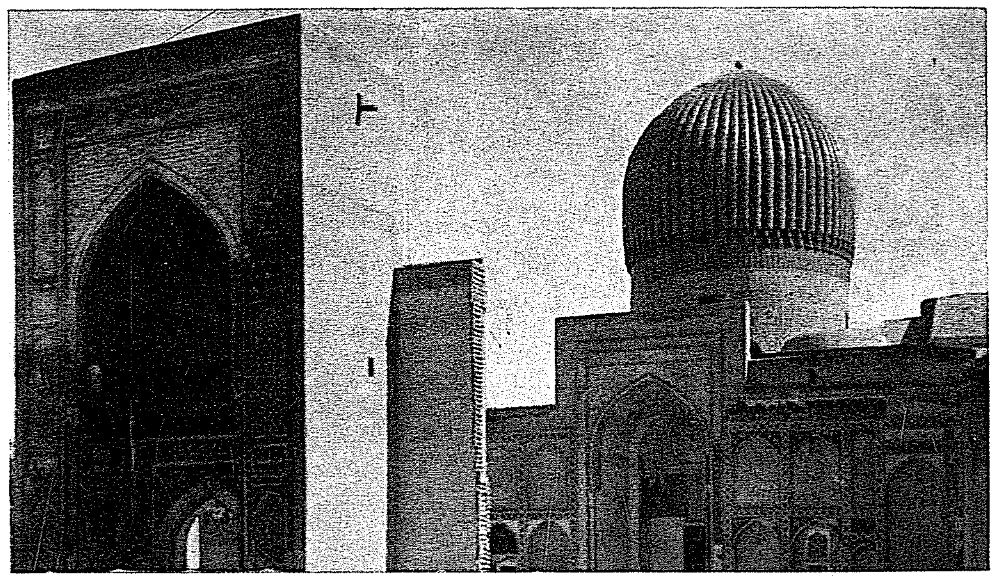
سمرقند: صورة أخرى لباحة داخلية لمدرسة طلاكاري.



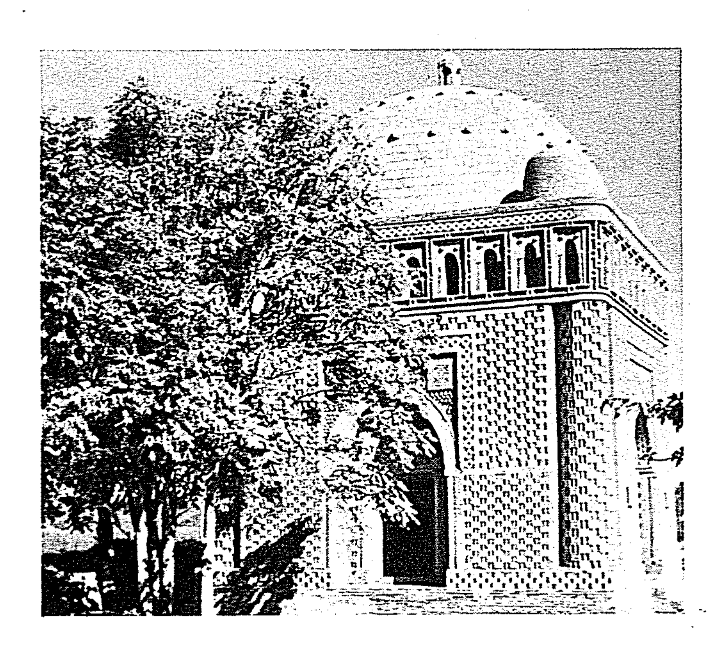
سمرقند: منطقة شاه زندة مسجد تومان أقا الذي شيده في بداية القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) المنظر يوضح الباحة العلوية للمسجد.. لقد منع الروس الصلاة في جميع هذه المساجد المنتشرة في سمرقند وخاصة في منطقة شاه زندة كما حولوا جميع المدارس العظيمة الموجودة هناك الى متاحف.



بخارى: أشهر ما بقي من مدارس بخارى العظيمة مدرسة مير عرب (أمير العرب) التي أسسها الشيخ عبد الله اليمني سنة ٩٤٢هـ (١٥٣٥م) بمحاذاة مسجد كلان في الجانب الآخر من الساحة الصغيرة.. وفي هذه المدرسة أكثر من مائة قاعة للدرس.. ولها مزايا هندسية كثيرة منها القبة التي تحدث في النفس تأثيراً فنياً رائعاً.. وقد بقي منها جزء من القوشية والكتابات من الطوب الملون والفيفساء على جدران وأقواس هذه البناية كما بقيت على قبتها الشمالية تكسية زرقاء تضاهي زرقة السماء.. وقد كان الشيخ عبد الله اليمني الملقب بمير عرب يتمتع بنفوذ كبير في بخارى وبذل الاموال العظيمة في تشييد هذه المدرسة كما وقف عليها ضياعا وأموالا هائلة لتؤدي دورها في نشر العلم على مدى القرون حيث بقيت هذه المدرسة الى اليوم مركزاً للدراسات الاسلامية وهي احدى مدرستين اسلاميتين سمح بهما الروس البلاشفة لتدريس العلوم الاسلامية بعد ان حطموا أكثر من سبعة الاف مدرسة والمدرسة الثانية في طشقند وهي مدرسة الامام البخاري.



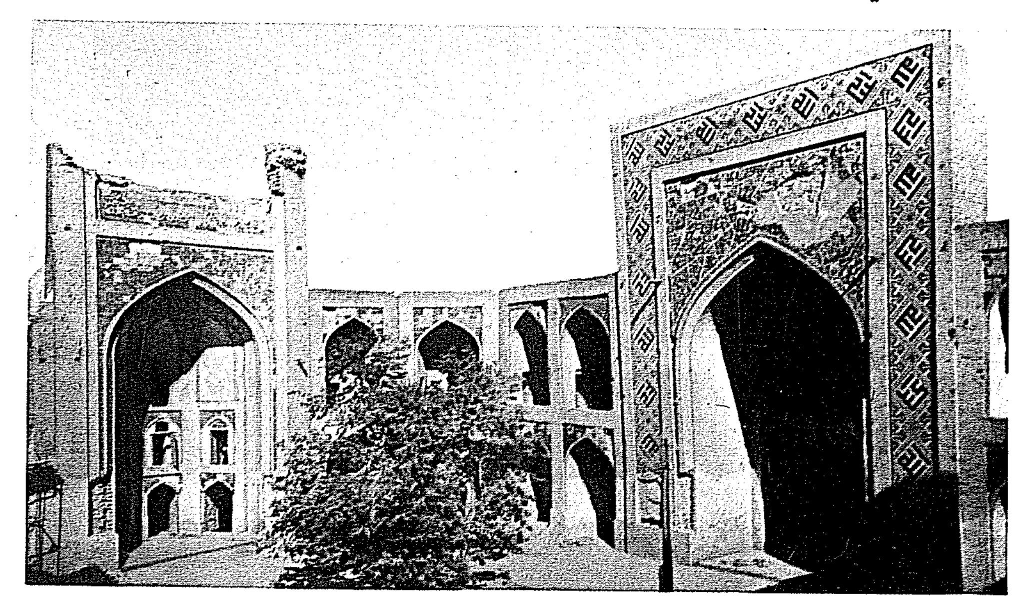
سمرقند: مسجد تيمورلنك أحد القادة والحكام العظام في التاريخ.
لقد حكم تيمورلنك موسكو ووارسو وخضعت له جميع الأراضي المعروفة اليوم باسم الاتحاد السوفيتي البالغة مساحتها اكثر من ٢٢ مليون كم مربع. كما حضعت له ايران وأفغانستان والهند باكملها (باكستان وبنجلادش والهند) والعراق والشام.. وغرب الصين.
لقد عاش تيمورلنك ٦٩ عاما (٧٦٥ - ٨٠٧هـ) (١٣٣٦ - ١٤٠٥م) ارتفع خلالها من ضابط بسيط الى أحد أشهر حكام الدنيا..

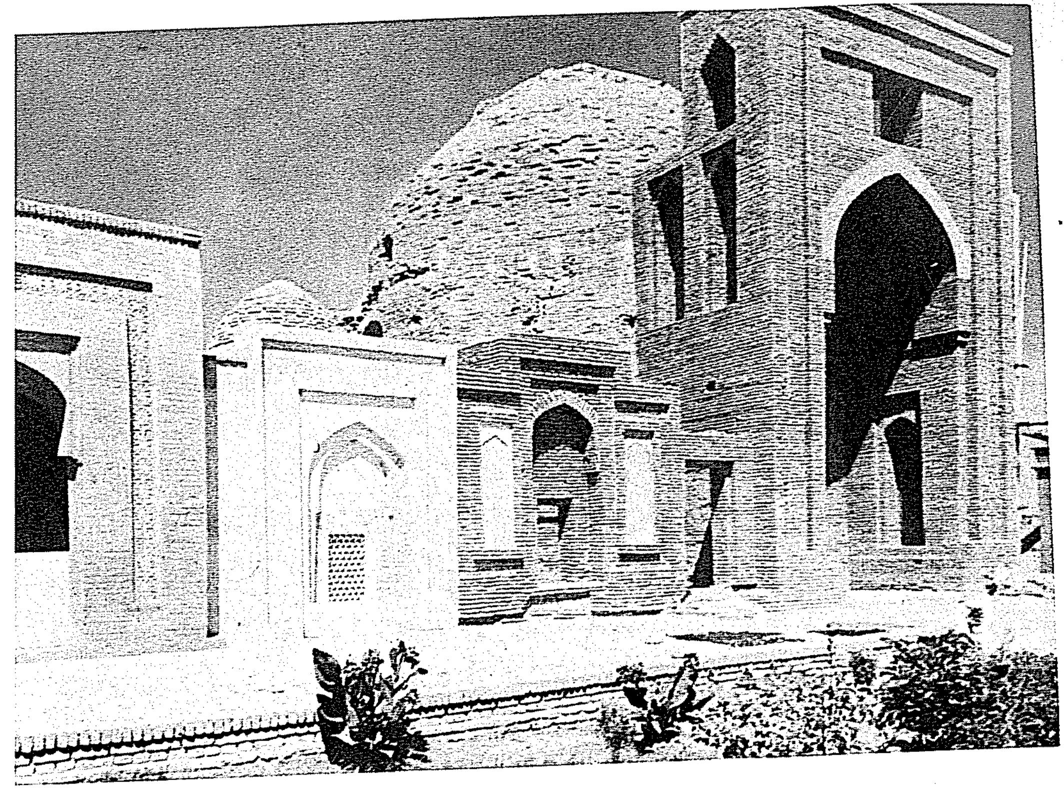


بخارى: زاوية اسماعيل الساماني أعظم ملوك بني سامان الذين جعلوا بخارى «مثابة العلوم كلها».

بخارى: صورة لبخارى وفى
مقدمتها بقايا مسجد كلان
وبوابته الرئيسية بعد أن
تحول الى متحف في عهد
البلاشفة.

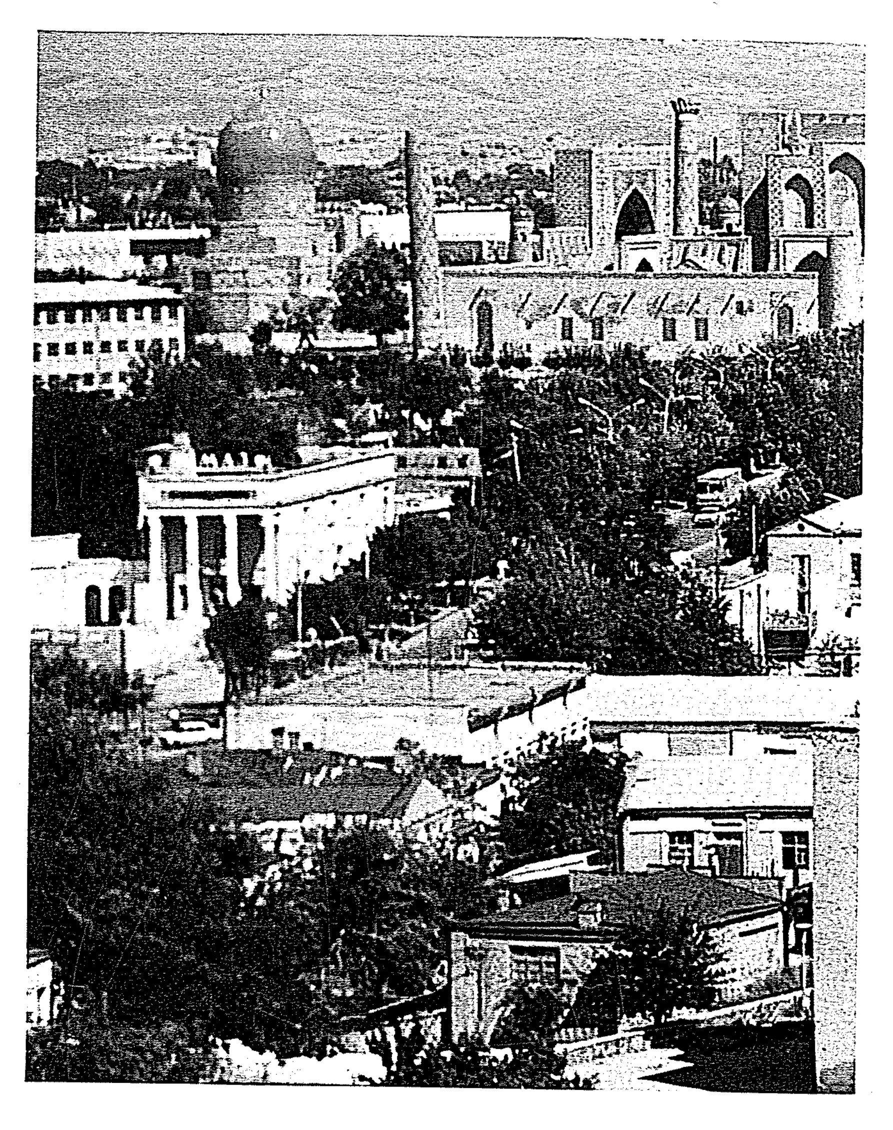
بخارى: مدرسة عبدالله خان التي شيدت في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) ٩٩٧ - ٩٩٩هـ (١٥٨٨ - ١٥٩٠م) في العهد الشيباني.
توضح مدى اهتمام الامراء والأثرياء بإقامة المساجد والمدارس.. لقد بلغ عدد المدارس الاسلامية الشبيهة بهذه المدرسة التي حولها الروس الى متاحف ونوادي وصالات في التركستان وحدها ٧٠٥٢ مدرسة.. وتبدو فيهذه المدارس روعة الفن الاسلامي.. وكم زخرت هذه المدارس بالعلماء والفطاحل وكم أخرجت من جهابذة في كل فن.



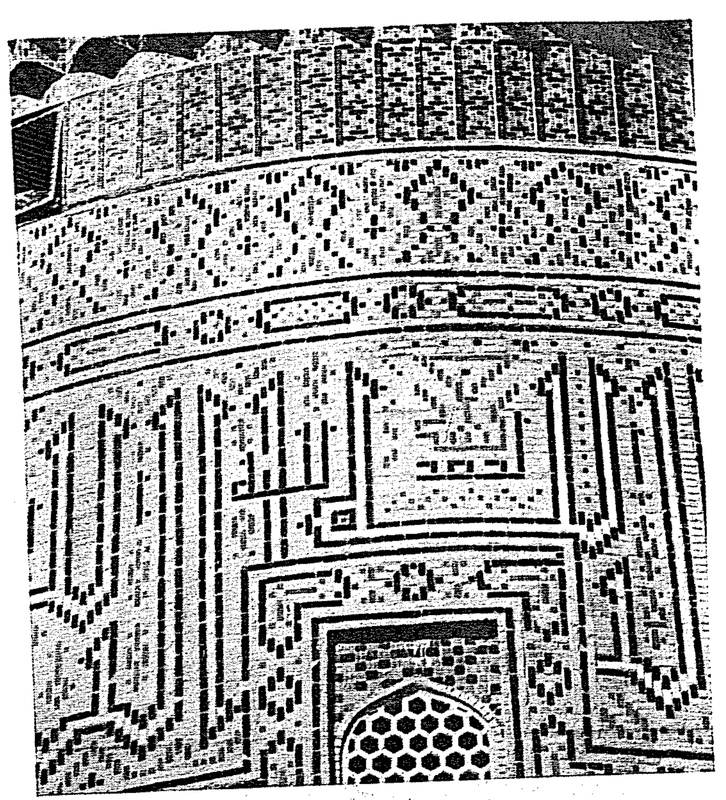


ترمذ: احدى مدن جمهورية اوزبكستان التي اندثرت بعد أن دخلها الروس.. وقد كانت ترمذ كما وصفها (ياقوت الحموي) مدينة مشهورة من أمهات المدن راكبة على نهر جيحون (أموداريا) وأول من فتحها الصحابي الحكم بن عمرو الغفاوي سنة ٤٦ هـ (٦٦٤ م) في عهد معاوية بن ابي سفيان.. وأشهر من ظهر من ترمذ الإمام محمد بن عيسى الترمذي صاحب (الجامع الصحيح) المشهور بسنن الترمذي..

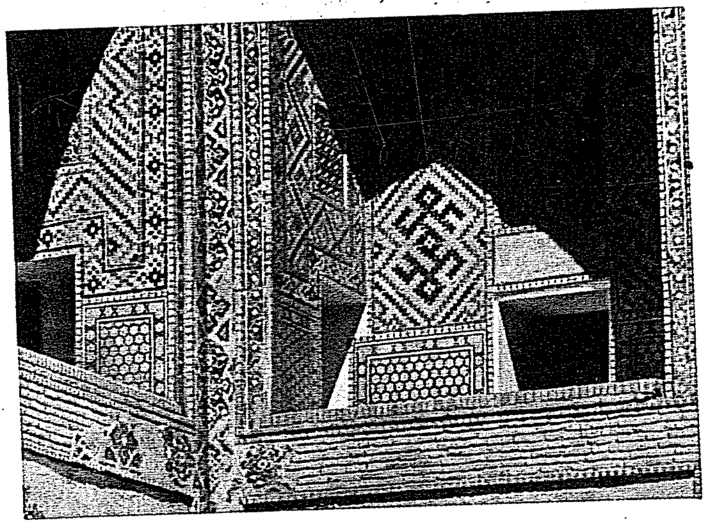
وهذه الصورة لمسجد الحكيم الترمذي. وهو غير الإمام ابي عيسى محمد بن عيسى الترمذي.. وقد اشتهر محمد بن علي المعروف بالحكيم الترمذي بعلمه وولايته وقد توفي محمد بن علي هذا سنة ٢٥٥ هـ (٨٦٩ م) وهذه الاطلال هي بقايا لمدينة ترمذ القديمة والتي بها قبور مجموعة كبيرة من آل بيت النبي معروفة هناك بأسم (سلطان سادات) كما بها مجموعة من المساجد والمدارس الاثرية التي حطمها الروس عند دخولهم ترمذ.. ولم يبق منها الا بعض الآثار البسيطة.



سمرقند ذات المجد الباذخ والتاريخ المجيد التي فتحها المسلمون في عهد معاوية سنة ٥٦ هـ/ ٦٧٥ م بقيادة سعيد ابن الخليفة الراشد عثمان بن عفان. وكان في جيشه قثم بن العباس (ابن عم النبي ﷺ والذي كان أحد ثلاثة يشبهونه ﷺ وهم الحسن بن علي بن أبي طالب وجعفر الطيار بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين). وقد استشهد قثم رضي الله عنه في فتحها فأقام له أهلها بعد دخولهم في الاسلام مزاراً اسموه شاه زندة أي السلطان الحي ذلك لأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون.. وفي هذا الموقع قامت عشرات المدارس الاسلامية العظيمة.. وكان الملوك والعظماء يتنافسون في العناية بها ويوقفون عليها الاوقاف العظيمة.. كما كان كثير من العلماء والصالحين والمشهورين يقبرون في تلك الناحية بالقرب من قبر ابن عم رسول الله ﷺ.



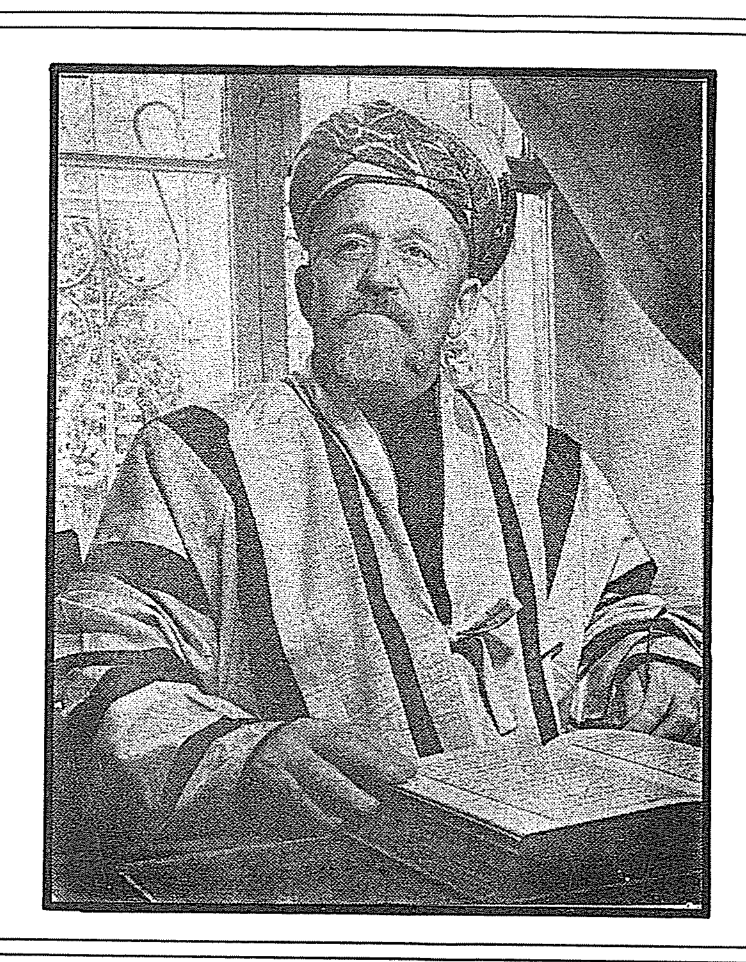
سمرقند: صورة لتوضيح النقوش الرائعة والكتابة على جزء من القبة التى يرقد تحتها تيمورلنك.



سمرقند: مدرسة شير دار (بنيت في السنوات ١٠٢٩-١٠٤٦ هـ) (١٦١٩-١٦٣٦ م) جزء من واجهة الصحن.

المفتي خيال الدينوف

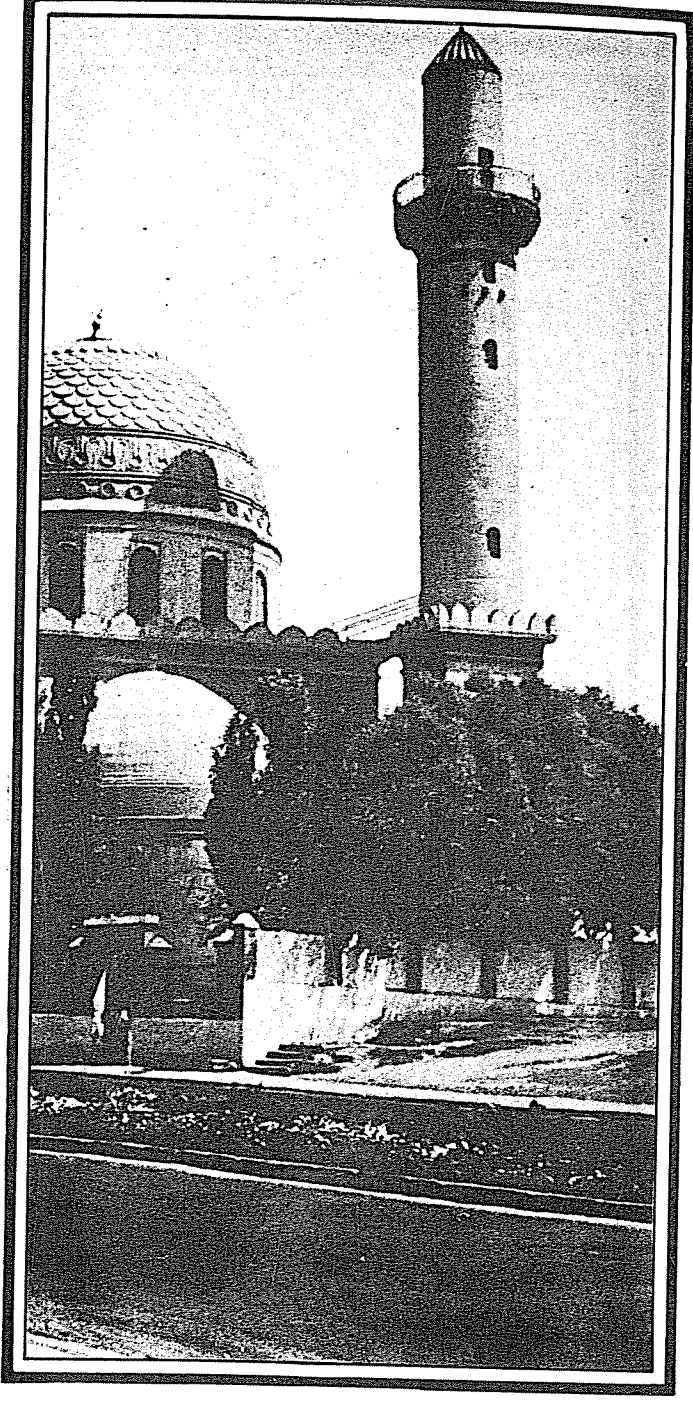
رئيس المجلس الاسلامي للقسم الاوروبي من الاتحاد السوفييتي وسيبيريا.



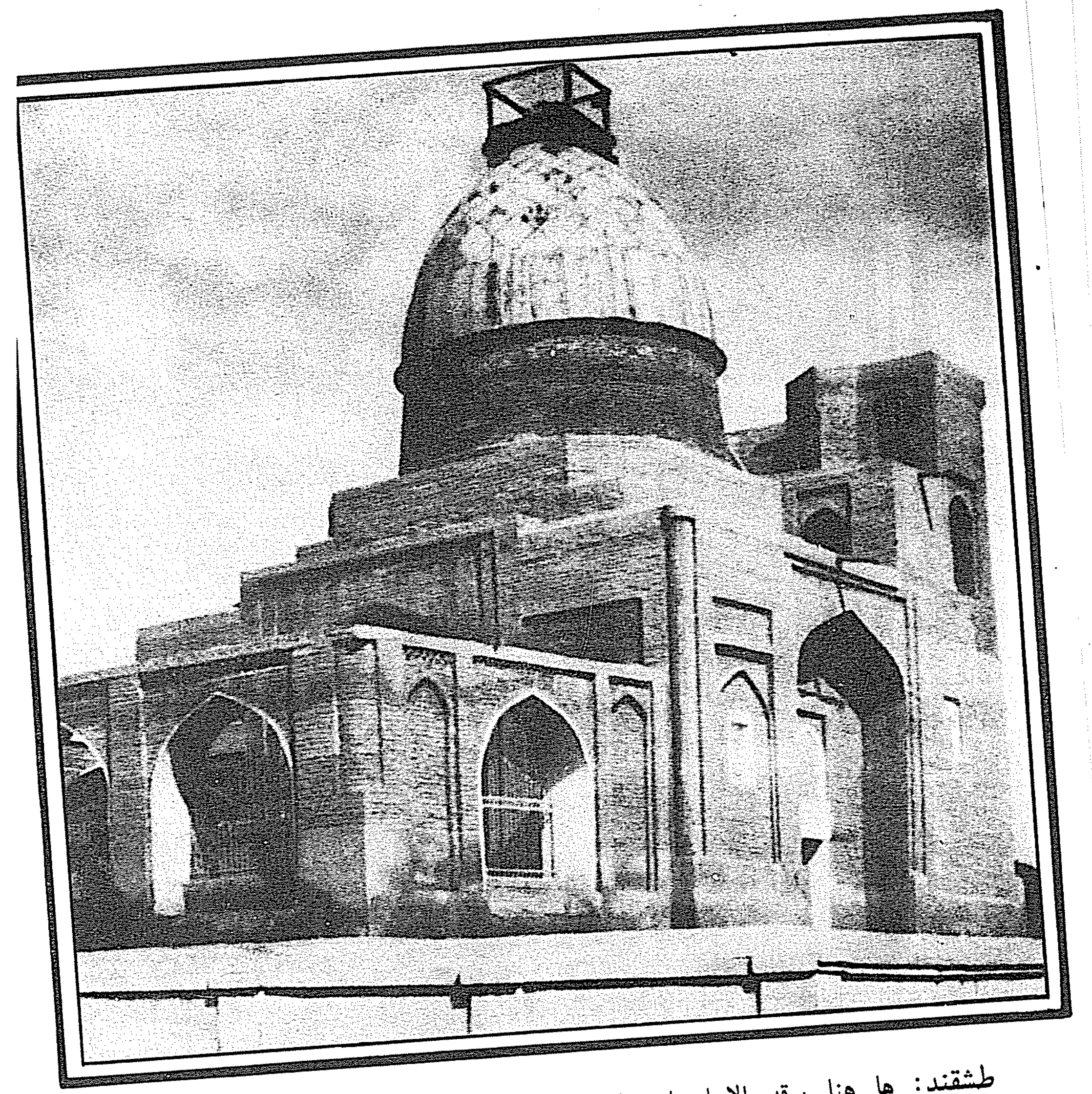
صورة المفتي الحاج شاكر بن غيث الاسلام خيال الدينوف في مكتبه بمدينة أوفا عندما كان رئيساً للإدارة الدينية لمسلمي القسم الاوربي من الاتحاد السوفيتي سنة ١٣٧٧ هـ (١٩٥٧ م).



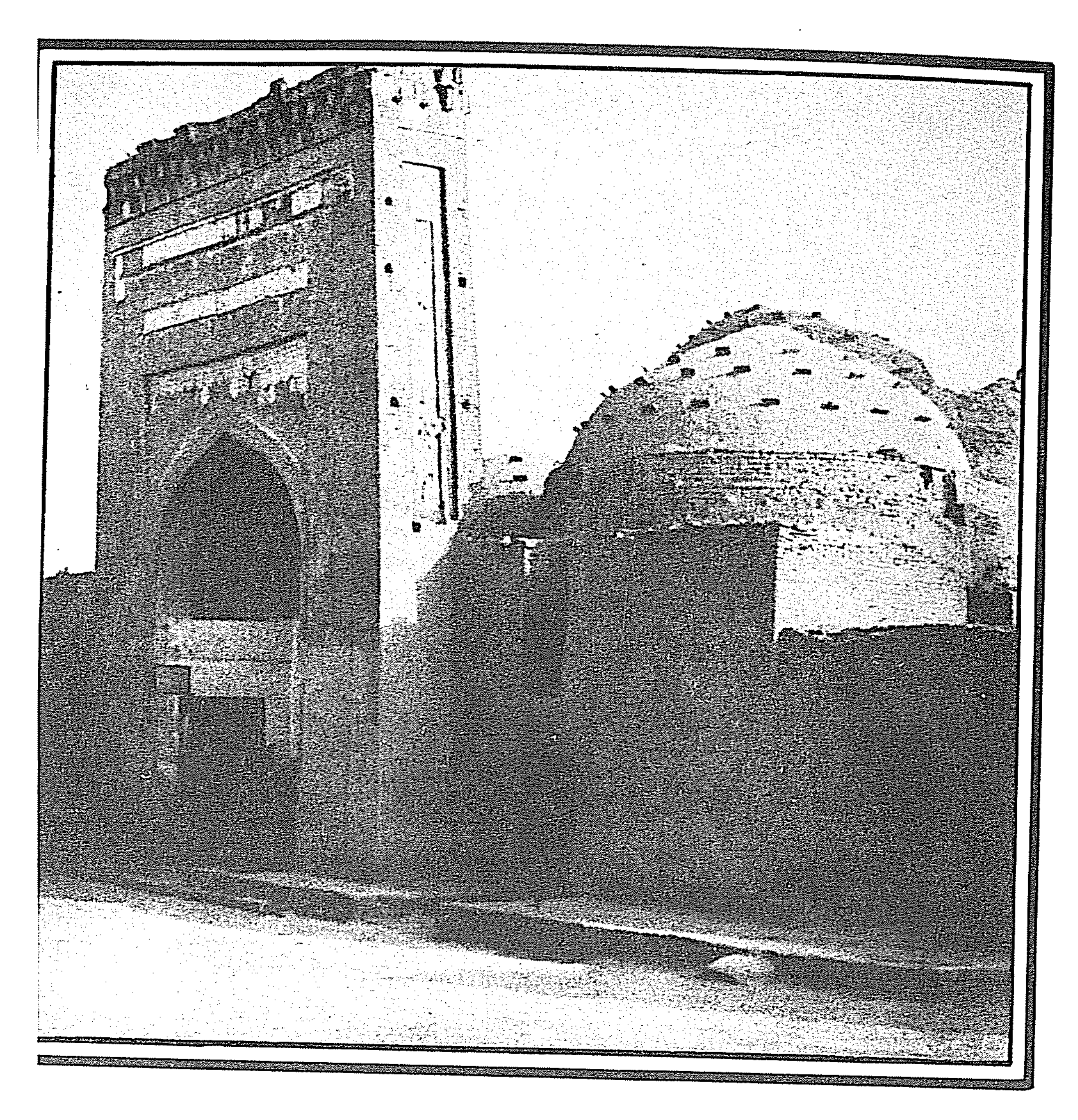
جامع موسكو الذي لا يفتح إلا عند زيارة أحد رؤساء الدول العربية والاسلامية لموسكو.



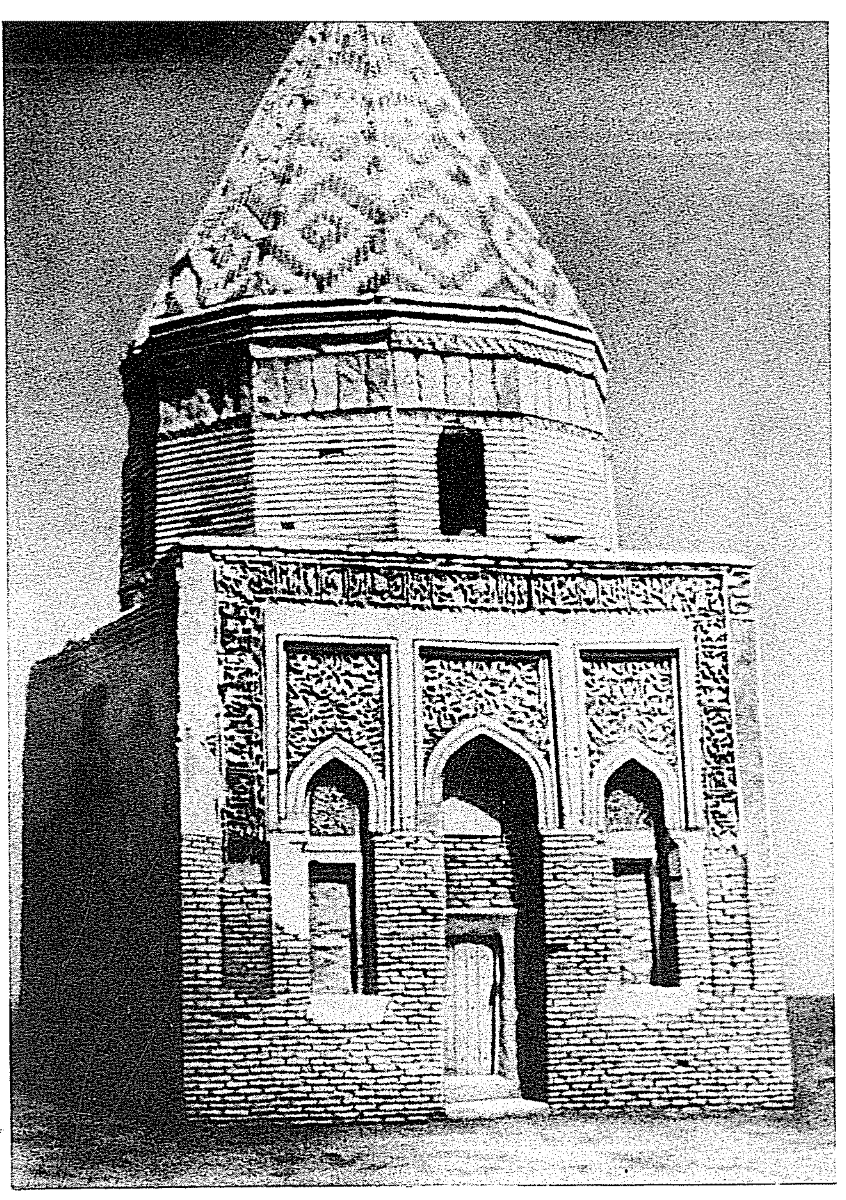
جمهورية أذربيجان السوفيتية
باكو: مسجد ازدربك في باكو التي احتلتها قوات لينين عام ١٩٢٠م بعد ان اعترف لينين بجمهورية أذربيجان المستقلة ثم نكث عهده ووافقه في ذلك سراً الحلفاء امريكا وبريطانيا وفرنسا.. وكان الشيوعيون قد أقاموا مذبحة مارس ١٩١٨م التي قتل فيها ١٨,٠٠٠ من المسلمين ثم استطاعت القوات الاسلامية بمساعدة الغازي انور باشا ان تنزل الهزيمة بالشيوعيين وقامت دولة اذربيجان الاسلامية واعترفت بها جميع الدول بما فيها حكومة لينين ولكن الغدر الشيوعي نقض هذا الاعتراف وأعادوا احتلالها عام ١٩٢٠م. وبعد ان استتب الأمر للروس البلاشفة حولوا مساجدها ومعاهدها الاسلامية الى متاحف ومدارس لنشر الشيوعية والالحاد.. وقد حول هذا المسجد الذي ترى صورته الى متحف..



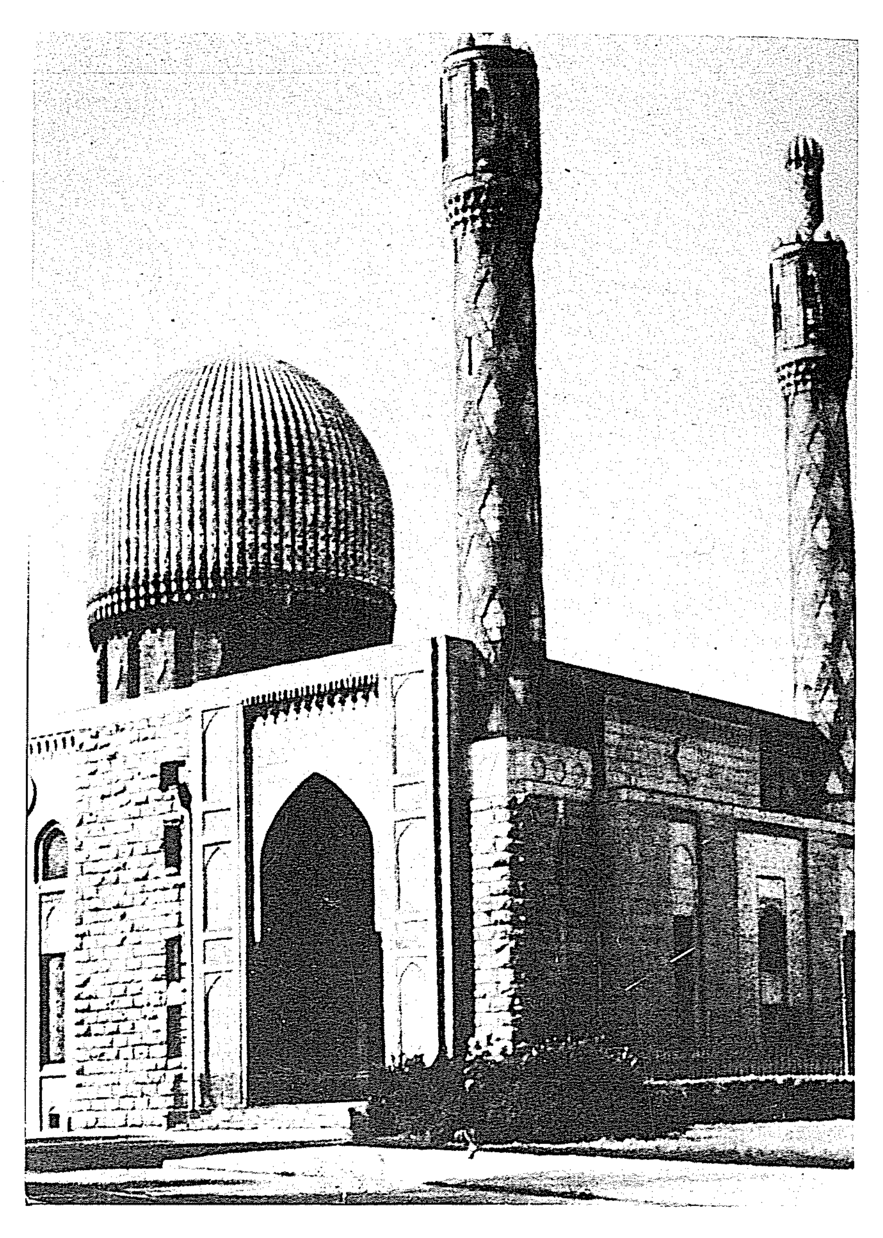
طشقند: ها هنا يرقد الإمام ابي بكر محمدبن علي القفال (الكبير) الشاشي الذي أصبح علماً من أعلام الإسلام بعد أن تبحر في علوم الفقة والحديث والتفسير واللغة. واليه كانت الرحلة في زمنه. ولد في طشقند (الشاش) واشتغل بصنع الاقفال مدة من الزمن ثم طلب العلم كبيراً فنبغ فيه.. وارتحل الى خراسان والعراق وسمع من ائمة العلم مثل ابن جرير الطبري وابي بكربن خزيمة وعاد الى وطنه ونشر بها فقه الشافعي.. وتتلمذ عليه الإمام الحاكم وغيره ولد سنة ٢٩٢ هـ (٩٠٤ م) وتوفي سنة ٣٦٥ هـ (٩٧٥ م).



اوركنج (الجرجانية) خوارزم
زاوية الامام نجم الدين الكبراوي الخيوي الذي عاش في القرن السادس - السابع الهجري (٥٤٠ هـ الى ٦٠٦ هـ) (١١٤٥ - ١٢١١ م) وله تأثير كبير على قبائل التركمان والمغول - وقد كان للطريقة الكبروية دور كبير في اسلام كثير من المغول والتركمان كما كان للطريقة الياساوية ذلك الدور العظيم. وقد قام مريدو هذه الطريقة بمحاربة القياصرة مثلما فعل مريدو الطريقة النقشبندية في القوقاس.. ثم قاموا بعد ذلك بدور بارز في محاربة قوات لينين ولا يزالون يواجهون الحملات العنيفة الموجهة ضد الاسلام.. ولهم دور كبير في الدعوة الى الله وخاصة في مناطق تركمنستان وخوارزم..

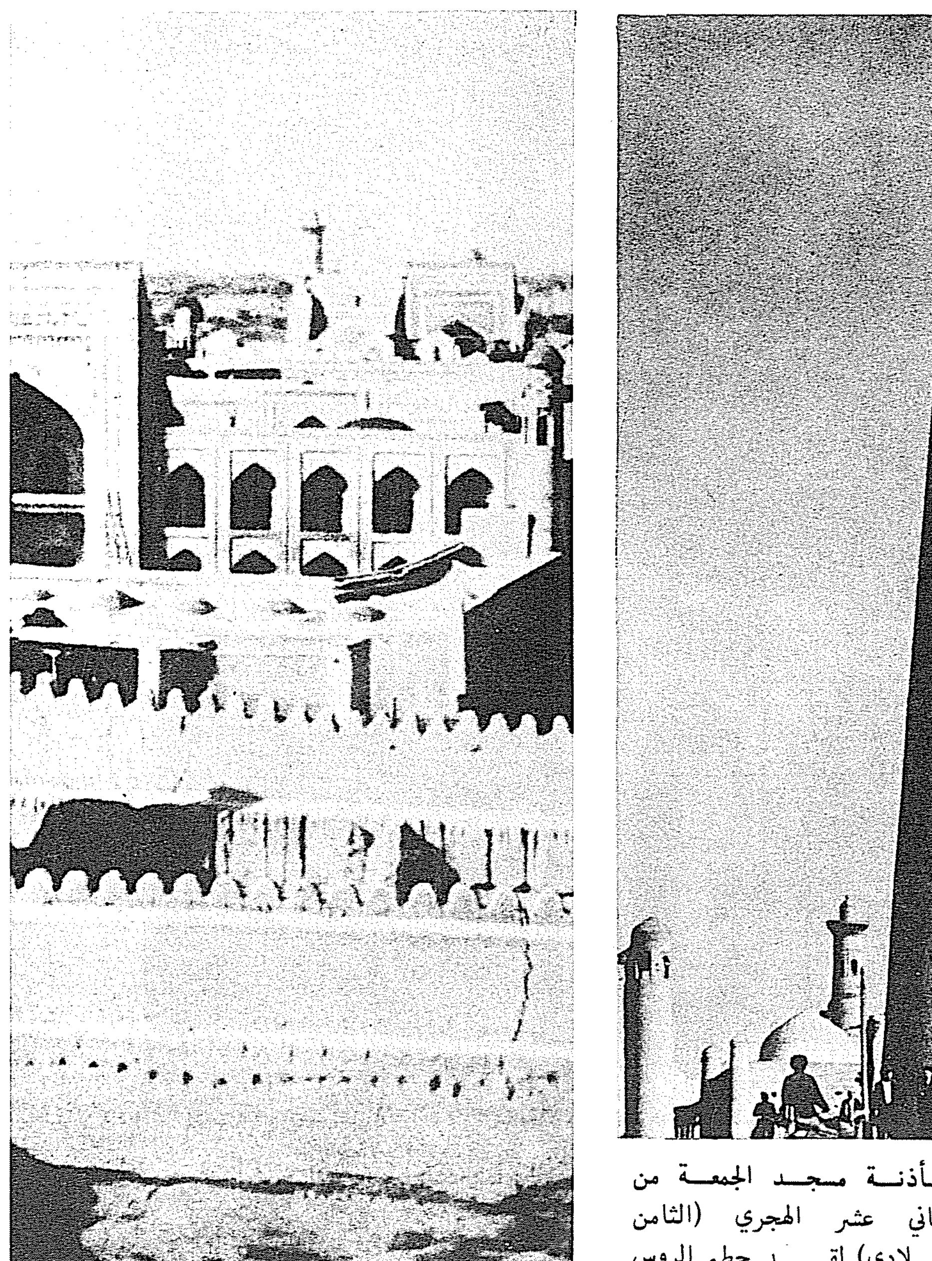


زاوية الإمام الفخر الرازي في خوارزم في الجرجانية، (أو اوركانج وتدعى ايضاً كركانج) عاصمة الدولة الخوارزمية.. وقد كان الفخر الرازي صديقاً للسلطان علاء الدين خوارزمشاه الذي اجتذب العلماء والادباء من كثير من الاقطار الاسلامية واكرمهم وجعلهم زينة عاصمته. (القرن السادس الهجري - الثاني عشر الميلادي). ولد الفخر الرازي ٥٤٥ هـ (١١٥٠ م) في الري (طهران) وذاع صيته فاجتذبه علاء الدين خوارزمشاه. ولقد كان الفخر الرازي عبقري زمانه وألف في التفسير والفقه والحديث والتاريخ والطب والفلسفة والهندسة والفلك واشهر كتبه التفسير الكبير وكانت وفاته في خوارزم سنة ٦٠٦ هـ/ ١٢٠٩ م.

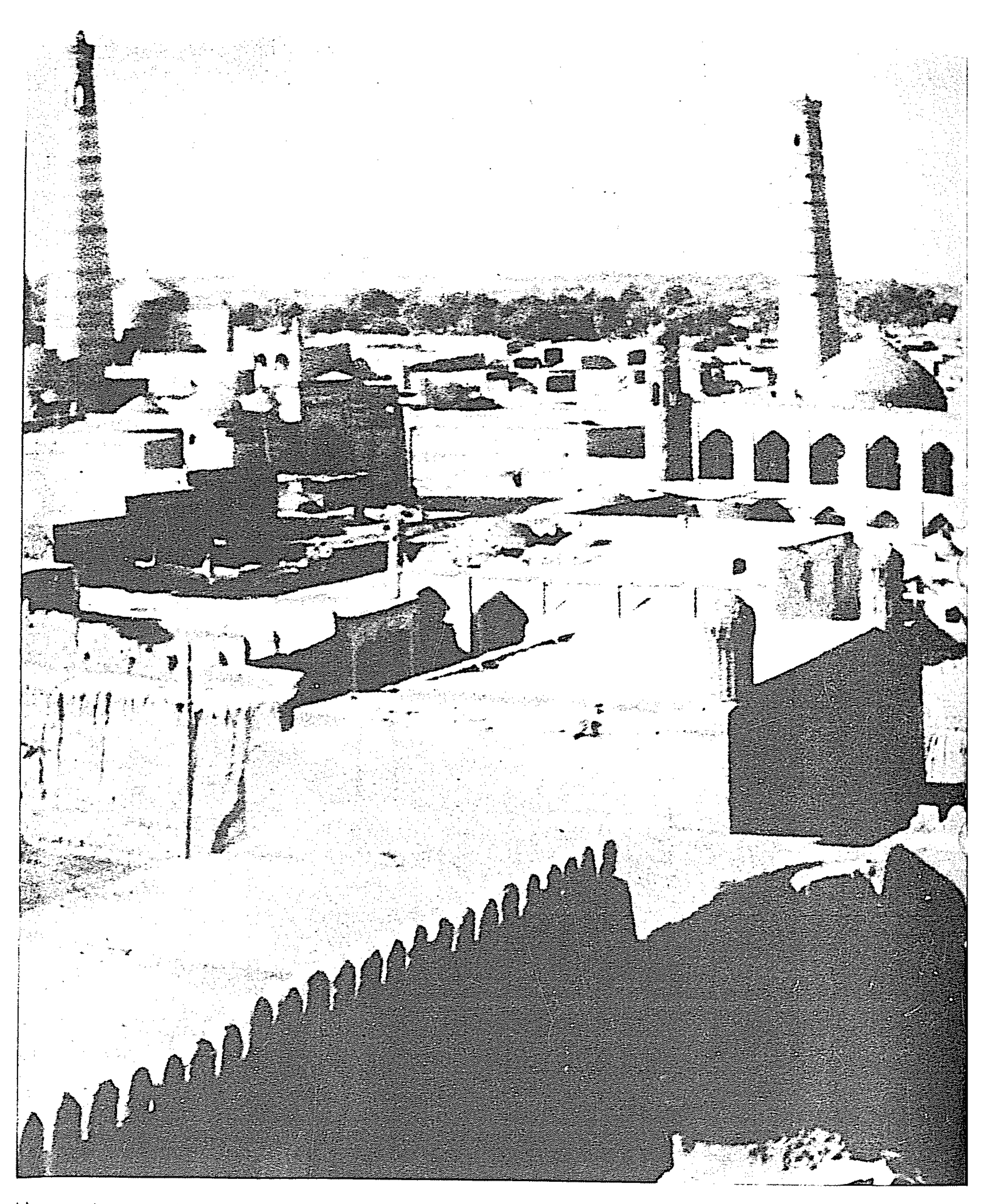


مدينة ليننجراد - مسجد ليننجراد.

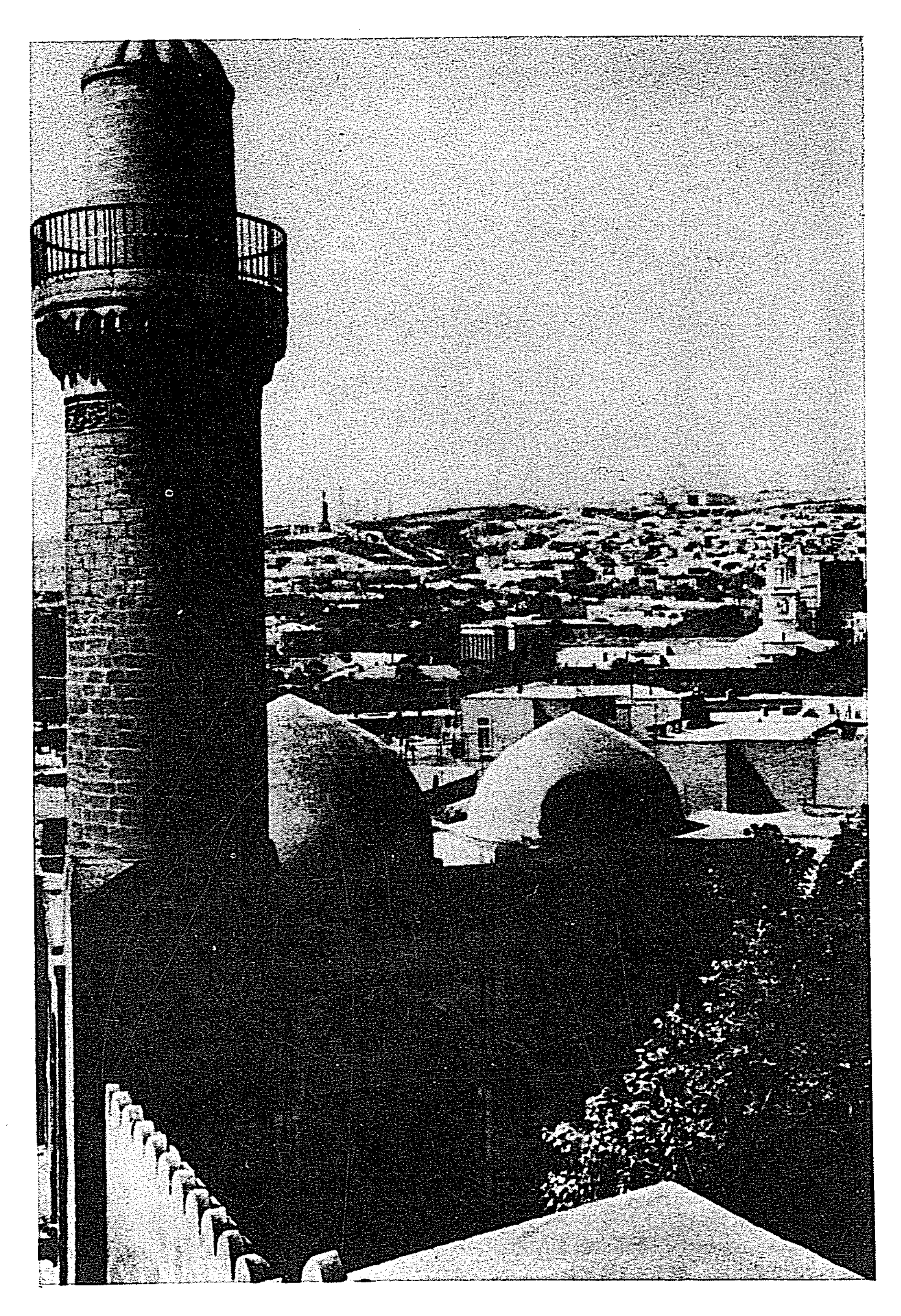
نعم هكذا يقول الكتاب الضخم الذي اصدرته الادارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وكازاخستان في مدينة طشقند ١٩٦٢م والذي قدم له المفتي ضياء الدين بابا خانوف..
ومدينة ليننجراد هي نفسها التي كانت تدعى بتروجراد وسان بطرسبرج وهي عاصمة الامارة الروسية قبل موسكو. وتعتبر ثاني مدن روسيا وتقع على نهر نيڤا.. ويبلغ سكانها قرابة مليونين.. وقد دخل اليها المسلمون منذ وقت مبكر. وهذا المسجد الجميل شاهد على ذلك.



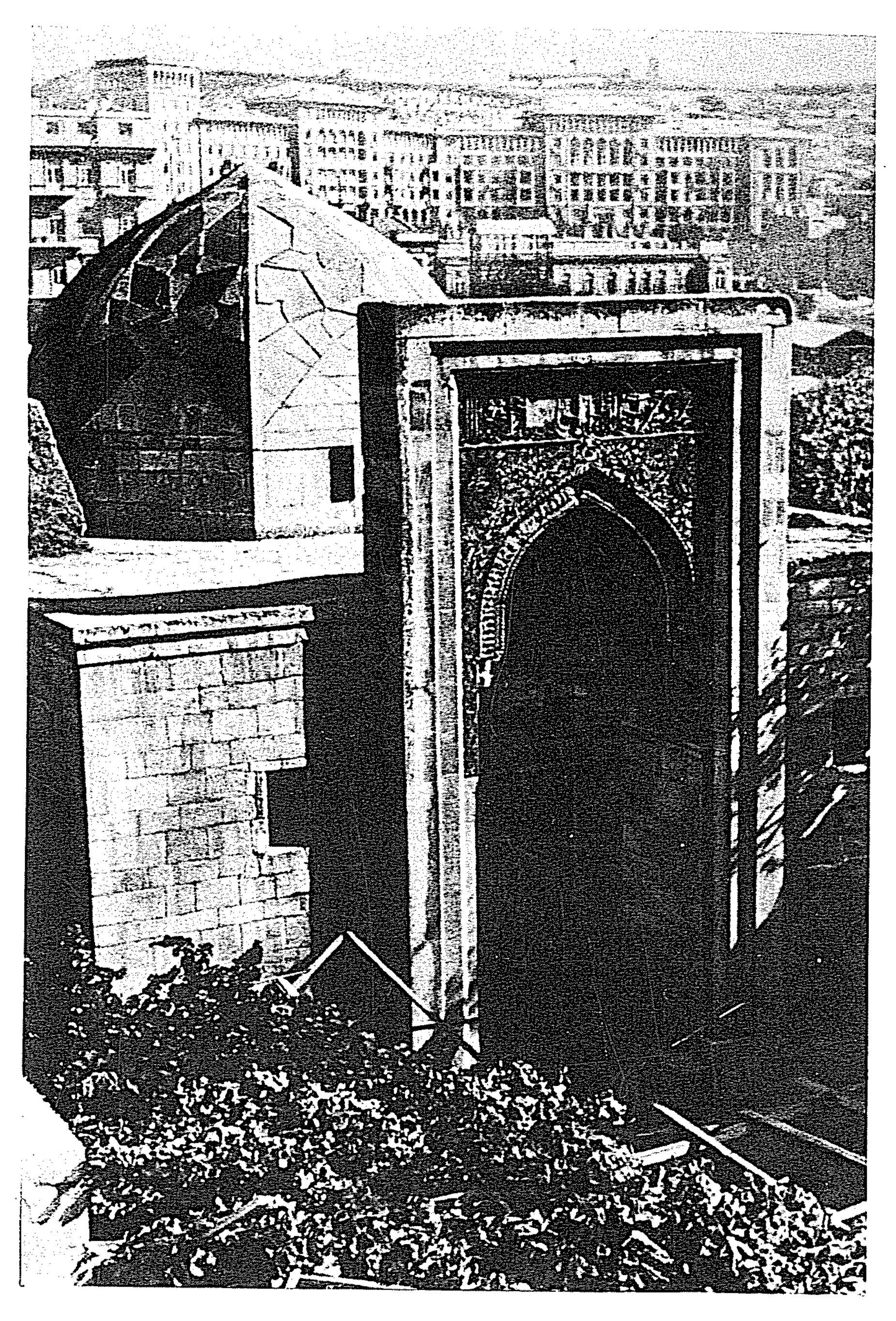
خيوه: مـأذنـة مسجـد الجمعـة من القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميـــلادي) لقـــد حطم الروس البلاشفة هذا المسجد ولم تبق منه الا المنارة.



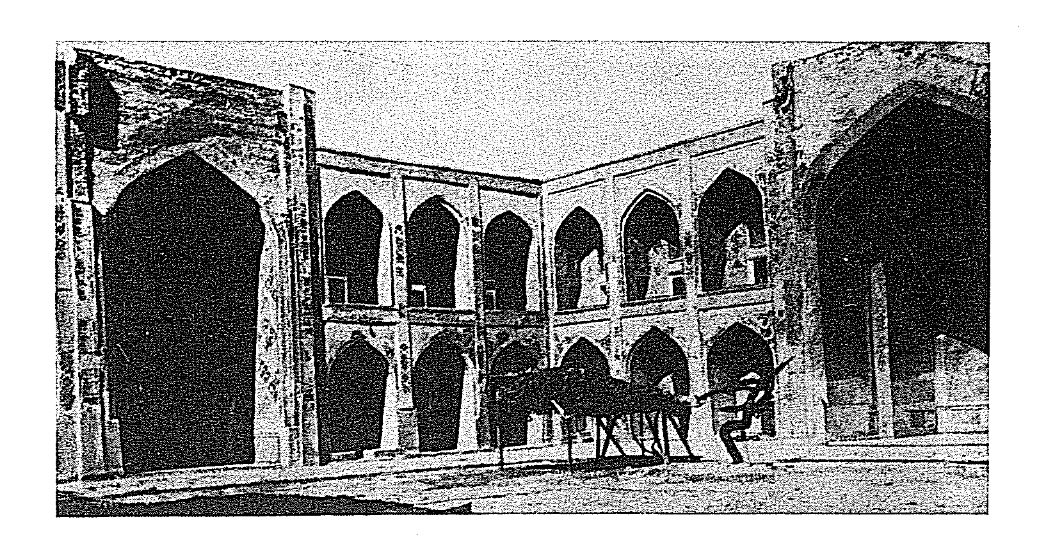
• خيوه: منظر عام للمدينة تبدو فيه مدرسة بهلوان محمود وبقايا المساجد والمدارس التي حولها البلاشفة الروس الى متاحف وصالات ونوادي منذ أن دخلوها سنة ١٣٤٣ هـ (١٩٢٤ م) وترى في الصورة من الجهة اليمنى مدرسة أمين خان التي أقامها سنة ١٢٦٩ هـ (١٨٥٢ م)..



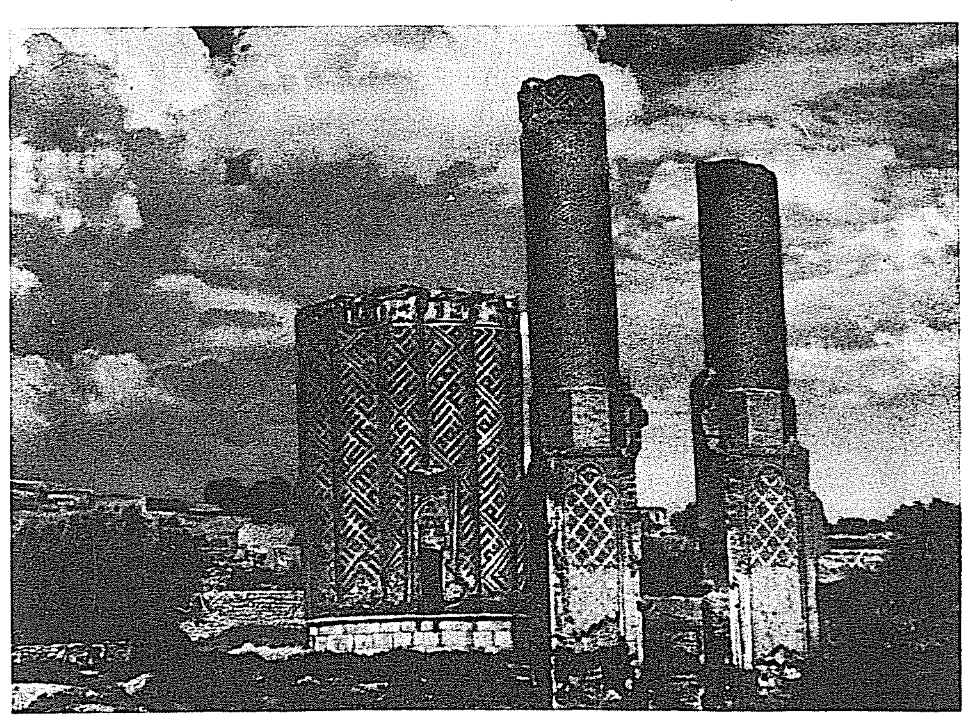
باكو: مسجد قصر الشيروان شاهين الذي شيد سنة ٨٤٥ - ٨٤٦هـ
١٤٤١م - ١٤٤٢م والذي حوله الروس البلاشفة الى متحف..



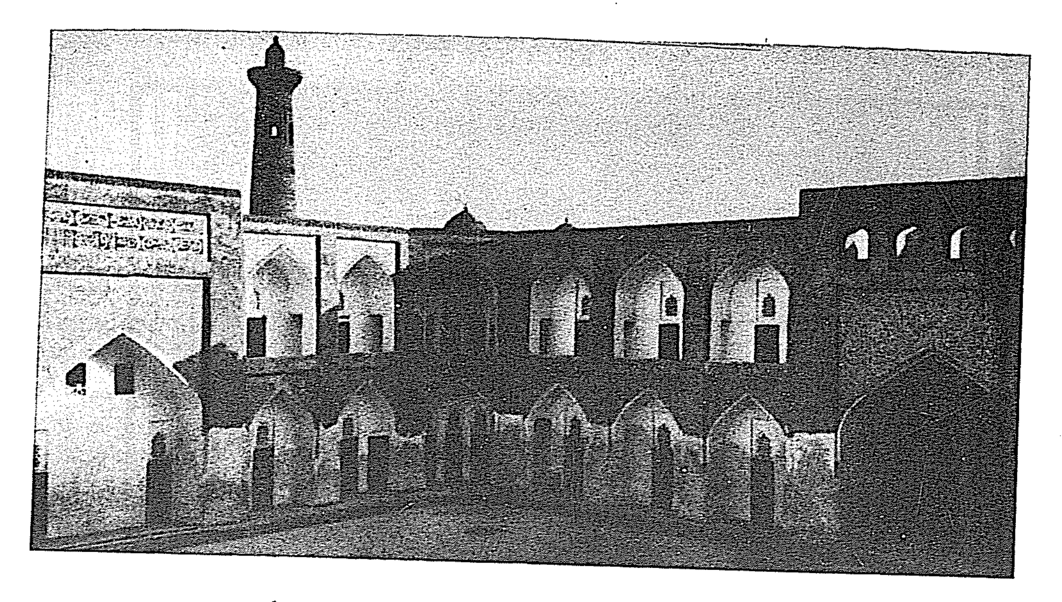
باكو: مجموعة قصر الشيروان شاهين.. وواجهة المسجد والقبة ومن خلفه تبدو مدينة باكو الحديثة التي امتلأت بتماثيل لينين..



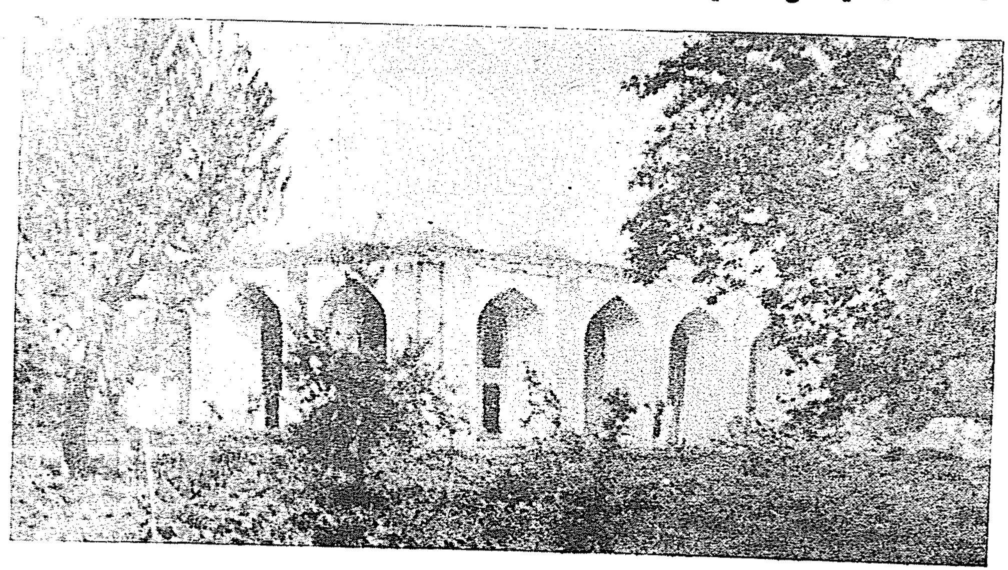
سمرقند: مدرسة شيردار صحن المدرسة شيدت هذه المدرسة (١٠٢٩ - ١٠٤٦ هـ) (١٦١٩ - ١٦٣٦ م).



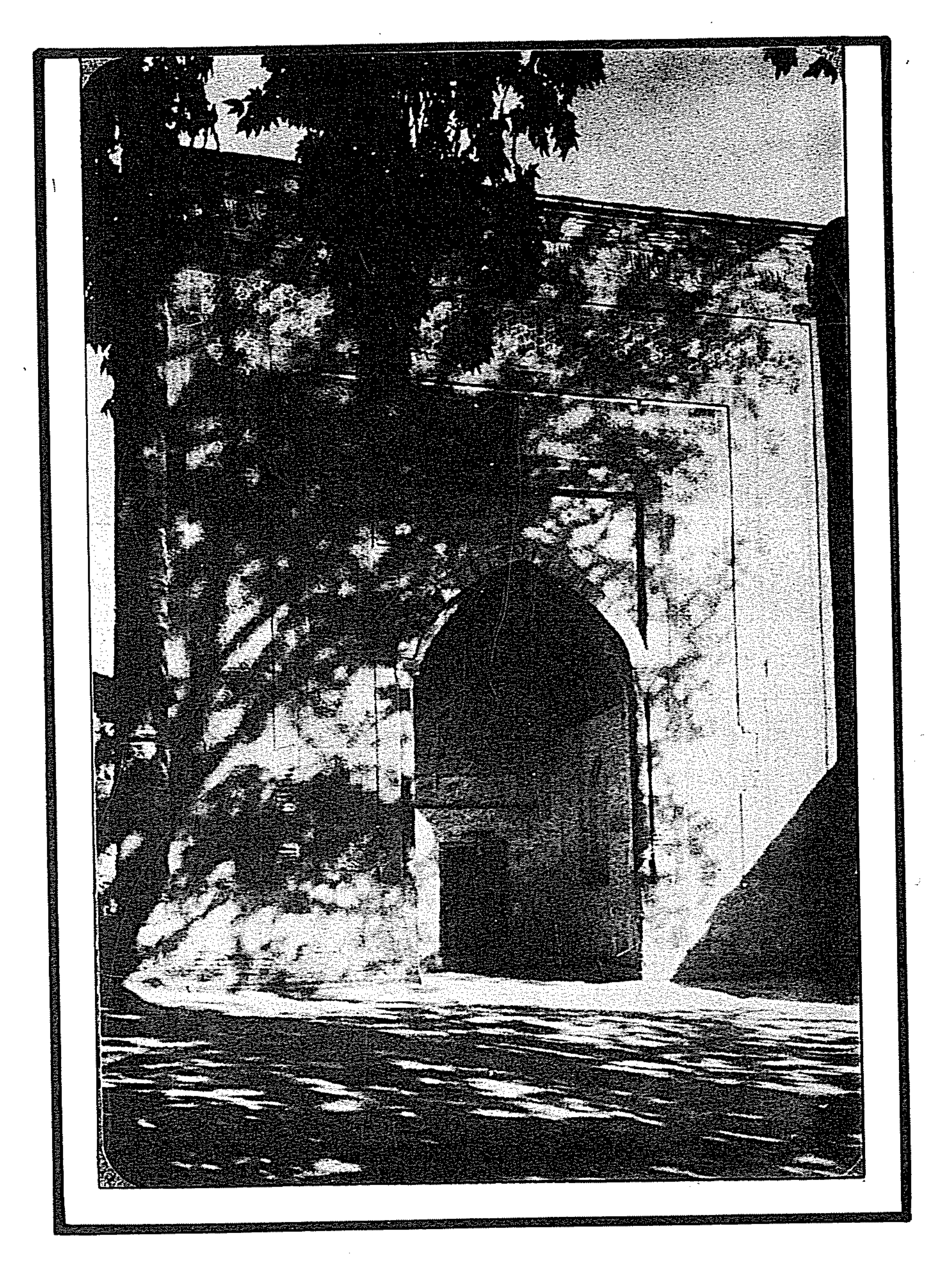
قرية قاراباغلار في نخجوان التابعة لجمهورية اذربيجان ترى مقدار الدمار الذي حل بمسجدها الجامع والمدرسة بعد ان دكته قوات لينين..



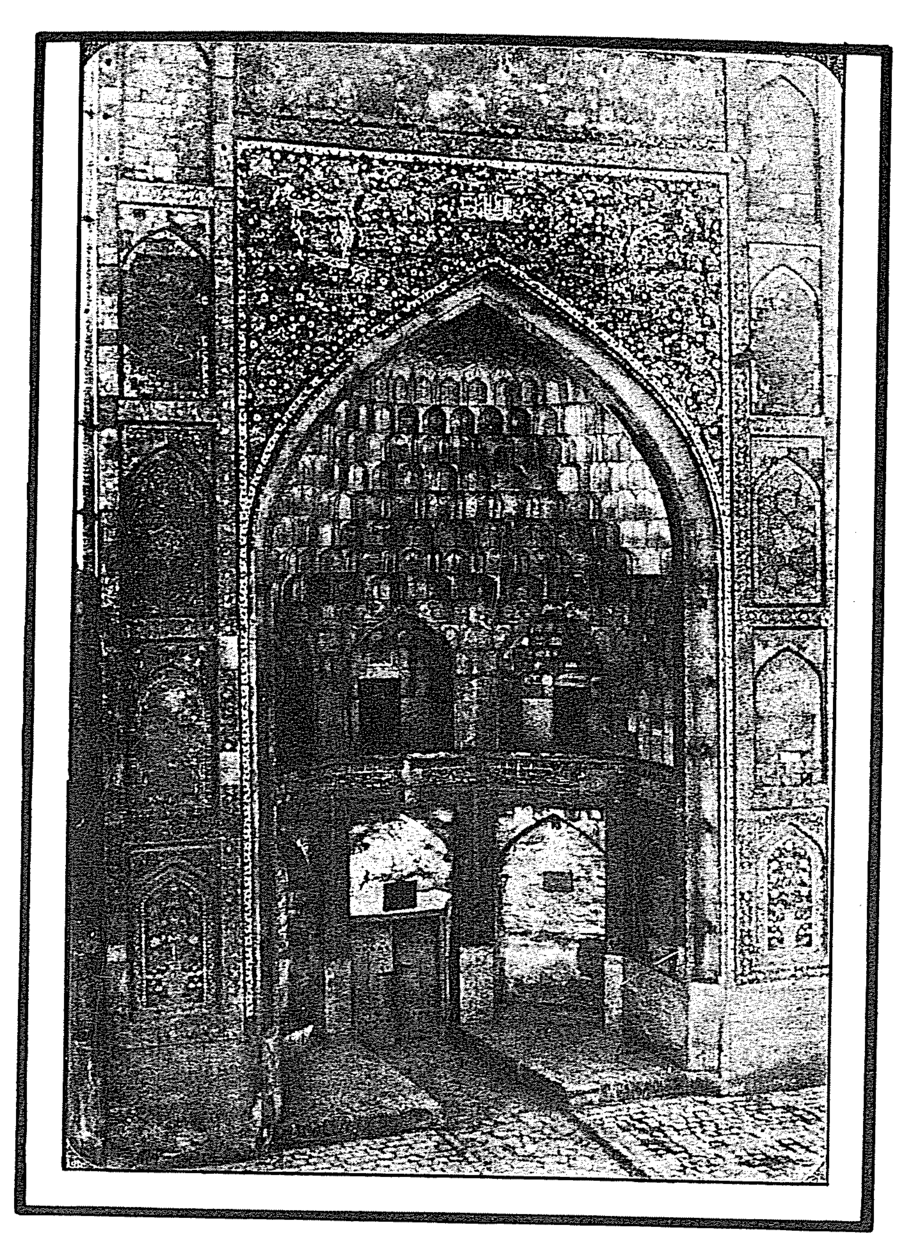
خيوه: مدرسة الله قلى خان من الباحة الداخلية. لقد بنيت هذه المدرسة أو الجامعة الإسلامية سنة ١٢٥١ هـ (١٨٣٥م) ولكن البلاشفة الروس اغلقوا هذه المدرسة الاسلامية كما اغلقوا ٧ الآف مدرسة اسلامية في جميع اراضي التركستان وذلك منذ أن دخلتها قوات لينين عام ١٩٢٤..



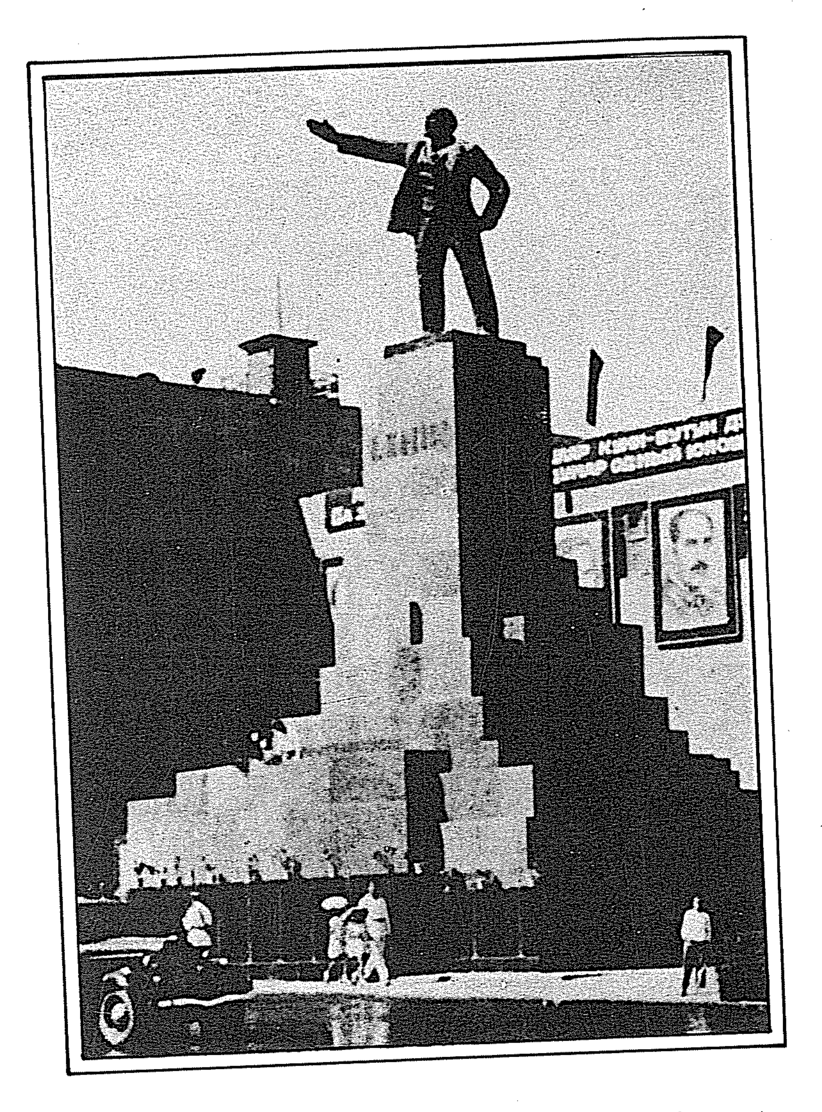
مسجد قرية خرتنك إحدى قرى سمرقند.. وفي هذا المكان دفن الامام محمد بن اسماعيل البخاري صاحب الجامع الصحيح أشهر كتب الحديث وأصحها. ويقول تقي الدين النووي المظاهري في كتابه عن الإمام البخاري أنها تدعى اليوم خاجا أباد وهي على بعد فرسخين تقريبا من سمرقند.



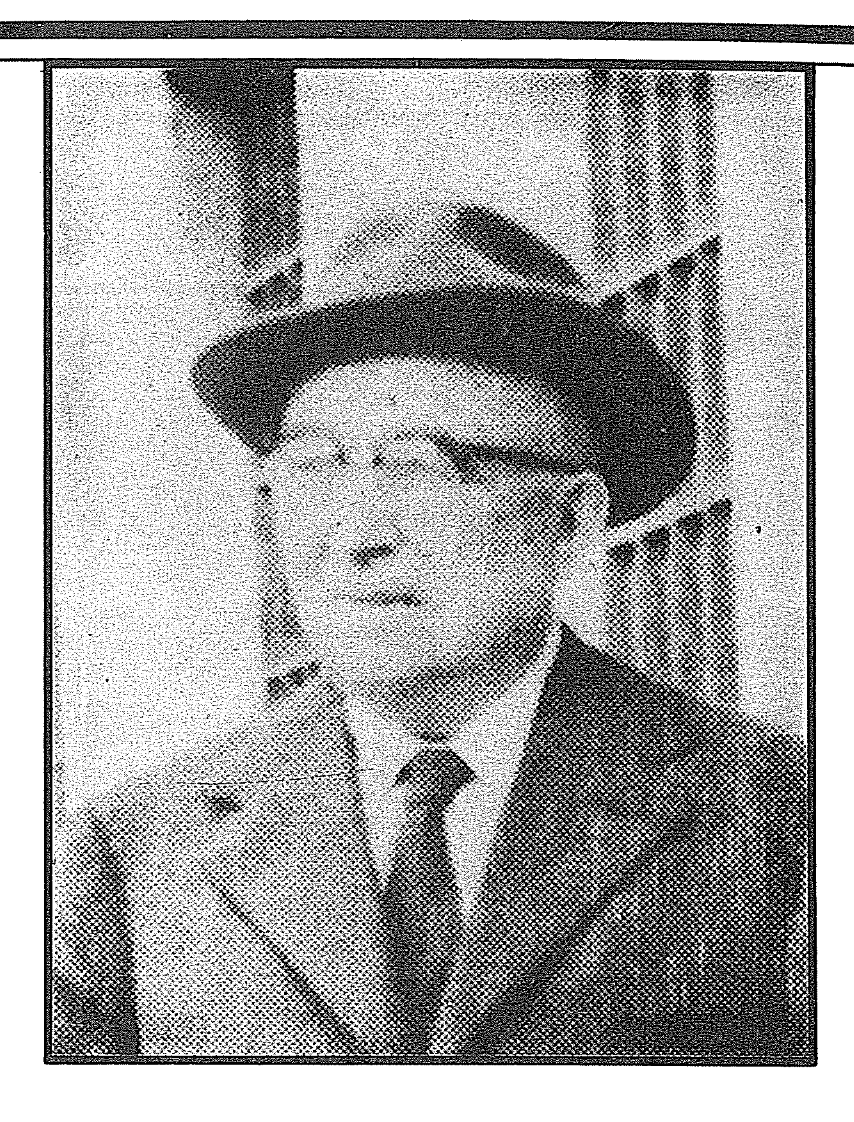
مدينة نمنكان (التركستان): زاوية خواجه امين قبري القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي).



بخارى: مدرسة عبد العزيز خان ١٠٦٣هـ (١٦٥٢م) بوابة الواجهة.

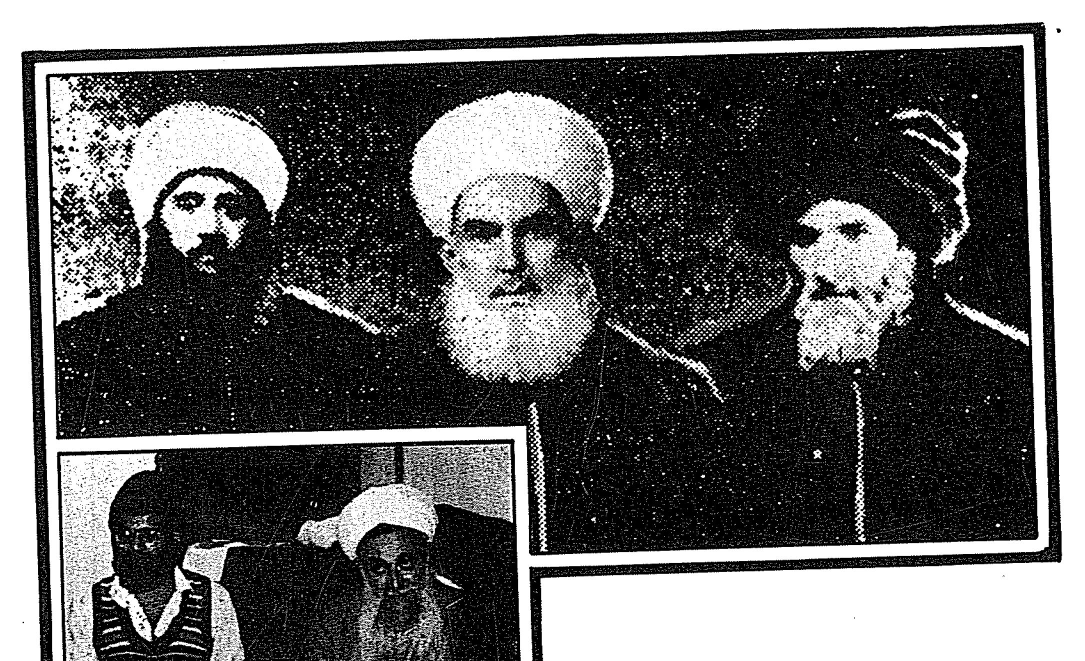


طشقند (الشاش): تمثال لينين في اكبر ميادين طشقند التي أخرجت الامام محمد بن علي بن اسماعيل القفال الشاشي احد أئمة الفقه الشافعي الكبار..

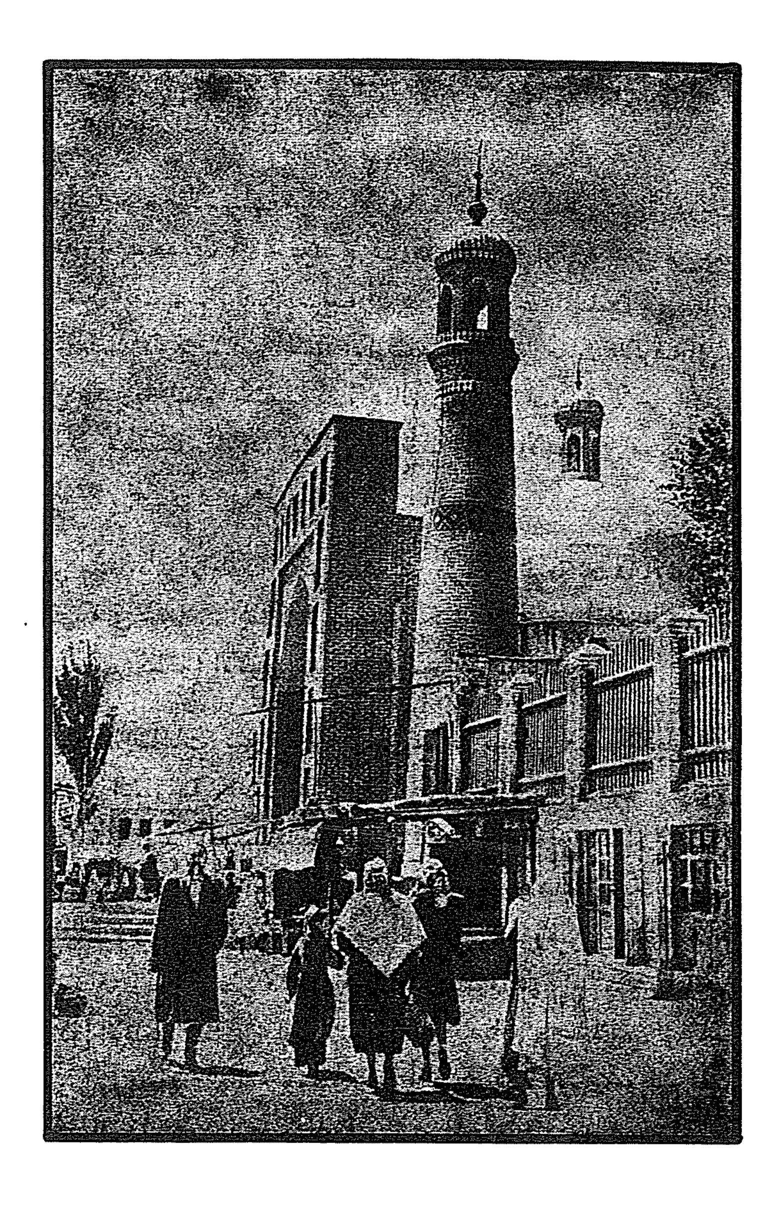


زكي فيلدي طوقان الذي ترأس أول دولة إسلامية مستقلة في بشكيريا وتعاون أول الأمر مع قوات كولشكاك ضد لينين فوجد ان كولشاك يريد ان يعيد الهيمنة القيصرية على بلاده فانضم الى لينين مصدقا وعوده باستقلال المسلمين ولكن ما لبث ان نكث بجميع عهوده ومواثيقه فاحتل بشكيريا بقواته الحمراء بعد ان قضى بمساعدة المسلمين على قوات روسيا البيضاء.. وفر زكي طوقان كما فر الغازي انور باشا الى بخارى حيث انضم الى ثورة الباسماشتية التي استمرت من عام ١٩١٨ الى ١٩٣٦م.. والتي كبدت القوات الروسية الشيوعية خسائر فادحة.. مما أدى الى الانتقام الرهيب من جميع سكان التركستان بحيث ابادت القوات الروسية مباشرة وبواسطة المجاعات المدبرة اكثر من ثلاثة مليون تركستاني كما فر الملايين منهم في مختلف انحاء الأرض.. ومنهم زكي فيلدي طوقان الذي فر الى تركيا..

ثلاثة من الأئمة المجاهدين من شيوخ الطريقة النقشبندية الصوفية الذين دوخوا الاستعمار الروسي القيصري ثم البلشفي.



الصورة السفلى: للشيخ ناظم شيخ الطريقة النقشبندية الحالي في القوقاس والى هذه الطريقة يرجع المجاهدون الذين وقفوا ضد الغزو الروسي القيصري ثم البلشفي.. وهم الذين يقومون حاليا بنشر الاسلام وتجذيره في الخفاء ومقاومة التعليم والدعاية الشيوعية المفروضة على المسلمين في جميع انحاء الاتحاد السوفيتي.. كما انهم يقومون بتعليم القرآن وتحفيظه لأتباعهم سراً.. ويعلمونهم الذكر القلبي والذكر الجماعي والمحافظة على الصلوات. وقد اشتهرت الطريقة النقشبندية بالتزامها بالشرع حيث اشتهر قولهم «لا توجد طريقة خارج الشريعة».



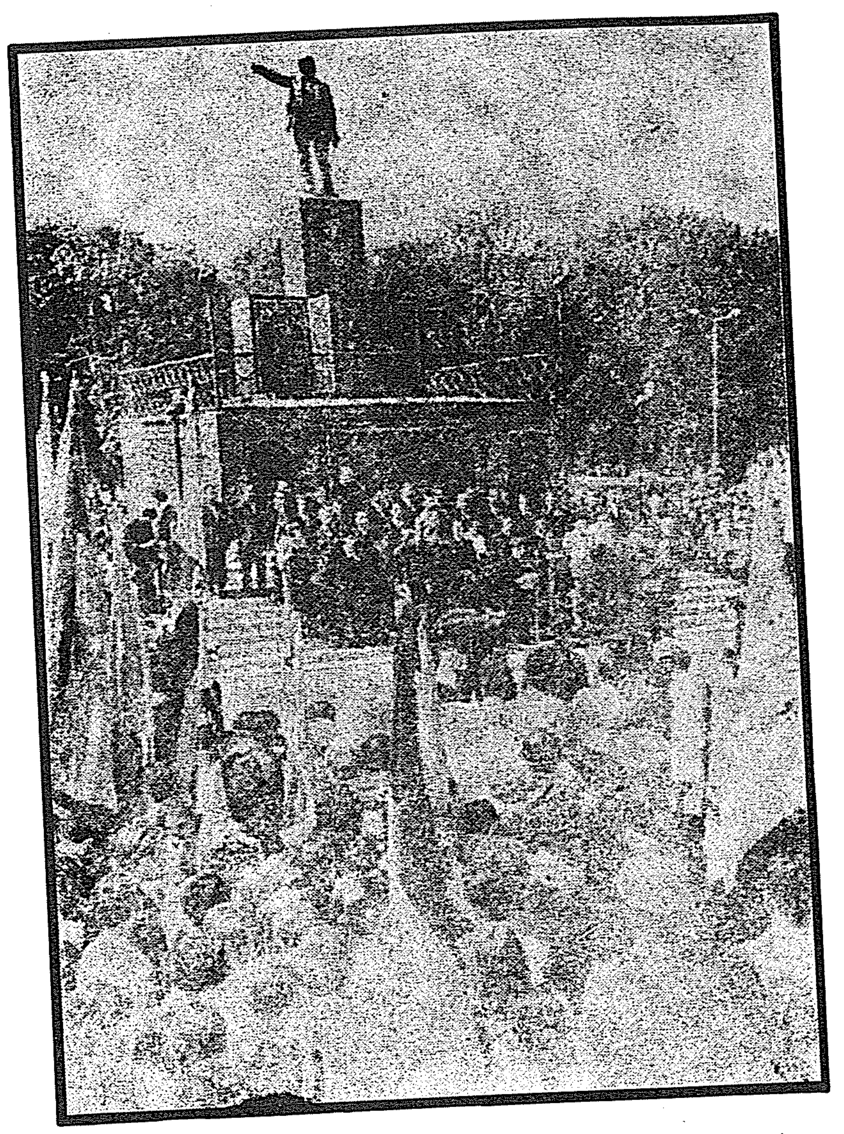
مسجد جامع في روسيا أصبح الآن مكتب من مكاتب الحكومة في السوق



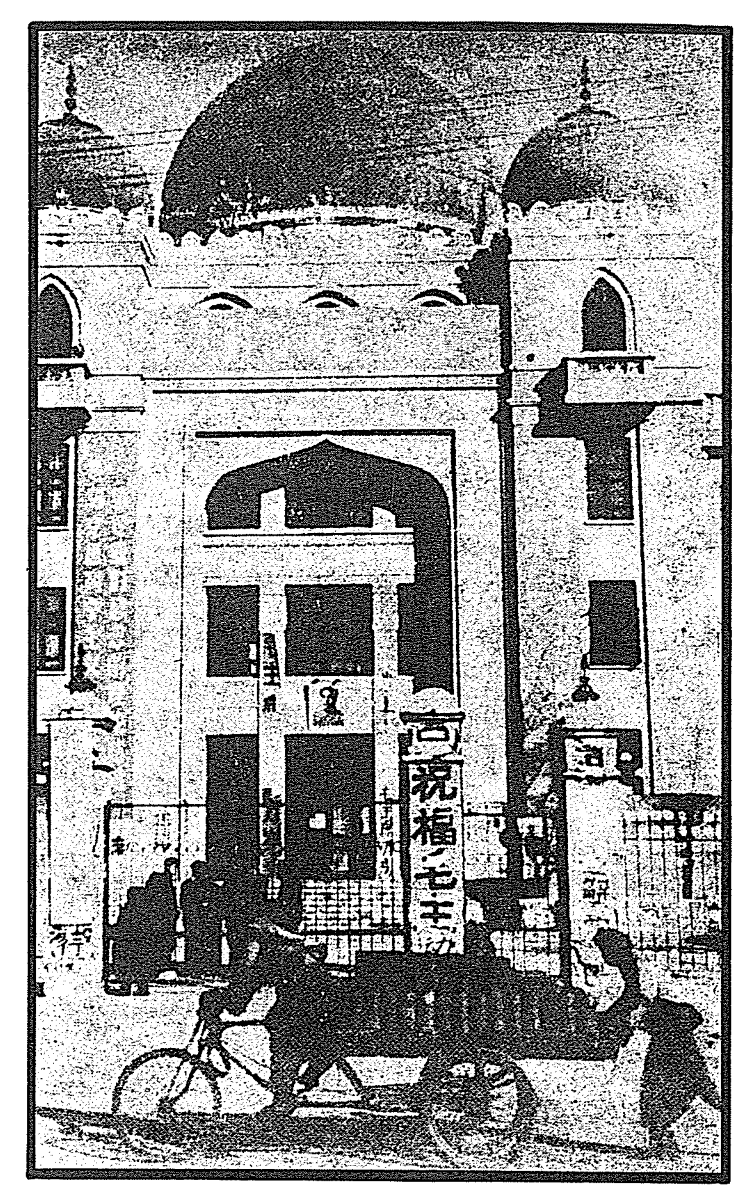
مدرسة إسلامية استولت عليها الصين الشيوعية
وألصقت على جدرانها مناشير ضد الإسلام



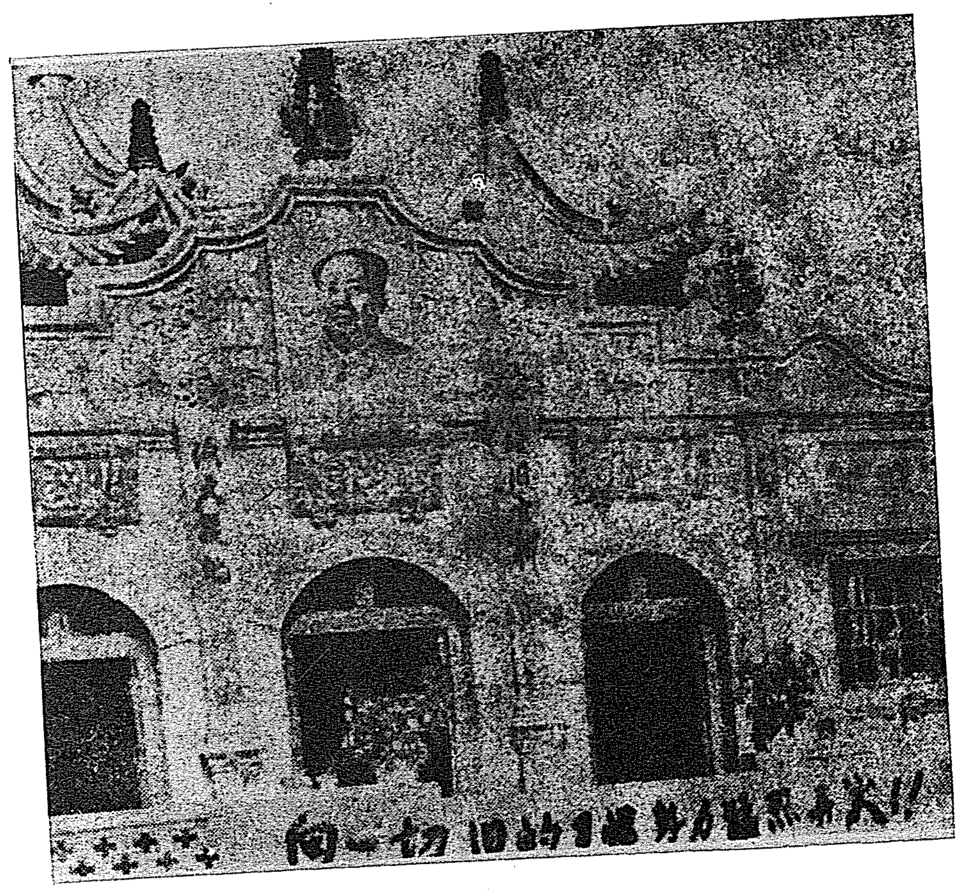
«حكومة بيكين تجبر الشعوب الإسلامية على قراءة كتب ماوتسي تونغ والإقتداء بتعاليمه وكان هذا الشيخ المسلم يمسك بكتاب ماو أمام جمع من المسلمين ويسخر بمحتوياته وبالشيوعية»
(صورة ممنوعة من الصين الشيوعية)



الاحتفال بإزاحة الستار عن تمثال لينين الذي نصب على مسجد إسلامي في التركستان الشرقية بعد الإستيلاء عليها.



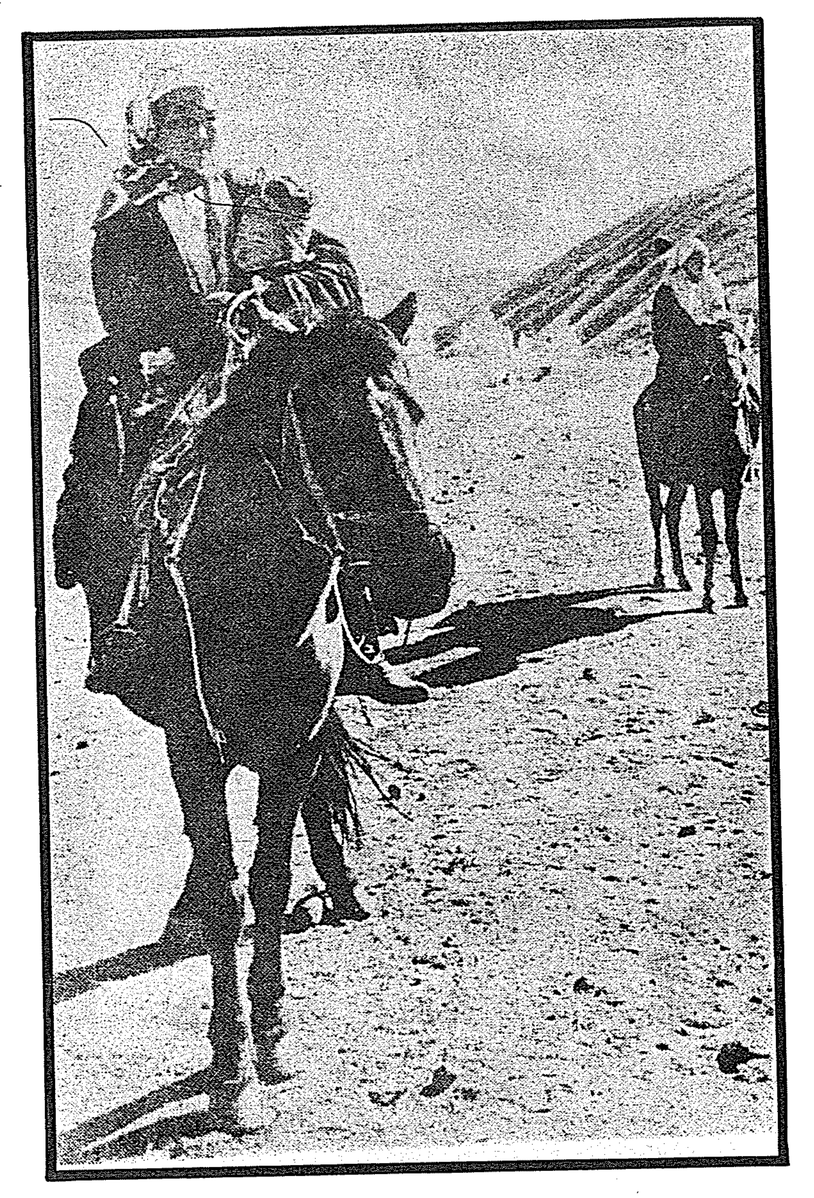
مسجد في تركستان الشرقية حيث حولته السلطات الشيوعية الصينية الى معهد لتدريس الشيوعية وعلقت على واجهته صورة ماوتسي تونغ.



المعهد الاسلامي الذي استولت عليه الشيوعية الصينية
ورفعت عليه صورة ماوتسي تونغ.



صحن مسجد في تركستان الشرقية علق عليه رسم ماوتسي تونغ وفرض على المسلمين أن يستمعوا إلى تعاليمه بالإكراه في الصين الشعبية.



عائلة تركستانية تخترق الحدود الصحراوية للإلتجاء إلى الدول المجاورة، بينما المرأة تحتضن إبنها.



فهرس الأعلام

فهرس الأمكنة والمواضع

فهرس الأعلام

- أ -

- ث -

- ج -

- خ -

- ن -

- هـ -

فهرس الأمكنة والمواضع

- ب -

- ت -

- ز -

- ش -

- ص -

- ض -

- ط -

- ع -

- غ -

- ك -

- هـ -

فهرس الكتاب

الجزء الثاني: مناطق ومدن التركستان التاريخية


Abdulcelil TURAN
Yenidoğan Mh. 41. Sk. No: 7
Daire: 4 Zeytinburnu - İST.


تنفيذ
مركز الصف الالكتروني
براج وخطيب
تصميم - اخراج - طباعة
بيروت ص.ب ٤١٥٤-١١
تلفون ٨٠٤٦٠٧-٨٠٤٧٠٦



للنشر والتوزيع والطباعة
تليفون: الادارة: ٦٣١٠٠٣٢ (٠٢) المكتبة: ٦٤٢٦٦١٠ (٠٢)
برقياً: مشكاتنا - تلكس SHORCO SJ ٤٠١٢٠٩
ص.ب. ٤١٤٦ - جدة - المملكة العربية السعودية